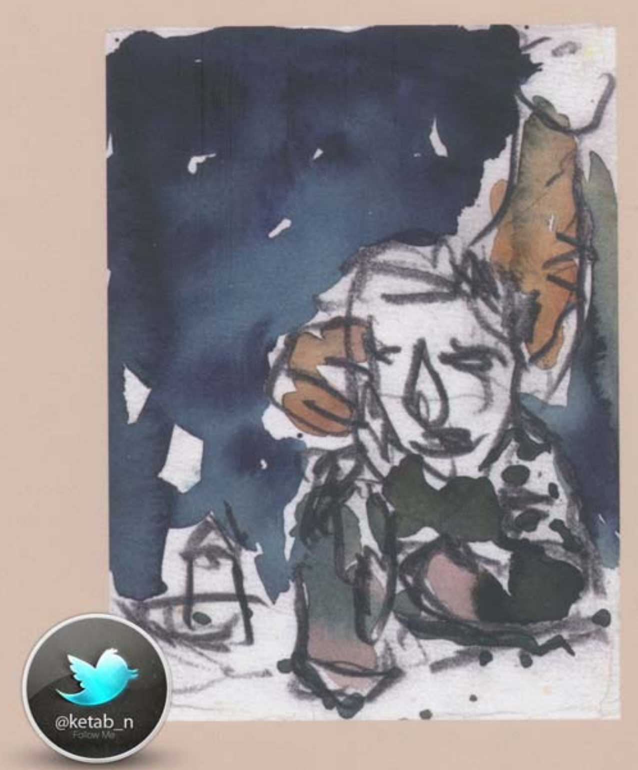
عبد الرحمن مُنيف

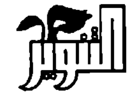


شَرق المتوسّط

عبد الرحمن مُنيف

شرق المتوسّط





عبد الرحمن منيف

شرق المتوسط

الكتاب: شرق المتوسط
تأليف: عبد الرحمن منيف
تصميم الغلاف: مروان قصاب باشي

الطبعة التاسعة عشرة: 2016
عدد الصفحات: 248 صفحة
الترقيم الدولي: 978-614-419-095-3

الناشران

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

المركز الرئيسي

المصيطبة - شارع ميشال أبي شهلا - متفرع من جسر سليم سلام - مفرق الجامعة اللبنانية الدولية LIU - بناية النجوم - مقابل أبراج بيروت

ص.ب.: 11/5460 الرمز البريدي 1107-2190

تلفاكس: 00961 1 707892 - 00961 1 707891

بيروت - لبنان

E-mail: mkpublishing@terra.net.lb

موقع الدار الألكتروني: www.airpbooks.com

التوزيع في الأردن

دار الفارس للنشر والتوزيع

عمّان، ص. ب. 9157،

هاتف: 00962 6 5605432

هاتفاكس: 00962 6 5685501

E-mail : info@airpbooks.com

دار التنوير للطباعة والنشر

لبنان

بيروت - بئر حسن - سنتر كرستال، الهزيم - الطابق الأول

هاتف:009611843340

بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com

مصر

القاهرة - وسط البلد - 19 عبد السلام عارف (البستان سابقاً) - الدور 8 - شقة 82

هاتف: 0020223921332

بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com

تونس

24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس

هاتف وفاكس: 0021670315690

بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com

موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

تقديم متأخر لكنه ضروري

قد يكون زائداً، وربما متأخراً، كتابة تقديم لرواية في طبعتها الثانية عشرة، وبعد مرور ربع قرن على صدورها الأول!

لكن لهذه الرواية بعض المبرّرات التي يجدر ذكرها، لأنّها تضيء جوانب يحسن النظر اليها رغم مرور الزمن.

كتبت «شرق المتوسط» عام ١٩٧٢، وقبل ان تُنشر لي أية رواية سابقة. ولما كنت غير متأكد، بالمقدار الكافي، ان تصبح الكلمة الروائية وحدها طريقتي في التواصل مع الآخرين، نظراً لأنَّ «الموال» السياسي كان لا يزال يراودني في ذلك الحين، ولأنَّ جرح حزيران كان ساخناً، وكان يُفترض ان يكون الرد على الهزيمة عملاً سياسياً مباشراً، وبالتالي اعتبرت الكلمة الروائية هدنة، يعود بعدها كل إنسان إلى الموقع الذي يعتبره أكثر ملاءمة له؛ إضافة إلى جهلي، أو عدم درايتي الكافية، برد الفعل الذي قد ينجم عن كتابة رواية تتناول أحد أبرز المحرمات: السجن السياسي؛ علاوة على التوجس الذي يراود مَن يدخل عالماً جديداً، ومعتماً، يجهل مسالكه؛ وأخيراً احتمال المنع الذي يمكن ان يواجه كتاباً وكاتباً في بدايته الأولى...
لهذه الأسباب كُنت رقيباً على نفسي أثناء كتابة «شرق المتوسط»، أي لم أقل كل ما يجب أن يُقال حول عالم السجن السياسي، وما يتعرّض

له السجين من قسوة ومهانة في الزنازين الممتدة على كامل حوض المتوسط الجنوبي والشرقي، والتي تتزايد وتتسع سنة بعد أخرى، مما جعل الرواية توحي ولا تحكي، تُشير ولا تتكلم.

ليس هذا كل شيء، فالرواية، حين صدرت، قُوبلت بموقفين يكادان يكونان متعارضين، موقف القارىء الذي يريد ان يعرف أدقّ التفاصيل عن عالم السجن السياسي، وموقف السلطات التي رأت مجرد الاقتراب من المحرمات، وعلى رأسها السجن السياسي، تعدياً على وجودها وهيبتها، وتالياً فضحاً لممارساتها.

ولأنَّ عدداً كبيراً ممن يقرأون له صلة بالسجن السياسي، تجربة ومعرفة، أو اقتراباً، فقد أعتبر ان ما قِيلَ في هذه الرواية غير كافٍ، لأنَّ واقع الحال أدهى وأمرّ مما كتب، وبالتالي كان من الواجب كشف الغطاء كاملاً عمَّا يحصل في السراديب، وفي العتمة، إذا أردنا فضح السجن السياسي ومقاومته، تمهيداً لإلغائه.

أمَّا السلطات العربية، أو مَن يقرأ لها، فاعتبرت الخوض في مثل هذه الموضوعات عملاً إذاً يجب الوقوف في وجهه تمهيداً لإسكاته. ونظراً للتجربة المكتسبة لهذه السلطات، علاوة على ما يصدّر إليها من «خبرة» وأساليب وأدوات، فقد كانت بداية المقاومة الادعاء ان الأمر لا يعنيها، وإنَّما يعني الدول الأخرى، خاصة وان الرواية جاءت بصيغة التعميم، أي ان شرق المتوسط، مع انه لا يسمِّي مكاناً بذاته لكنه يعني كل دولة تحديداً. ولذلك، وحين كان يجري الحديث عن «شرق المتوسط» كانت كل دولة تنظر إلى الأخرى باعتبارها المعنية، أمَّا هي فبريئة مما يُقال. مع ان العثور على «شرق المتوسط» الرواية، في بعض الحالات، وفي أكثر الأماكن كان دليلاً جرمياً، وتالياً قرينة تُدين مَن يعثر عليها لديه!

أكثر من ذلك، كانت هناك محاولات عديدة للتعامل مع هذه الرواية وتحويلها إلى شريط سينمائي، لكن بعد ان تقطع المحاولة شوطاً تتوقف، لأنَّ لا أحد يريد ان يعترف بوجود هذه المشكلة لديه. ورغم ان بعض محاولات نقل الرواية إلى السينما اتسم بالمكر، لإبعاد الشبهة، كأن يُقترح تمويه أو تغيير لهجة الحوار، بحيث تظهر مختلفة بمقدار عن اللهجة السائدة في ذلك البلد، أو كأن يتم اختيار تضاريس جغرافية مغايرة، لتشي ان البلد المقصود ليس ذاك الذي يجري فيه التصوير، إلاَّ ان المحاولات كلها انتهت إلى الرفض، وكأنَّ كل بلد في شرق المتوسط يقول في نفسه: من أكبر الأخطاء ان يأتي الإنسان بالدب إلى كرمه!

وهكذا ظلَّت «شرق المتوسط» تطبع وتقرأ عند تخوم اللون الأصفر، أي ليست رواية ممنوعة إلاَّ في عدد من بلدان شرق المتوسط، وليست مسموحة إلاَّ بمقدار في أغلب البلدان الأخرى، لأنَّ التجربة أثبتت ان الكتب حين تُمنع تصبح أكثر رواجاً، وبالتالي يُقبل على قراءتها الكثيرون، أمَّا السماح بالكتاب ضمن حدود ونيود، فيجعله موجوداً وغير موجود في آن واحد، مع فرض الحرم لكي يبقى الكتاب هكذا، أي عدم التعامل معه بأساليب وأشكال يتيح له ان يصبح مادة للدراسة، أو لأن يتحول إلى صيغ جديدة لكي يصل إلى جمهور أوسع. وهكذا ظلَّت «شرق المتوسط» تواصل رحلتها الخاصة، وقد استطاعت ان تفجّر اللون الأصفر، وتجعله يضيء الكثير مما حوله، وجعلت الكثيرين يقبلون على هذا اللون من الأدب.

لقد كان لـ «شرق المتوسط»، مع روايات أخرى، شرف التأسيس لما سُمِّيَ فيما بعد: أدب السجون. وأصبح هذا الميدان واحداً من الميادين الأساسية للرواية العربية، كتابة وموضع إقبال

واهتمام القراء. كما انتبه الكثيرون في الوطن وخارجه، خاصة بعد ان ترجم عدد من هذه الروايات إلى لغات عدة، إلى ظاهرة السجن السياسي، ومحاولة فضح الانتهاكات التي يعاني منها جميع الناس وعلى امتداد الأرض العربية.

إنَّ فضح إحدى الظواهر السلبية يشكل البداية لمواجهتها، تمهيداً للتخلّص منها، ويأخذ الأمر شكل صراع، وهذا الصراع ربما يطول، وقد يتعرّج. ويبدو أننا اليوم في إحدى مراحل الصراع الأكثر قسوة، وفي أحد المنعرجات الأشد خطورة.

إذ رغم تزايد الكتابات الروائية وغيرها، المطالبة بالديمقراطية، فإنَّ القمع ذاته الذي تمارسه السلطات زاد عن ذي قبل، وأخذ اشكالاً اشد قسوة وتمويهاً، لأنَّ الفئات العربية الحاكمة تزايد خوفها، وأصبحت اكثر ضيقاً بالمعارضة، وبالتالي اكثر لجوءاً إلى القمع، وأصبح السجن السياسي الوسيلة لحماية وجودها واستمرارها. ولأنَّ أفق العمل السياسي، بمعنى التعدّد والاختلاف، ضاق مقارنة بفترات سابقة، كما ان الغرب تحديداً زاد في دعم الفئات الحاكمة وطور أساليب عملها، وأمدَّها بكل الوسائل الجديدة للقمع. وهكذا أصبحنا الآن أمام ظاهرة جديدة وخطيرة: العنف.

إنَّ ظاهرة العنف التي تنتشر بشكل متزايد في بلدان شرق المتوسط وجنوبه نتيجة طبيعية لغياب الحرية، ولضيق الحاكم العربي بأية معارضة، ولعدم احتماله ان تكون هناك إمكانية للتعدّد والاختلاف. لقد أدَّى ذلك إلى تقليص او إلغاء العمل السياسي بمعناه الحقيقي والعصري، أي لا اعتراف بالآخر، وبالتالي لا إقرار ولا تسامح مع الرأي المختلف. الأمر الذي أدَّى إلى غياب الأحزاب، وتراجع المشاركة الشعبية، وإلى إنعدام الرقابة او

المحاسبة. كما ان الصحافة الحرَّة والمستقلة فقدت الجزء الأكبر من دورها، وكذلك العمل النقابي ومؤسساته، إذ أصبحا مجرد أشكال هزلية مهمتهما تأييد السلطة ورفع الشعارات.

في مواجهة انسداد آفاق العمل السياسي الشرعي، برز العنف كمحاولة لاستعادة الحقوق، وشق طريق جديد، فدخلت المنطقة في حالة من الصدام الدموي، والعنف المتبادل، مما سبَّب نزيفاً سوف يؤدِّي إلى المزيد من التآكل والضعف والريبة المتبادلة.

إنَّ مقاومة العنف السائد حالياً لا تكون إلاَّ بالاعتراف المتبادل وبالحرية. فالاقرار بوجود الآخر، وحقّه في التعبير والمشاركة، بداية للحوار. أمّا الحرية، وصيغتها العملية هي الديمقراطية، فمن شأنها ان تكسر حالة الاستعصاء القائمة الآن بين الناس والأنظمة الحاكمة، لأنَّ الديمقراطية ليست مجرد كلمة او شعار، وإنّما هي صيغ عملية تحدّدها طبيعة المرحلة، وهي ممارسة يومية ضمن قواعد وعلاقات يلتزم بها طرفا اللعبة الديمقراطية.

الديمقراطية المطلوبة، والتي يجب ان تسود في المرحلة الراهنة، تعني حرية التعبير والتمثيل والمشاركة في اتخاذ القرار، أي تعترف بالتعدّد وإمكانية الاختلاف وايضاً تبادل السلطة. كما تعني الحق في تكوين الأحزاب والجمعيات والنقابات، وحرية المعتقد والسفر والمراسلة. هذه الحقوق التي يُطالب بها تستند إلى شرعة حقوق الإنسان، كما يجب ان ينصّ عليها في القوانين المعمول بها في أي بلد، ولا بدَّ ان تخضع إلى الرقابة الفعلية التي يمارسها المجتمع المدني، من خلال مؤسساته. وفي حال الاختلاف او التجاوز هناك القضاء المستقل الذي يوكل إليه تطبيق القانون وتفسيره، والذي يجب ان يخضع اليه طرفا العلاقة، وان يحترما أحكامه، وفي حال عدم كفاية

هذه القوانين، ووجود الرغبة بتغييرها او تعديلها، فيجب ان يتم ذلك بإرادة الناس، ومن خلال تعبيرهم الواضح والصريح، لأنَّ هذه القوانين سوف تُطبّق عليهم.

في حال غياب هذه الحقوق، او عدم الاعتراف بها من الذين يحكمون، او في حال تجاوزها، فإنَّ العقد الاجتماعي بين الحاكم والمحكوم يختل، وقد يصبح لاغياً، وبالتالي يصبح الطريق المفتوح أمام المضطهَد، المحروم من الحقوق، هو العنف، كوسيلة لتعديل الصيغة المختلة، وهذا ما جعل السجن السياسي «يزدهر» في هذه المجتمعات، وهذا ما جعل لاحقاً وسيلة التعبير الأساسية، وربما الوحيدة، للوصول إلى الحقوق لمن حُرموا منها: العنف. أما نتائج هذه العنف فتنعكس على المجتمع كله، لأنَّه في حال غياب الاعتراف المتبادل، وفي حال لجوء السلطة إلى إلغاء الآخر، فإنَّ رد الفعل يكون موازياً للفعل، ومن ذات الطبيعة. وهكذا يدخل المجتمع كله في نفق مظلم، يؤدّي إلى الخوف والشلل والتآكل والنفاق، وتصبح لغة العنف هي اللغة السائدة، او ربما وسيلة الحوار الوحيدة.

لا بدَّ لكل مجتمع من رؤية تاريخية، والرؤية التاريخية تقتضي ان يؤخذ بعين الاعتبار واقع التطوّر ومهمات المرحلة، كما يجب ان يكون المستقبل حاضراً في كل خطوة، لأنَّ قوة النظام، أي نظام، تعتمد على رضى الناس ومشاركتهم. والرضى والمشاركة يتطلبان صيغاً للتعايش والتفاعل والانسجام والتعاون، الآن، وفي المستقبل، ضمن اتفاق أو توافق تفرضه شروط المرحلة والمكان. أمَّا السير باتجاه معاكس، اعتماداً على القوة والإملاء، وباستغلال الموقع أو اللحظة الحالية وحدها، فإنَّ من شأن ذلك أن يلغي المستقبل ويعقّده، حتى بالنسبة لمَن يملك القوة الآن.

ولا تقل عن هذا الخطر محاولة حرق المراحل التاريخية أو تجاوزها، من خلال التوهم بتوفر شروط الانتقال إلى مرحلة جديدة، اعتماداً على القوة، وبإلغاء الآخر.

ان اياً من هذين الموقفين يخلق المناخ لتوالد الاضطراب ثم العنف، وهذا ما يفسّر الكثير من الأخطاء التي حصلت في عدة أماكن، وفي عدة مراحل، كما يفسّر القمع، ثم العنف الذي يقابله.

«شرق المتوسط» استندت إلى نقطة أساسية هي: شرعة حقوق الإنسان، هذه الوثيقة التي مضى على إقرارها ومهرها بالتواقيع والمصادقات ما يزيد على خمسين سنة، ومع ذلك فإنَّها أكثر الوثائق التي تعرَّضت إلى التحدِّي والعبث والمخالفة، الأمر الذي يجعل الإنسان يتساءل: هل تمَّ إقرار هذه الوثيقة لكي تتفنَّن كل دولة بمخالفتها؟ أو هل ان هذه الشرعة غير قابلة للتحقيق، خاصة في بلدان العالم الثالث، وتحديداً في بلدان شرق المتوسط، وبالتالي لا بدَّ من تجاوزها حكماً؟

انطلاقاً من هذه النقطة، ولأنَّ الفنَّانين كالأطفال، يحسّون ويفكّرون ويحلمون، فكثيراً ما صدقوا الكلمات التي يسمعونها أو يقرأونها، كما انهم يرون الأشياء على حقيقتها، حتى لو كانت عارية، ولذلك لا يتردّدون في ان يقولوا للآخرين كل شيء، بما فيها عري الملك إن رأوه عارياً فعلاً!

«شرق المتوسط» صدقت، أو حاولت ان تصدق، شرعة حقوق الإنسان، وقالت ان تلك الوثيقة التي حملت هذا الكم الهائل من التواقيع، يجب ان تتجسّد على أرض الواقع، ومَن يخالفها يكون خارجاً على القانون، ولا بدَّ من فضحه، كما فعل الطفل مع الملك.

بدأت الرحلة اعتماداً على هذه القناعة، فكان السجن السياسي، وكانت فجيعة الاكتشاف، ثم قسوة التجربة.

وفي محاولة لخداع النفس، أو تحدِّي الاكتشاف، كان الحلم. والحلم دائماً هو مظلة للأيام التي ستأتي. وهكذا بدأت رحلة ضياع جديدة في الأمكنة البعيدة، إلى ان جاءت صدمة الواقع، لتقول بصوت عالٍ: الآخر، البعيد، إذا تيقظ ضميره، وعرف الحقيقة، يمكن ان يكون عاملاً مساعداً، لكنه لا يمكن ان يكون بديلاً، لأنَّه لا يحك الجلد إلاَّ الظفر، وهكذا كانت العودة، عودة المواجهة ثم الغياب، لكن الضوء الذي اشتعل لا يمكن أن ينطفىء، وبدل نجمة واحدة انفجرت نجوم كثيرة.

وإذا كانت «شرق المتوسط» لم تقل كل ما يجب، للأسباب التي ذكرت في البداية، ولأنَّ السجن السياسي لم يوف حقه، فقد كانت الضرورة تقتضي العودة إلى هذا العالم الكئيب والقاسي، فكانت رواية ثانية، هي «الآن... هنا» أو «شرق المتوسط مرة أخرى». ومع ذلك لا يزال الموضوع بحاجة إلى مساهمات الكثيرين، لأنَّ عار السجن السياسي أكبر عار عربي معاصر، وقد يفوق الهزائم العسكرية من بعض الجوانب، لأنَّه لا يمكن ان يواجه الهزيمة العسكرية، وحتى الهزيمة السياسية، إلاَّ مواطن حر، يعرف معنى الوطن، ويعرف كيف يدافع عنه. وما دام هناك سجن سياسي فسيبقى المواطن مقيَّداً، وبعض الأحيان غير معني، لأنَّ الحرية والوطن شيء واحد.

الأمر الأخير الذي تجدر الإشارة إليه في هذا التقديم، ان الأشياء في أزمنة سابقة كانت أكثر وضوحاً، ويمكن التميز بينها دون عناء. أمَّا اليوم فقد اختلطت الأزمنة والألوان إلى درجة يصعب معها التميز.

ما نراه اليوم يتجاوز كل حد، ويفوق أي تصوّر أو وصف، لأنَّ اختلاط المقاييس الألوان لا تقتصر على شرق المتوسط، إذ أصبحت سمة عالمية بعد ان رفع شعار النظام الدولي الجديد، بزعامة الولايات المتحدة. فالقاموس الأمريكي هو الذي يعطي للتصرفات والأحداث والأشخاص والمواقف الصفات التي يجب ان تكونها. فالنضال المشروع ضد الظلم والقهر، سواء أكان ضد نظام أو حاكم، يأخذ أكثر من اسم وأكثر من صفة، تبعاً لمدى الفائدة أو الضرر الذي يعود على الولايات المتحدة ومصالحها، ولذلك اختلطت المفاهيم أكثر من السابق، وأصبحت للكلمات معانٍ متعددة. ووضع مثل هذا، إذا استمر فترة إضافية، يمكن ان يدمّر العالم، ويخلق اشكالات غير قابلة للحل.

إنَّنا اليوم في مواجهة حالة مركبة، في مواجهة خصمين، الأول محلّي والثاني من وراء البحار، وهناك تحالفات من أنواع متعددة يُراد لها ان تحكم سيطرتها، لضمان مصالح الطرف الأقوى، لكن القوة على المستويين المحلي والعالمي لا يمكن ان تدوم طويلاً، أو ان تغيّر في مسار التطور التاريخي، الأمر الذي يستوجب ان يكون العقل والمستقبل من جملة المقاييس والاعتبارات التي يجب التفكير فيها قبل فوات الأوان.

يحدّثنا التاريخ عن أنظمة وامبراطوريات لم يكن لقوتها حدود، لكن التاريخ ذاته يقول لنا كيف انهارت وتفكّكت، وكم دفعت ثمناً غالياً وهي تبارح مواقعها، نتيجة عدم أخذ المستقبل بعين الاعتبار.

يجب ان يقف العقلاء، الذين يشعرون بالمسؤولية، وأولئك الذين يفكّرون بالمستقبل ضد التزييف والمخادعة والفجيعة، ولا بدَّ ان

يكون الإدراك حاسماً ان القوة لا تحل مشكلة، يمكن ان تؤجلها، لكن لا يمكن ان تلغيها.

«شرق المتوسط» حين كتبت عام ١٩٧٢، كانت تواجه خصماً محلياً، أمّا بعد ربع قرن، فإنّ ما يواجه الناس على أحواض كل البحار، عدو يتصور ان القوة، والقوة وحدها، يمكن ان تحل جميع المشاكل، وعلى الناس في كل مكان ان يتحولوا إلى عبيد مرة أخرى، ان يطيعوا ويمتثلوا لكل ما يراد ان يفرض عليهم.

بداية التصدّي لأزمة الدمار الكلي، على المستويين المحلي والعالمي، ان نخلق المواطن الحر، والشعب المرتبط بالوطن، لأنّ في حال وجودهما يمكن أن تولد الثقة ويتجدّد التعاون، كما ينبثق الأمل ان يكون الغد أفضل من اليوم، والبداية... البداية ان تكون للكلمات معانيها.

الرسالة الصغيرة التي أرادتها «شرق المتوسط» ان يكون على هذه الأرض شعب حر، لأنّ في حال وجود الحرية يمكن ان ينام الحاكم والمحكوم ملء الجفون. أمّا إذا كان الحاكم وحده «حراً»، فإنّ دولاب الزمن لا يتوقف عن الدوران، وقد يجد نفسه مَن افترض انه مالك القوة والحرية اكثر الناس ضعفاً وعبودية، ولن يفيد الندم ان جاء متأخراً.

هل لا تزال «شرق المتوسط» صالحة وقادرة، بعد ربع قرن، على محاورة العقول والضمائر، هنا... والآن؟

إنّه سؤال التحدّي

عبد الرحمن منيف

بيروت، تشرين الثاني ١٩٩٨

مواد من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان

المادة الأولى: يُولد جميع الناس احراراً متساوين في الكرامة والحقوق، وقد وهبوا عقلاً وضميراً، وعليهم أن يُعامل بعضهم بعضاً بروح الاخاء.

المادة الثانية: لكل انسان حق التمتع بكافة الحقوق والحريات الواردة في هذا الاعلان، دون أي تمييز بسبب العنصر او اللون او الجنس او اللغة او الدين او الرأي السياسي أو أي رأي آخر...

المادة الثالثة: لكل فرد الحق في الحياة والحرية وسلامة شخصه.

المادة الخامسة: لا يعرض أي انسان للتعذيب او للعقوبات او المعاملات القاسية او الوحشية او الحاطّة بالكرامة.

المادة العاشرة: لكل انسان الحق، على قدم المساواة التامة مع الآخرين، في ان تُنظر قضيته أمام محكمة مستقلة نزيهة نظراً عادلاً علنياً...

المادة الثانية عشرة: لا يعرض احد لتدخل تعسفي في حياته الخاصة أو أسرته أو مسكنه أو مراسلاته أو لحملات على شرفه أو سمعته...

المادة الرابعة عشرة: لكل فرد الحق في أن يلجأ الى بلاد أخرى أو يحاول الالتجاء اليها هرباً من الاضطهاد.

الاعلان العالمي لحقوق الانسان

لتلمس جفوني كل هذه... حتى تعرفها
حتى تتجرح
وليحتفظ دمي بنكهة الظل الذي
لا يستطيع السماح بالنسيان

نيرودا

(١)

. . . أشيلوس تهتز، تترجرج، تبتعد بحركة ثقيلة تشبه رقصة ديك مذبوح، والميناء عند الغروب، يستقبل الأضواء الرخوة: يعلكها بسأم ثم يتركها فتسقط، ترتجف فوق الماء، ثم تذوب وضجة البشر في تلك الساعة المليئة باللاجدوى، أشبه ما تكون بأصوات جراء مخنوقة، أمّا الأيدي بحركتها البلهاء، فقد بدت كالخرق البالية تهزها ريح لا ترى، والوجوه، آه لشد ما كانت تعاسة الوجوه: عيون صماء، ثقيلة، أفواه مطاطية تشبه فروج الحيوانات بحركتهاالمتشنجة، وأشيلوس المجدولة من العبث والدوي تزحف، تبتعد.

ميناء الشقاء ويا ليته ميناء اللاعودة، آخر قطعة من الوطن، وآخر أوراق خضراء وأنين!

ثلاثون سنة، ثلاثون صيفاً وخريفاً، ثلاثون ربيعاً، أمّا الشتاء فقد جاء الآن، جاء في الثلاثين.

كان يوم الأربعاء ١٧ تشرين الأول.

أول غيوم تمر فوق السجن، كانت هشة صغيرة، تشبه الغبار. ومع مرور الدقائق تتمزق وتتلاشى، وكان في داخلي شيء يتمزق.

لماذا انفجر في داخلي ذاك العواء الأجرب؟ لماذا؟ لماذا؟

قلت لنفسي، بلغة فلسفية مدنسة:

على الأرض حيوان، له قامة طويلة، وأذرع قريبة الشبه بأذرع الشيمبانزي، أمَّا الساقان فضامرتان وفي نهايتهما أقدام عريضة، أمَّا في القمة فكتلة صلبة مغطاة بالشعر، وفيها ثقوب عديدة، في المقدمة وعلى الجانبين. وهذا، الحيوان يستخدم الثقب الأمامي، وخاصة العريض في أسفل الكتلة الصلبة، في القرض والغناء والصفير، وأيام الشتاء يستخدمه للتنفس، أمَّا أيام الرعب فإنَّه يستعمله لغرض واحد فقط، وهذا الغرض لم يعرف له بعد اسم محدد، قال بعضهم للدفاع عن النفس، وقال آخرون للقتل، أما الكثرة الغالبة، فتؤكِّد ان الاستعمال الوحيد لهذا الثقب في زمن الرعب، يكون للقتل او للانتحار!

هناك اعتقاد واسع ان هذا الحيوان سوف ينقرض خلال فترة قصيرة، وفي حال انقراضه ستحتفل الحياة، لأن ذهاب هذا الحيوان بداية السعادة الحقيقية على الأرض!

متى نشأ هذا الحيوان؟ كيف نشأ؟ لا أحد يعرف. أفاقت الحيوانات، ذات يوم، فإذا بها تجد نفسها أمام شيء جديد، لم تألفه من قبل. وقد حاولت كثيراً ان تقيم صلات عاقلة مع هذا الحيوان. وافق في البداية، لكن مع الأيام، أخذ يوقع بينها ويقتلها، وقد تسبَّب في انقراض أعداد كبيرة من الحيوانات الرائعة التي كانت تعيش على الأرض، ولما تكشفت نوايا هذا الحيوان الجديد، ابتعد عنه الجميع، ذهبوا بعيداً وتركوا له كل شيء، لكنه لم يكتف، بدأ يحاصر الحيوانات ويقتلها في كل مكان، ولما لم يجد شيئاً يقتله اخذ

يقتل بعضه. وهكذا بدأت المجازر، بدأت منذ آلاف السنين ولم تتوقف. ولذلك يعتقد ان انقراض هذا الحيوان، أصبح وشيكاً خاصة وان الطرق التي يتبعها في القتل الآن تطورت كثيراً، وأصبحت فعّالة بحيث لا تخطىء أبداً!

تبرير فلسفي أبله، سأشد السيفون في المرحاض واترك كل شيء ينسحب الى تحت: أفكاري الفلسفية، احلامي، ماضيّ، اسمي، كل شيء، نعم كل شيء. يكفي ما أحمله في دمي من آثار، الذرات الصغيرة التي تسري في الدم لا يمكن ان تغادرني أبداً، مَن قال لي هذا؟ طبيب السجن؟ ورقة التحليل؟ لم أعد أُصدّق، البحر مقبرة كبيرة، وأسعد الناس مَن يجد له قبراً في بطن حوت، هناك الدفء، السوائل اللزجة، والمساحة الرحبة المساعدة على الحركة، كانت الأرض صغيرة، رطبة، لها رائحة المراحيض دائماً، ولا تعرف لون الشمس والأشجار...

تقرير الطبيب واضح. قال لي وهو يثبت نظارته بيده اليسرى، ثم ينزل اليد الى فكه لكي يرسم ابتسامة شجاعة:

«الحالة ببساطة: روماتيزم في الدم. النسبة حتى الآن لا تهدد الحياة، لكن العناية القصوى ضرورية».

وقبل أن أُغادر العيادة كتب لي وصفة وأوصاني باهتمام ان أكف عن أشياء كثيرة: القلق، التعب والانفعالات الحادة!

أمّا قائمة الطعام التي اقترحها، فقد امتلأت اصراراً قبل أن أُغادر العيادة على مخالفتها، قلت لنفسي: «هذه القائمة لحيوان مدلل، لعصفور من عصافير رمزي، امّا القائمة التي تتفق مع مزاجي فتختلف كثيراً! وسوف أُطبّقها بدقة!».

يوم الأربعاء ١٧ تشرين الأول، كنت أحزم أغراضي في الحقيبة البنيَّة، وأُغادر السجن.

يوم الثلاثاء ١٦ تشرين الأول، الساعة السادسة مساء انتهى كل شيء. كانوا أربعة في غرفة مدير السجن، كنت أعرف اثنين منهم فقط، امَّا الاثنان الآخران فكنت أراهما لأول مرة، قال لي الآغا:

- جاءت الموافقة على اطلاق سراحك، وغداً قبل الظهر ستكون حراً.

لم أُفاجأ، لقد قدمت الثمن الذي طلبوه كاملاً، ولم يبق إلاّ أن أُغادر السجن. لم أقل شيئاً. ظللت انظر إلى الأرض. أحسست ان عيونهم تتابع حركاتي. كان جو الغرفة ثقيلاً برائحة الدخان والأحاديث السابقة ودقات ساعة الحائط. رفعت رأسي لأنظر الى الآغا، كانت على شفته ابتسامة صغيرة. لما التقت نظراتنا، قال:

- كان يجب أن تفعل هذا قبل أربع أو خمس سنين. تأخرت كثيراً، دفعت ثمن ذلك من صحتك.

ظللت صامتاً، كنت أحس نفسي عارياً، والآغا يطفىء سجائر على جسدي. أحسست أنه يطفىء واحدة تحت أبطي، واحدة بين اليتيّ. واحدة في ذقني. دقت الساعة الخامسة والنصف. نظرت الى الساعة حين دقّت. قال أحد الرجلين اللذين لا أعرفهما:

- نحن آسفون، لم نكن نريدك ان تبقى هنا طوال هذه المدة، لكن عنادك هو السبب.

نظرت اليه وابتسامة تعب تطوف في رأسي ولا تظهر على شفتي، ولم أقل شيئاً. كان صوت الرجل الغريب، الثاني، وهو يتحدث اليَّ صلباً، يشبه صوت مذيع ينقل احتفالاً، قال دون ان ينظر:

ـ الآن. نريد أن نبدأ بداية جديدة، عفا الله عما مضى، لا أحقاد ولا عداوات، ماذا تقول؟

هذا السؤال أعرفه، لم يُوجّه إليَّ من قبل، لكنه بدا لي مألوفاً حتى لكأنِّي سمعته مرات كثيرة.

أجبت بصوت بدا متلجلجاً:

ـ أريد ان أذهب للعلاج.

ـ سنسمح لك، لكن ما رأيك في أن تبعث لنا بأخبار الطلبة؟

ـ لا أستطيع، صحتي لا تساعدني.

ـ قدر ما تساعدك صحتك. تقرير كل أسبوع، كل أسبوعين.

ـ لا أستطيع. لا أستطيع.

قال الآغا وقد آلمته طريقتي في الرفض:

ـ لا تكن عنيداً فتخسر كل شيء، الدنيا والآخرة.

قلت لهم بلهجة حزينة:

ـ هل أستطيع ان أجلس؟

وجاءتني الأصوات، صوتان ثلاثة أصوات، معاً، تطلب إليّ بإلحاح أن أجلس، قال الآغا وهو يتصنّع المرح ويضحك:

ـ الواحد منا لا يزال يتصورك سجيناً. اجلس يا أخي، تفضل.

وقام من وراء مكتبه، قدَّم لي سيجارة وأشعلها، وكتعبير أخير عن المودة ضرب كتفي بصداقة!

قبل السادسة بقليل، ومع رشفات الشاي المعطر والدخان،

أصبح الموقف شديد الوضوح. قال الرجل الغريب الذي يشبه صوته رنين النقود، يلخص الاتفاق:

ـ غداً قبل الظهر تخرج، وبعد ان تستريح يوماً أو يومين تبدأ معاملة السفر. خلال الشهر الأول لا نريد منك شيئاً، وحتى في الشهر الثاني. وبعدها سترجع وتجد الوظيفة أمامك، وان شاء الله يكون تعاوننا مثمراً ولصالح الوطن. المهم ان ترجع بسرعة. اتفقنا؟

ـ سنرى!

ودقت الساعة السادسة، الآغا نظر الى ساعته ثم الى ساعة الجدار، ضرب الطاولة اشارة الى ان المقابلة انتهت، وقبل ان أستدير، وأهز رأسي، كان الباب خلفي قد انفتح. قال الآغا يخاطب الحاجب:

ـ قل لآمر الحرس ان الاستاذ سينتقل إلى مكان آخر.

الأربعاء ١٧ تشرين الأول، الساعة الحادية عشرة، الشمس في الساحة دافئة، الحقيبة تقف على حرفها بانتظار توقيع الأوراق. مرَّ الآغا، ولمَّا رآني مستعداً، وقد ارتديت ملابسي بما فيها الرباط الأحمر، غمز بعينه وهو يبتسم، وتابع طريقه دون ان يقول كلمة!

قبل الثانية عشرة كنت أطرق باب البيت. طرقته طرقة خفيفة ثم دفعته ودخلت. وجدت اختي تنشر فراشاً مبلولاً، والى جانبها امرأة عجوز لا أعرفها. لما رأتني انيسة انفتح فمها من الدهشة والفرح. هجمت عليّ وبدأت تقبّلني وتبكي، ثم ابتعدت عنّي خطوة صغيرة وأخذت تتأملني، الدموع تتساقط من عينيها بغزارة، كانت دموعاً حزينة وفرحة، وظلت تنظر إليّ!

رفعت يدي الى عيني وضغطت دمعة انزلقت دون أن استطيع اخفاءها. التفت إلى المرأة العجوز وقلت بألفة متروية:

ـ مرحباً عمة!

وقبل ان تجيب سألتها:

ـ كيف الحال عمة!

هجمت انيسة عليّ مرة ثانية، وكأنها اكتشفتني من جديد، وهذه المرة من صوتي. احتضنتها وقبّلتها على خدّيها ورأسها. ودون أن أنظر اليها مباشرة قلت بصوت أردت ان يكون متماسكاً:

ـ أريد أن أنام يا أنيسة، أنا متعب، متعب جداً.

ومرة أخرى تراجعت لتتطلع إليّ. كان في عينيها تساؤل ودموع. قالت وهي تلتقط الحقيبة وتشير إليَّ أن أتبعها:

ـ تأكل ثم تنام.

ـ انيسة لست جائعاً، أريد أن أنام!

بعد خطوتين التفتت، ظلت تسير وهي تنظر اليَّ. كانت تخاف أن لا أتبعها، وتراءت لي ضحكة صغيرة تغزو ملامحها. شعرت وأنا أرى الضحكة نهاية كل شيء. كدت أتوقف. كدت أصرخ. ضربت الأرض بقدمي، مثل عادتي قبل خمس سنين حين كنت ادخل الدار. تطلعت انيسة إليَّ بلهفة وهي تتذكر. اتسعت ضحكتها، لما أصبحنا على باب الدهليز قالت:

ـ غرفتك نظيفة وجاهزة!

ـ لا أريد أحداً، لا أقارب لا جيران، اتركيني فقط لأنام!

لم أنم رغم كل ما فعلته أنيسة. احضرت لي بيجامة حامد، احضرت لي ملابس داخلية نظيفة، وضعت علبة سجائر ومنفضة الى جانب السرير، انزلت الستارة وابتسمت وهي تغادر الغرفة، قالت بعد لحظة، وهي تفتح الباب مرة اخرى:

ـ سأتركك تنام حتى الغروب.

ـ حتى الغروب؟

ـ ألا يكفي؟

ـ لا أعرف، سأنهض وحدي!

الفراش لامع، نظيف. نحيت الوسادة ووضعت رأسي على طرف الفراش. تقلبت. نظرت الى الجدران. توقفت عيناي على صورة الشهادة، كانت في زاويتها اليسرى صورتي، نهضت على رؤوس أصابعي، صعدت فوق المقعد ونظرت طويلاً الى الصورة، «ليس بيننا أي شبه»، ذهبت الى المرآة وتطلعت الى وجهي: شعرات بيضاء في الفودين وفي منتصف الرأس، صفرة خفيفة في العينين، تجاعيد «لمَن هذا الوجه؟» وعدت أتطلع إلى الصورة في زاوية الشهادة، قلت في نفسي: «ان أحد هذين مات».

رجعت لأنام. كانت رائحة الفراش لذيذة أول الأمر، غطيت وجهي وأغمضت عيني وتنفست. لا يمكن أن يكون هذا الفراش لي، مات صاحب هذا الفراش. تغيرت الرائحة، انها الآن رائحة اليود، رائحة المستشفيات، لا أطيق ان أُبقي الغطاء فوق رأسي، عدلت الوسادة وحاولت أن أنام، ولكن الأفكار بدأت تغزو رأسي بطيش:

ماذا يفعلون الآن؟ الساعة تجاوزت الواحدة. في الواحدة تبدأ القيلولة. الغداء ينتهي في الثانية عشرة والربع، لم يكن غداؤنا يحتمل أكثر من عشر دقائق. حسيب لا يتخلى عن عادته أبداً يجب أن ينام بعد الظهر، وعصمت ينام وامجد؟ وابراهيم؟ هذا اليوم لن يناموا، لن ينام أحد لديهم قصة. أعرف الكلمات التي سيقولونها، سمعتها

مرتين من قبل، في الليل سيبكي أمجد، بكى في المرتين السابقتين، لم يكن يتكلم، ويكره الكلمات التي يقولها ابراهيم.

عندما ينام الجميع، سيبقى أمجد مستيقظاً تحت الضوء المنسكب من السقف، في الغرفة الواطئة المسودة، وسوف يبكي، لا يرضى أن يراه أحد يبكي. لما رأيته آخر مرة انتفض وجهه من الألم وتقلص، ثم استدار بسرعة، لم أرَ في حياتي انساناً مثل أمجد. لن يقول عنّي كلمة واحدة، ستضيق عيناه ويسافر بعيداً.

والآخرون سيقولون الكلمات الكبيرة إيّاها. لماذا أخاف الآن؟ لم أكن أشعر بالندم قبل أن أوقع، لكن ارتجفت حين سمعت صوت القلم، كانت رائحة الحبر كريهة، ونزّت يدي عرقاً. قال الآغا وهو يسحب الورقة بعد أن وقعتها:

ـ لن نقول لأحد قبل أن تخرج، وأصحابك لن يتأخّروا!

قلت لنفسي: هل كان نفس التوقيع الذي أوقع به دائماً؟ لم أوقع منذ وقت طويل، آخر توقيع كان قبل أربع سنين، في ذلك الوقت قرأت كل ما كتبوه بدقة قبل أن أوقع، غضبوا، شتموني، قالوا بهزء:

ـ انظروا يخاف أن يوقع على أقواله!

نظرت إليهم بحقد دون أن أقول كلمة واحدة، وبعد ان قرأت كل ما كتبوه بدقة اعترضت على بعض الكلمات، نظروا إليّ بسخرية وقال أحدهم:

ـ اشطب الكلمات التي لا تريدها ووقع.

شطبت جملتين ووقعت. وقبل أن أُغادر الغرفة تلقيت بصقة كبيرة على وجهي، وضربة انغرست في البتي اليسرى من عبد. أمّا

حاتم فقد فتح باب القبو ودفعني بقوة. أتذكر انني كنت انظر اليه بحقد، لكن بعد ثانية كنت انظر الى ارض القبو وقد انتشرت فوقها قطرات الدم الذي سال من الجرح الذي أصابني في شفتي.

لا ليس ذات التوقيع. لقد كان توقيعي هذه المرة سريعاً، ونهايته طويلة مضطربة. سحب الآغا الورقة والابتسامة تملأ وجهه. أعطاني سيجارة وقال بصوت بطيء:

- الله يصلحك، لو وقعت هذه الورقة لكنت قبل أربع سنين خارج السجن، لكن على الانسان ان يدفع ثمن ما يتعلم!

هززت رأسي دون أن أقول كلمة. الآغا الذي أراه الآن يختلف عن الذي عرفته طوال خمس سنين. بدا لي هذه المرة سميناً، بالكرش الصغير الذي يبرز فوق الحزام، أما يده فقد رأيتها أشد بياضاً وثقلاً. ولم ألحظ خلال الفترة الماضية كلها ان له شامة في منتصف رقبته.

ماذا يقولون عنّي؟

أوَّل المساء تبدأ الحفلة، هكذا حصل في المرتين السابقتين. في المساء يهدأ السجن ويروق مزاج الآغا بعد القيلولة الطويلة.

آخر مرة، بعد ان وقع نجيب تلك الورقة اللعينة، جمعنا الآغا. كان يمسك بيده عصا صغيرة، ظننتها من الخشب أول الأمر، لكن عندما سقطت على الأرض سمعت رنينها، كان يجلس وراء مكتبه وفوقه تماماً الضوء المنسكب من مصباح أخضر، يجعل لون الغرفة بارداً. تأملنا طويلا وهو يقلب عينيه بيننا، وبعد ان درس وجوهنا بإمعان، هزَّ رأسه وقال لأمجد:

- اقترب يا ناعم، يا حلو، واقرأ هذه الورقة بصوت عال!

كان أمجد يتعثر وهو يخطو نحو الورقة الممدودة، وبدأ وجهه بلون البنفسج من الحمرة والضوء الأخضر، وما كاد يقرأ الكلمات الأولى: «أنا نجيب سالم، أوقِّع بمنتهى الحرية والرغبة»، حتى تغيَّر صوته، تقلَّص من الألم، وكاد يعيد للآغا الورقة. ابعدها عن عينيه وهزَّ رأسه، لكن صرخة الآغا جعلته يرتجف، صرخ الآغا وهو يقفز من وراء مكتبه:

- إقرأ يا كلب، إقرأ بصوت عالٍ.

تردَّد أمجد لحظة، كأنَّه يريد أن يعاند، أن يقاوم، لكن الوخزة الشديدة من عصا الآغا، انغرزت في صدره وجعلته يتابع.

ولم يكتف الآغا، جعلنا نقرؤها واحداً بعد آخر. حتى اذا انتهينا استدار وجلس وراء الطاولة من جديد، وهو يحس بزهو لم يستطع ان يخفيه، تطلَّع الينا من جديد وقال بصوت بطيء ناعم:

- مَن سيوقّع الآن؟

ولما ظللنا صامتين، هزَّ رأسه بثقة وتابع:

- الجميع على هذا الدرب اذا لم يكن اليوم فغداً، وأنتم الذين ستخسرون. غداً ستوقعون وتظلون في السجن، أمّا الآن فالذي يوقّع يخرج من مكتبي رأساً الى الشارع وأنا سأوصل ثيابه إلى بيته، هل توقّعون؟ هل يوقّع أحد؟

ولم يعجبه أن نظل صامتين هكذا، ضرب بعصاه طرف الطاولة ووقف. اقترب منا، دار حولنا ثم عاد من جديد واستند بظهره الى المكتب، قال يوجّه إليّ الكلام:

- اسمع يا أحول.. والله لأرجعك[1]... أمك، ولك مرَّ عليّ

(١) شنيعة نابية.

مثلك، وأكبر منك، وكلهم ركعوا، اترك يباسة الرأس ووقِّع!

لم أجب ولم أنظر اليه، التفت إلى أمجد وقال:

ـ وأنت يا عود النعناع، يا حبيب امه، ألا تريد أن توقِّع؟ وغيَّر لهجته: أمك فاتحة مناحة، كل يوم تأتي إلى السجن وتقول: صغير، لا يفهم شيئاً، ورّطه أولاد الحرام، نعم ورَّطوه، اتركوه بجاه النبي، الله يطول عمرك، اتركوه!

وعاد إلى لهجته الأولى: اذا وقعت، أنا الذي سأذبح خروفاً لك وللدلوعة أمك!

وابراهيم وسامي وعزيز، لم يترك الآغا شتيمة. قال كل الشتائم التي يعرفها. تصورته حين رأيته أول مرة قبل خمس سنين، انه لا يعرف كيف يرد التحية، بدا لي خجولاً، بصوته الناعس وعينيه اللتين لا تثبتان في مكان، لكنه الآن يشبه سمساراً أو قواداً بصوته الذي يلعلع.

لما تعب من الشتائم أجلسنا على الأرض، وبدأ يخاطبنا بحذائه. وضع قدمه على رقبة ابراهيم من الخلف وداس بكل ثقله حتى وقف فوقه، وترك قدمه الأخرى تهتز في الهواء. أما عزيز الذي كان في بداية الصف، فقد دفعه بقوة فاصطدم بنا ثم انقلب على وجهه!

الآغا يستعد الآن. يغادر المكتب قبل الثانية، ويعود في الخامسة، وبعد الخامسة بقليل تبدأ الحفلة التي سأكون بطلها هذه المرة. سيقول لهم:

ـ قلت لكم مئة مرة ستوقعون الواحد بعد الآخر. كم رأس بقي حتى الآن؟ دور مَن غداً؟ سنقرأ الفاتحة على روحك يا أمجد غداً أو بعد غد؟ وأنت يا ابراهيم؟ برهوم، عيوني يا برهوم. أمجد كُنْ

شجاعاً لكي يقيموا لك تمثالاً في الساحة الرئيسية! لكن اذا مت يا برهوم لَمن ستترك الأربع بنات وأمهم؟ حرام عليك يا بطل، غيرك ارجل منك ووقع، وأنت إلى متى؟

كنت بنظره أكثرهم يباسة رأس، قال لي اكثر من مرة، وهو يحاول معي:

ـ وقّع وسترى بعينيك. وحتى تتأكّد يمكن ان تبقى في السجن إلى أن يوقّعوا. اذا رأوا توقيعك لن يصمدوا طويلاً، أنا متأكد من ذلك، اسمع منّي يا رجب، أنا أنصحك كأخ، تحملت كثيراً اترك غيرك يتحمل. لا تكن مجنوناً.

السقف يدور. لم تعد هذه الغرفة غرفتي، والسرير لم أره من قبل، لم أنم عليه. كل شيء تغير. أنا الذي تغيرت.

أمس في مثل هذا الوقت كنت انساناً آخر، حتى السادسة كنت قوياً، لا، قبل السادسة بدقائق. كنت أنظر الى الساعة أريدها ان تكون الشاهد الوحيد على النهاية. رغم كلماتهم الحلوة كانوا اعدائي. الأربعة كانوا أعدائي. كانت الساعة هي المخلوق الوحيد المحايد. قبل السادسة بأربع دقائق، خمس دقائق. أمس في مثل هذا الوقت كنت قوياً. صحيح أنّي قلت لهم شيئاً قبل بضعة أيام، لكن مَن يستطيع ان يمنعني من التراجع؟

تغدينا في الثانية عشرة. جاؤوا بالغداء قبل موعده بقليل. وضعت سيخ الكباب في رغيف وبدأت ألوكه، كان الأكل لذيذاً. لما عدت بعد الموافقة على التوقيع، لم أستطع ان أمد يدي إلى بقايا الأكل، كان الكباب بارداً لزجاً، وكانوا قد انتهوا من الأكل. نظروا إليّ طويلاً، وابراهيم هو الذي سأل.

ـ تأخرت. تأخرت كثيراً، ماذا حصل؟

كانوا جميعاً ينظرون إليّ، كانوا ينتظرون أن أقول تلك الكلمات اللعينة. ولا أدري كيف قلت:

ـ مراجعة الطبيب!

ـ الطبيب بعد الظهر؟

هكذا سأل عزيز وهو يبعد الصحن ويستدير نحوي. قلت بفارغ صبر:

ـ انهارت صحتي ولم أعد احتمل.

وصمتنا. عادوا إلى التفكير عدا أمجد، ذهب الى الصفيحة وبال. كان ينظر إليّ بعيون مرعوبة وكأنه أحس. وعندما عجزت عن الأكل، وحملت الصحن لأضعه عند الباب، انقلب من يدي. هل كانت يدي ترتجف؟ هل فضحني وجهي؟ الآغا وهو يأخذ الورقة ويطويها، قال بصوت واضح:

ـ لن تبدأ الحفلة إلاّ بعد ان تغادر السجن بست ساعات، مثل العادة!

لم أنم طوال الليل، رأيت أمجد ثلاث أو أربع مرات يرفع رأسه مثل ذئب وينظر إلي. لم أدعه يراني مرة واحدة مفتوح العينين. كنت ذئباً عجوزاً اغمض عيناً وأفتح الأخرى، كنت أستدير وأهرب من مراقبته. في المرة الرابعة اقترب منّي تماماً، وأخذ يرقب تنفسي، كان يقول باستمرار:

ـ لا يمكن معرفة النائم إلاّ من تنفسه. النائم يتنفس بانتظام.

كان يفعل ذلك عندما يصيبه الأرق ويريد انساناً يتحدث معه. كان يمر فوق رؤوسنا، ينظر الى الوجوه تحت الضوء الكهربائي،

ليتأكّد، حتى إذا رآنا نياماً واصل طريقه وجلس عند الباب الحديدي المغلق، أمّا اذا لقط أياً منا، وقد خانه النفس المنتظم، فيهزه هزات رقيقة حتى يوقظه. وبصوت أنيس يقول:

ـ سوف ننام طويلاً، الموت والنوم متشابهان. لا فرق بينهما إلاّ ان الأول طويل والآخر قصير، ألا تنهض لنعيش فترة أطول؟

كانت عيونهم في الليلة الأخيرة تشع ناراً. كانوا يحسون بطريقة ما ان شيئاً قد حصل، يحسون بذلك من الهواجس، من طنين الآذان، وربما من الحزن الذي يأتي فجأة!

خيَّم علينا الحزن كظل ثقيل، فقدنا القدرة على أن نقول شيئاً. كنت اريد ان أصرخ، ان أرتمي على كتف أمجد وأبكي، لكن عيونهم المشعة المتسائلة، بترت آخر الأفكار المشتركة التي تعطي تبريراً لأن أضحك، لأن أبكي، لأن أمسك بيد أي واحد منهم واهزها كتعبير آخر عن شيء ما.

قال لي ابراهيم وهو يتبول في الصفيحة، ودون أن يستدير نحوي:

ـ رجب، هل أعطوك دواءً جديداً؟

لماذا تذكر ابراهيم مرضي وهو يتبول؟ حرقة البول المزمنة التي تنهشه؟ علاقة غامضة بين البول ونهايتي؟ لا بدَّ أن افكاراً خطرة مرّت في رأسه تلك اللحظة، وإلاَّ لماذا سأل بهذه الطريقة؟

قلت له انذره بالنهاية، لعله يفعل شيئاً:

ـ الأدوية لا تجدي، انتهيت يا ابراهيم!

ودون ان يزرر بنطاله تقدَّم ونظر اليَّ تلك النظرة المنزوعة من الداخل، والتي لا تعبر عنها العين إلاَّ كمرآة صدئة مقشورة. أرخيت

عيوني بسرعة لئلا يكتشف فيهما الدويّ. وأمجد، نظر الينا نحن الاثنين بسرعة وضرب الحائط برجله وتمدّد.

كانت الليلة الأخيرة صعبة كالولادة الميتة. توقفت الساعة التي في يدي، أصبحت كحجر أسود مشلول، ينبىء بالنهاية. تملكني الخوف، حتى ظننت أنَّهم لن يتركوني على قيد الحياة. تصورت انّي لو نمت لحظة واحدة، فسوف يطبقون عليّ ويقتلونني. قلت امتحن أفكار أمجد:

- ألا يزال الأرق صديقك الدائم؟

ابتسم بحزن وهزَّ رأسه دلالة الايجاب. سألته من جديد:

- مثل قبل أو أكثر؟

- لم يتغير شيء!

اذن أمجد ليس صغيراً بالمقدار الذي تصورته، يعرف انّي تغيّرت وسوف يكون أول مَن يطبق على رقبتي. أمجد يحارب هواجسه بالأرق، بالتطرف، لو تساهل لحظة واحدة لسقط، لا يريد ان يقول ما يشتعل في رأسه. قلت لنفسي باصرار: التطرف بداية السقوط.

وعدت أدور في الوجوه. لماذا تشع عيونهم بكل هذا العمق؟ انها ليست العيون التي ارتمت فيها ليالي الشتاء والصيف، لا تشبهها أبداً. تبدو الآن قريبة الشبه بعيون الحرس: مرتابة، جسورة، عدوة.

وعادت كلمات عصمت تدور حول رقبتي كحبل مجدول، الآن أتذكّر كلماته كلها!

لما رجعنا من الحفلة الأخيرة بعد سقوط نجيب، كانت مخارج الحروف وهو ينطقها متداخلة غامضة، لكن الكلمات كانت أشد وضوحاً من جميع الحروف التي تكوّنها. نظر في وجوهنا طويلاً،

كانت نظرته حاقدة، قاسية. أمسك أمجد من كتفه وهزَّه، وهو يقول:

ـ كنت تدافع عنه! قلت لكم ألف مرة انه خائن، لقد رأيتم الآن بأعينكم لم يوقع صك نهايته فقط، كان توقيعه صك نهايتنا كلنا. ومَن يدري ماذا قال لهم؟ والأوراق؟

وتخلصنا تلك الليلة من الأوراق، أحرقناها قريباً من صفيحة البول. كنت الحارس، أرقب الباب الخارجي، لكي انبههم اذا جاء أحد. اتفقنا ان تُحرق الأوراق واحدة بعد أخرى. فإذا جاء الحرس أغرقناها في صفيحة البول، وهذه هي الطريقة الوحيدة التي تمنع قراءتها. قال ابراهيم وهو يتطلع الى الصحيفة:

ـ الحرقة لا تأتي إلاَّ في الوقت المناسب. تعالوا بوّلوا، بوّلوا عنّي وعنكم، حتى اذا جاء الشيطان، أغرقنا الأوراق، ومنعناه من قراءتها!

ولم يهدأ عصمت. لم يُشارك في أي عمل. ظلت شتائمه تزحف لآذاننا حتى ساعة متأخرة تلك الليلة. الكلمة التي ظلَّ يردّدها دون تعب، وهو يشد على يده:

ـ لو عرفت لقتلته! يمكن أن أقتله بسهولة، أضع المخدة فوق وجهه وأجلس بكل ثقلي حتى يموت.

ويحرك يديه بطريقة عصبية ويضرب الجدار ويتابع وقد تخلَّل صوته غضب حزين:

ـ بيدي هاتين يمكن أن أخنقه، انه يسكر الآن، لقد باعنا، آه لو عرفت في الوقت المناسب، لو عرفت لقتلته.

عصمت يعني كل الكلمات التي يقولها. طلب مرة من

الحارس ان ينادي آمر الحرس، رفض الحارس، طلب منه ثانية، ورفض، وفجأة رأينا عصمت يضع رجله في بطن الحارس ويرفسه بقوة. سقط الحارس وأُغمي عليه، ودفعنا كلنا ثمن الضربة حبساً انفرادياً لمدة واحد وعشرين يوماً. ومرة اخرى بصق عصمت في وجه آمر الحرس. قال له وهو يرفع الصرصار من صحن الفاصولياء:

ـ هذه لحمتكم أيها الخنازير؟

ولم ينتظر الجواب، بصق في وجهه وسالت البصقة الكبيرة حتى الوسام الذي كان على صدره، الوسام الذي كان مفخرة للحراس الأفراد. وظل عصمت في الحبس المنفرد خمسة وأربعين يوماً.

هل قتل عصمت أحداً من قبل؟ كيف تجتمع في جسده تلك الأرواح المتناقضة؟ يضحك مثل طفل، يأكل مثل حيوان جائع، أمّا اذا بدأ الاضراب عن الطعام، فإنّه يكون علينا أكثر قسوة بمئات المرات من الحرس.

كان يهدد، يشتم، يجلس عند الباب الحديدي، وأكوام الأكل تتجمع مثل القذارة، فإذا مدَّ أحد يده الى رغيف، أمسك بيده، وهزها بقوة خارج القضبان لكي يسقط رغيف الخبز.

لو اطبقت يدا عصمت حول رقبتي لخرجت الصرخات الصغيرة من فمي مثل طائر مخنوق. سيدوم الأمر لحظة، ثم تلتوي رقبتي واسقط. يداه قويتان. لا يتباهى مثلما يفعل ابراهيم، لكن لا يقترب منه احد. حاول ابراهيم مرة ان يكاسره، كان وجه عصمت ضاحكاً، وبيده الأخرى السيجارة لا ترتجف، أمّا وجه ابراهيم فقد احتقن للحظة قصيرة، ثم صرخ، وسقطت حبات العرق مع اليد المتخاذلة.

لا يمكن ان ينام أحد في هذه الليلة، انها ليلة احتفالية كبرى بالنهاية، يفقد الزمن معناه، تتحول الأفكار إلى أمطار شتائية ضاجة متلاحقة. هل كانت الأنفاس منتظمة فعلاً تلك الليلة؟

وأمجد عندما قام إلى الصفيحة، هل كان ليتأكد أنَّني مت، حتى يعطي الاشارة فتبدأ عملية قتلي؟ كان أمجد يترنح وهو يمشي، كان يريد ان يبقي عينيه مغمضتين ليعاود النوم من جديد، او ليوحي إليّ بثقة سريعة تدفعني إلى النوم، لكي تبدأ عملية القتل!

أمّا شخير عصمت فكان متناوباً كصرير آلة معطوبة، قلت في نفسي: «انه نائم لكن الشخير يتغير» راقبته طويلاً، استمر منتظماً لفترة، ثم تغيّر، تغيّر أكثر من مرة. وسألت نفسي: «هل يمكن للانسان ان يشخر بارادته، حتى ولو كان نائماً؟ ألا ينهض اذا هزّته اليد المكلفة باعطاء الاشارة؟» ولم أستطع النوم لحظة واحدة. كانت الأفكار تتراكض في رأسي مثل خيول مجنونة، وكانت فكرة الموت تسيطر عليّ. كنت أقول في نفسي «سينهض عصمت ليقوم بالواجب دون ابطاء». وبتصميم أرعن كنت اجيب: «لن أتركهم يفعلون ما يريدون دون أن اصرخ، دون ان احتج. صرخة صغيرة، صرخة واحدة في الليل الساكن توقظ الحجر. والحراس لن يكونوا بعيدين الى الدرجة التي يمكن ان أموت قبل ان يصلوا. حتى لو تأخروا قليلاً فإنّهم سيصلون في الوقت المناسب. لا يمكن ان يموت الانسان خلال ثوان قليلة، القلب في منتهى القوة، يستطيع ان يقاوم، ان ينتظر، والحراس، قبل ان يرجع صدى صرختي سيكونون فوق رؤوسنا، انهم ينتظرون، يتوقعون، والآغا لا بدّ ان يكون قد قال لهم شيئاً، سوف يحافظون عليّ أكثر من أي وقت سابق. لو مت فسيسجنون جميعاً، سيكونون مسؤولين عن مقتلي».

الليل في بداية الشتاء، طويل. الساعة في ليالي الشتاء طويلة لدرجة انها تجاوزت عشرات الساعات الصيفية، وإلاَّ لماذا كانت الظلمة الكثيفة في الخارج؟

لماذا السكون الأخرق الذي لا تمزقه أصوات الصراصير او سعال العنبر المجاور؟ ان احساساً غامضاً يخيم على جو السجن، بانتظار نهاية انسان، هل تكون نهايتي؟

لكنَّني لم أنته! لا، بل انتهيت. كانت عيونهم الضاحكة وهم ينظرون إلى الآغا يطوي نهايتي الورقة، كانت كلمات الرجل الغريب وهو يعرض عليّ التعاون معهم، نهايتي. لا لم أنته. المرض هو الذي قتلني. اريد ان استريح مؤقتاً، لم أعد قادراً. للانسان قدرة معينة على الاحتمال ثم يتلاشى. وأنا هل ينكر أحد كم تحملت خلال السنوات الخمس؟ مَن منهم تحمَّل مثلي؟ أتحدّاهم جميعاً. قل يا عصمت، هل تحمّلت أكثر منِّي؟ الضرب، السجن الانفرادي، التعليق في السقف، المياه الباردة أيام الشتاء، المنع من النوم، جميعنا تحمّلنا، ربما تحملت أكثر منِّي وأنت معلق، قضيت يوماً زائداً. هذا ليس ذنبي، جسدي لم يعد يحتمل، أغمي عليّ مرات كثيرة، وآخر مرة لم يعد الماء البارد او الصفعات كافية لإيقاظي، لإنهاء حالة الاغماء التي سقطت فيها. كان الفرق في الوزن بيننا يزيد على عشرين كيلو غراماً، كان وزن عصمت يزيد على الثمانين وأنا لم أبلغ الستين في حياتي. ماذا أستطيع اذا انهار جسدي؟ ارادتي لم تتداع، لم تنهر في أي يوم، تحمَّلت أكثر منهم، وهم يعرفون ذلك تماماً، يتذكرون ذلك الغروب، كانت الجمعة، موعد الزيارة الاسبوعية، جاءت أختي وعمَّتي. امَّا أمي فلم تأتِ. كانت أول مرة

تتغيب. لم تقولا لي كلمة واحدة. أحسست. صرخت أسألهما، بكت أختي فجأة وعرفت كل شيء!

كانت أمّي تعاني من ارتفاع الضغط منذ فترة طويلة. قلت لها عشرات المرات: كفّي عن زيارتي، لا أريد ان تريني هكذا. كانت تبتسم ولا تجيب، وتأتي.

في ذلك الغروب شعرت أنّي وحيد لدرجة لا يمكن احتمالها. هم قتلوا أمي، ظلوا ينخرون في عقلها وقلبها حتى قتلوها.

ظللت أياماً عديدة لا أنام. كنت أسهو مثل طائر. انتابتني آلام حادة في المعدة. تقيأت مرات كثيرة، حتى ظنَّ الآغا أنّي أصبحت لقمة سهلة. عرض عليّ أثناء مرضي أن أُوقّع واخرج فوراً، بصقت في داخلي، وانا أتلوى من الألم، وقلت له بجلافة:

ـ أموت ولا أُوقّع.

وهزَّ رأسه بثقة، وطلب من آمر الحرس اعادتي الى العنبر دون علاج.

لم تمت أم أي واحد منهم، أمّي وحدها هي التي ماتت وأنا سجين. لا أنكر ان اثنين منا كانا دون أمهات قبل السجن منذ وقت لا يتذكرانه، أمّا الآخرون، فإنّهم ظلوا يتدفؤون بذاك الحنين الرائع، وهم يتذكرون امهاتهم. كانوا متأكّدين ان السجن سينتهي يوماً، ويعودون الى بيوت تملؤها الأمهات بالدفء، والأمهات يعنين شيئاً خارقاً، شيئاً يعرفه أكثر مَن يعرفه اولئك الذين فقدوا أُمهاتهم.

بعد وفاة أمّي بسنة، سقطت هدى.

كانت هدى أقوى الآمال التي تشدني الى عالم الحرية، كنت أتصورها مثل بطلة الأساطير، لا تمل ابداً من الانتظار. لكن لم

تنتظر، قالت لي في آخر رسالة: «أنا مرغمة على الموافقة يا رجب، ولكن سأحتفظ بالذكرى إلى الأبد». أي نفع من الذكرى يا هدى؟ هل تدفىء السجين الذي لا يحلم إلاً بساعة الحرية؟ هل يخرج من ليالي السجن الطويلة ليسقط في البرودة والفراغ؟

كانوا يعرفون علاقتي بهدى، لم يبق أحد إلاً وعرف. كان كل شيء مباحاً بيننا في السجن. لم يقرأوا رسائلها مرة واحدة، لكنهم لم يتوقفوا عن السؤال، في كل مرة تأتي الرسائل. انيسة هي التي تعرف كيف تُهرّب الرسائل، كانت تضعها في غلاف قدر الطعام، تحت السجائر، في داخل اقراص الكبة. وبلهفة المجنون كنت أنتظر، حتى اذا وصلت الرسالة الى يدي لا أملّ من قراءتها، إلى أن تأتي رسالة أخرى. كنت أحفظ رسائل هدى، وأُقبّلها في الليل، كنت أضعها تحت رأسي مثل تميمة مقدسة، وعندما نضطر لأن نحرق رسائلنا وأوراقنا، بين فترة وأخرى، خوف الهجمات المفاجئة والتفتيش، كانت روحي تحترق مع الرسائل. تمنيت لو أُضرب أو أُحبس انفرادياً، لو أُكنّس مراحيض السجن كلها من أجل ان يوافقوا على ان تبقى لي رسائلها، لكن فكرة مثل هذه كانت تبدو مستحيلة، واضطر للمشاركة في حفلة الحريق التي تجري كل اسبوعين، وفي الظروف المفاجئة.

ضاعت هدى لأنّي كنت سجيناً. لو كنت حراً لما انتظرت كل هذه السنين. كان باستطاعتي ان أقول لها «الآن يمكن ان نتزوج يا هدى» ونتزوج فعلاً. لو كنت طليقاً لما استطاع أحد من أهلها ان يحتج او ان يقول كلمة واحدة، لكن ماذا تستطيع أن تقول لهم وانا محكوم وراء جدران السجن لمدة احدى عشرة سنة؟ هل يوافق احد على الانتظار طوال هذه المدة؟ هل يقتنع اهلها؟ كانت أُمها تعرف

علاقتنا، لكنها مثل كل الأمهات تريد لابنتها حياة لا يمكن للسجين ان يوفرها. وذهبت هدى. تزوجت. سألت اختي مرات كثيرة عنها، كانت اجابتها سريعة، عصبية، كأنّها لا تحب ان أذكر اسمها.

أنا الوحيد بينهم الذي كانت تربطني بالعالم الخارجي علاقة من هذا النوع، وفقدتها. وهم: ثلاثة متزوجون ولهم أطفال، وثلاثة لا يعرفون عالم المرأة ابداً. حتى ان وليداً لم يكن يحب ولا يطيق حديثاً عن المرأة، كان يصرخ بجنون اذا سمع احداً يتحدث عن عالم المرأة الغني الرائع، كان يقول:

ـ السجن والمرأة لا يجتمعان، وبداية انهيار السجين ان يسيطر عليه شبح امرأة. كفّوا عن هذا المرض أيّها الثيران، اخصوا أنفسكم لينتهي عذابكم!

ولم اذكرها بعد تلك الرسالة. قلت لهم بأسى، في ليلة شتائية، بعد ان تلقيت آخر رسائلها:

ـ اصبحنا اليوم أربعة ضد ثلاثة، انتقلت الأغلبية للثيران المخصية!

دهشوا، استغربوا كثيراً. سألوني عند الغروب عن أخبار العالم الخارجي، وهم يقصدون اخبار هدى، قلت لهم بسرعة:

ـ العالم الخارجي ما زال يدور على نفس المحور، والثور لم يتعب لكي يغير وضع الأرض، وينقلها من قرن إلى آخر!

لم يسألوا أكثر، ولم أتحدث، كنت أريد ان أتشرب العذاب على مهل، لكي أشعر بلذة الفقد وعذابه!

أمّا في الليل، والمطر يتساقط مثل قناديل مشعة في الساحة

المضاءة، فقد قلت لهم، بعد الجملة الأولى التي كرّرتها بهدوء كأني ألقي كلمة:

ـ أرجو ألاَّ تسألوني بعد اليوم عن هدى، لقد أصبحت امرأة مثل باقي النساء. وصمت لحظة تشربت خلالها الغصة بلذة مقهورة، ثم أضفت وأنا أحاول الابتسام: لقد تزوجت، لم تتزوج بعد، قريباً سوف تتزوج.

جحظت عينا أمجد من الاستغراب والخوف، وكاد يقول شيئاً، ولكي أقطع الطريق على أي تساؤل قلت:

ـ ارجو ألا تسألوني عنها مرة أخرى، لقد انتهت بالنسبة لي.

ضحك عصمت، كطفل، وقال يريد ان يغيِّر الجو، فيجعله مرحاً:

ـ تُقبل التعازي يومي السبت والأحد للرجال، والاثنين للنساء!

قال ابراهيم وشعور الظفر يسيطر عليه:

ـ أصبحت الآن ثوراً جيداً، ويجب ألاَّ تتخلى عن هذه الصفة طوال حياتك.

وعاد عصمت إلى جو المرح مرة أخرى. قال:

ـ لو فكرت زوجتي بالطلاق لأصبحت مطلقاً منذ ثلاث سنين، ولأصبح لأولادي اخوان من فحل غيري!

كانوا يسخرون، وانا كنت أتألم. لم يفقدوا زوجاتهم، لم يفقدوا هذا الانتظار الشديد الروعة، سيخرجون يوماً لكي يروا ابناءهم الذين تركوهم صغاراً، وقد كبروا واكتسبوا عادات لا يعرف أحد كيف اكتشفوها!

نعم سيكون أولادهم كباراً، الصغير منهم يزيد على احدى عشرة سنة، أمَّا الكبار فقد بدأت لحاهم تنمو، وبدأوا يغازلون الفتيات الصغيرات، وانا مَن الذي ينتظرني؟

تحملت. انطويت على نفسي، وبدأت أُحارب هدى التي علقت في دمي ولا أعرف كيف ظللت مضطراً لسؤال انيسة عنها، كنت أسألها في أغلب المرات التي تزورني فيها، وأتلقى نفس الاجابات:

ـ تزوجت. تزوجت وسافرت. عادت من السفر ولم أرها إلاَّ بسرعة. يبدو ان هدى تفضل هذا اللون من الحياة: الراحة، والبعد عن المشاكل!

ـ ألم تقل لك شيئاً يا انيسة؟ ألم تبعث معك رسالة؟

وتضحك انيسة بحزن. تهز رأسها دلالة النفي، وبسرعة تسألني عن شيء ما لكي أكف عن ذكر هدى!

وصمدت بعد أن تزوجت هدى، صمدت سنيناً:

اما المرض اللعين فإنَّه لا يرحم.

سمعت صرير الباب. أغمضت عيني بسرعة لكي أواصل لذة العذاب. لم أكن أريد أن أرى أحداً، أو أسمع صوتاً. شعرت من الاقدام الناعمة، التي تشبه خطوات قطة، ان انيسة دخلت الغرفة، شعرت بأنفاسها تقترب مني. تململت وأدرت ظهري. وقفت فوقي فترة طويلة. كانت نظراتها تخترقني، تمنيت ان أراها وهي تنظر إليَّ دون أن أفتح عيني. هل مرت فوق شفتيها ابتسامة حزن؟ هل تراني أمامها مخلوقاً حقيقياً يشبه باقي الناس؟ والانهيار ألا يبدو واضحاً على وجهي؟ انيسة لا تريد في الدنيا إلاَّ ان تراني أمامها، «أن أكون موجوداً» دون ان تسأل عن سبب وجودي، عن الطريقة التي

أصبحت فيها موجوداً! انيسة ورثت عن أمي الصفات الضعيفة، أُمّي لم تورث إلاّ الصفات الضعيفة، نحن الاثنان ضعيفان، أُمّي وحدها القوية، حملت معها قوتها ورحلت، ولم تترك إلاّ الضعف. قالت لي انيسة في المرات الأخيرة كلمات جعلتني أحس بالمرض أكثر من السابق. كانت تبكي، تتلمس خدي بخوف، تضع يدي بين يديها وتطيل اليها النظر.

انيسة التي دمرت حياتي، جعلت أيامي الأخيرة في السجن جحيماً. كانت تنقل إليّ حقارات العالم الخارجي وانتهاءه!

ـ باسل جن، أصبح يدور في الشوارع عارياً. خالد فَقَدَ عينه نتيجة الضرب، وعينه الأخرى مهدّدة. ومحسن، ألا تتذكر محسن؟ لقد أُصيب بالشلل. وعندما حملوه الى البيت ورأته أمه ماتت!

أنور وعبد الكريم ونجيب يعيشون الآن بحرية. انور تزوج قبل شهرين، وترك السياسة نهائياً. نجيب يريد ان يواصل دراسته، مرَّ علينا قبل ايام وطلب منّي أن أقول لك أن تتعقل. الجميع تركوا.

كانت انيسة تحفظ قصص العالم وتنقلها اليَّ. غضبت منّي شهوراً طويلة، قلت لها بطريقة أبكتها:

ـ انيسة اذا كنتِ تريدين ان تنقلي إليَّ هذه القصص، فلا تأتي الى هنا مرة أخرى.

وجاءت مرَّات كثيرة، وظلّت تنظر إليَّ بصمت، وبعض الأحيان تبكي. أمّا اذا امتدت يدها إلى وجهي، تريد ان تتأكّد من صلابة اللحم وتماسكه، فكنت أنزل يدها بعصبية. كنت أقول لها:

ـ انا رجب، اللحم والدم، كل أعضائي سالمة، وليس فيَّ شيء مستعار.

كانت تسمع وتبكي. وعادت من جديد الى قصصها: بدأت أول الأمر بقصص بعيدة لا تحمل مغزى ولا تريد من ورائها شيئاً محدداً، ولكن بعد فترة وصلت الى قصص العذاب:

ـ خذ بالك يا رجب، ربما سمعت بالمحاكمة التي جرت الاسبوع الماضي، ضاعفوا المدة بالنسبة لجابر وأسعد، بعد ان تبيَّن لهم وجود علاقات بينهم وبين الخارج.

واطمئنها بهزة رأس، بابتسامة، بكلمة عجولة، ولكن لا تكف.

ـ رجب، الله يستر عليك يا رجب، اسمع منِّي ولا تأخذ برأيي. أصبحت كبيراً وعاقلاً ويمكن ان تقدر الذي يفيدك. نعمان انتحر، ولكن الناس يقولون انهم قتلوه، قتلوه بعد محاولة الفرار. خذ بالك يا رجب.

في الشهور الثلاثة الأخيرة، تغيرت لهجة انيسة تماماً.

ـ حامد اتصل بمدير الشرطة وقال له ان صحتك سيئة وبحاجة الى معالجة في الخارج، رفضوا. قالوا: الحل الوحيد هو أن تقدِّم تعهداً بأن تترك العمل السياسي، وحامد لم يعد بشيء. ماذا تقول؟

ـ لكن يا انيسة صحتي ليست سيئة لهذه الدرجة!

ـ آه لو ترى نفسك بالمرآة، لم يبق منك إلاَّ الجلد والعظم، عيونك مصفرة، شفاهك زرقاء، آه لو ترى نفسك.

ـ العلاج الدفء، وعندي ملابس ثقيلة!

ـ العلاج ان يكون لك بيت، ان تنظم حياتك، تأكل بموعد، تنام بموعد. وهنا في السجن العذاب والبرد، أنت تعرف كل شيء أحسن منِّي.

وتصمت قليلاً ثم تسأل من جديد:

ـ حامد يسأل ماذا تريده ان يقول لمدير الشرطة؟!

ـ أنا لم أطلب من حامد ان يتصل بأحد.

ـ ولكن انا التي طلبت منه، انا رجوته.

ـ وفّري التعب، لا أريد شيئاً.

ـ فكّر بالأمر، ويمكن لحامد ان يؤجل الاتصال بمدير الشرطة إلى الاسبوع القادم.

ـ انيسة لا أريد شيئاً، اذا تمكنت احضري لي قميصاً داخلياً من الصوف هذا كل ما أريد!

أنيسة فجّرت عالمي، جعلته ذرات منشورة في فضاء لا نهاية له. قالت لي مرة، وهي تحاول ان تقتلني:

ـ أصبح لهدى ولدان. قبل شهر جاءها الولد الثاني. وقد سألت عنك.

ـ ولد ثان؟

ـ سمُّوه عدنان.

ـ والأول.. كم عمره؟ وما اسمه؟

ـ اعتقد ان عمر الأول أكثر من سنة ونصف، واذا لم أكن مخطئة، فإنَّ اسمه راجي.

ـ راجي؟

ـ راجي!

ـ وماذا عندك من الأخبار غير ذلك؟

ـ والله لا أرى أحداً، صحَّتي انهارت، وحامد لم يعد يطيق ان يراني هكذا.

ـ وحامد، ما أخبار حامد؟

ـ يسأل ان كنت توافق على الاقتراح الذي عرضه مدير الشرطة!

ـ قلت لك ألف مرة لا أوافق، ولا حاجة لأن تتصلوا بأحد.

ـ وصحتك يا رجب؟

ـ راجعت الطبيب، واعطاني دواء جديداً.

ـ وماذا تفيد الأدوية في مثل هذا الجو؟ الضرب، الاهانات، الاعدام! وسقطت من عينيها دمعة وهي تضيف: كل يوم بسنة يا رجب!

وبدأت أسقط. اصبحت الآلام تنتشر في جسدي مثل انتشار النار. كتفي الأيمن مشتعلة من الألم. معدتي تخرج من حلقي كل يوم. رجلي اليمين رخوة وتحرَّك فيها الروماتيزم حتى أصبح المشي بالنسبة لي عذاباً لا نهاية له. وأتلمس أعضائي عضواً بعد آخر لكي أتأكد. ثلاث أسنان منخورة، تسبب لي آلاماً هائلة، خاصة أثناء الليل. أنفي مزكوم بصورة تكاد تكون دائمة. صدري يخر، والسجائر لم يعد لها ذاك الطعم اللذيذ. وأصبح الفراش الدافىء، النوم دون كوابيس، القراءة، التطلع الى واجهات المحلات، الركوب في سيارة عامة، أصبحت هذه الأشياء احلاماً يومية تغزو رأسي، وأُفكّر فيها كأمنيات مستحيلة!

وانيسة لا تتعب ولا تكف:

ـ حلمت أول امس انك خرجت من السجن، لم تخرج ماشياً، خرجت على نقّالة اسعاف، تصور يا أخي اني لم أستطع ان أذوق طعاماً منذ أول أمس، وطوال الوقت أبكي، وقد غضب حامد ووجَّه لي كلمات قاسية!

وأصمت. لكن العالم الخارجي يظل في رأسي كتلة نار راكضة. هل هذا العالم موجود فعلاً؟ هل ما زال الناس يذهبون الى دور السينما؟ يضحكون؟ يجلسون في الحدائق؟ والسيارات ألا تزال تسير في الشوارع؟ والباعة والمتاجر، والمتحف؟ آه لشد ما أتلهف لأن أذهب الى المتحف، والنساء؟.. النساء في المدينة الكبيرة آلاف، عشرات الآلاف، كل امرأة عالم من الجنون والدفء، هل تنقضي هذه السنين وأخرج مرة أخرى؟ سبع سنين. ست سنين، ما أطولها: آلاف الأيام انتهت ولم نقض بعد نصف المدة التي حكمنا بها. هل تنتهي المدة؟ ألا يستطيعون ان يلفقوا لنا تهمة جديدة ونقضي في السجن خمس سنين أخرى؟ انهم قادرون على كل شيء! ألم يحكم على مجدي ثلاث سنوات جديدة قبل انتهاء المدة الأولى بيوم واحد؟ وعثمان..؟ تركوه في الخارج اسبوعاً واحداً، ثم جاء مرة اخرى يحمل على كتفيه ثماني سنين!

الشوارع المضاءة في الليل، الناس، الرجال والنساء، كل شيء في العالم الخارجي يسير دون خوف. والمطاعم؟ يمكن للانسان أن يدخل إلى أي مطعم، ويطلب كل ما يشتهي. يمكن أن يأكل في أية ساعة، حتى يشبع، واذا لم يعجبه نوع من الأكل يصرخ طالباً نوعاً آخر، ويعطي النادل الحساب وفوقه قروش قليلة، ولكن اذا رأى صرصاراً فإنّ المطعم سوف يغلق في اليوم التالي:

ان صرصاراً يكفي لأن يهدم سمعة أكبر المطاعم!

والانسان في العالم الخارجي يستطيع أن يذهب إلى المرحاض متى يشاء، لا أحد يمنعه، لا أحد يدق عليه الباب ويطلب منه أن يخرج فوراً، لا أحد يجبره على حمل القذارة بصفيحة ترتج بين يديه وتتسرب إلى ثيابه ويديه..

هل ما زال العالم الخارجي موجوداً بالفعل؟

كانت انيسة تترك لي ان أفكّر، لاحظت ذلك مرات كثيرة. وربما كانت ترى في عيني أضواء الشوارع، وقامات النساء، وروعة الأشجار! كانت تتركني أتيه في العالم، ولكي تزيد آلامي كانت دمعة صغيرة تتساقط من عينيها، وعندما تراني أتابع خيط الدموع، تقول:

- إلى متى يا رجب تظل وراء القضبان؟ وإلى متى تظل وحدك؟

انظري.. انظري يا انيسة، ليس رجب هو الذي تراه عيناك الآن، مات رجب، وقّع بنفسه شهادة الوفاة، كانت الساعة تقترب من السادسة، عندما ارتجفت يده لثانية صغيرة ثم سقط، الانسان الممدد على السرير الآن، المطفأ العينين، الصامت، لا علاقة له بذاك الذي كان من قبل. آه لو لم تكوني أختي يا انيسة، وأنت يا هدى، لو كنت امرأة أخرى، لو ان ذلك حصل لما سقطت.

قالت أمي وهي تشد وجهها لكي تخنق الخوف والحنان:

- اسمع يا رجب، أنا أمك وأنت قطعة من لحمي، وليس في هذه الدنيا أحد يعزك مثلي، لكن لا تسمع كلام عمتك، ماذا تقول للناس، لأصدقائك، غداً اذا اعترفت وخرجت؟ الحبس يا ولدي ينقضي. افتح عيناً واغمض عيناً تمر الأيام، وتبقى رافعاً رأسك. اذا اعترفت فكلهم سيقولون خائن، ولا تستطيع ان تنظر في وجه أحد. خذ بالك يا ولدي.

لماذا متّ يا أمّي؟ لماذا؟ لماذا تركت انيسة الضعيفة لتكون نافذتي على هذا العالم؟ آه لو ان لي أختاً غيرها! وأخي لم يزرني مرة واحدة، قال لأنيسة ذات مرة، يريد ان يصلني كلامه:

- رجب لم يعد صغيراً، قلنا له ألف مرة ان يترك الأعمال

الصبيانية، ولم يسمع. الآن، اذا تعهَّد ان يقدم براءة، فهو أخي، واذا لم يفعل فلا هو أخي ولا أنا أعرفه.

لما سمعت من أنيسة هذه الكلمات بصقت على الأرض، بصقت بغضب ودست فوق البصاق، واستدرت بكل ثقلي، قلت لها:

ـ قولي لأسعد لا هو أخي ولا أنا أعرفه، واذا جاء يوم وطلبت منه شيئاً فليطردني مثل كلب. لكن بالمقابل اذا تكلم عنّي كلمة واحدة، فأنا مستعد ان أقضي حياتي كلها في هذا المكان، ودمه في رقبتي.

كنت غاضباً مثل ثور، ولم تمض دقيقة على كلمات انيسة، حتى استدرتُ وعدت الى العنبر، رغم ان الزيارة كانت في بدايتها!

مات اسعد بالنسبة لي منذ ذلك الوقت، وحتى قبل ذلك الوقت لم يكن موجوداً بنظري. كانت أمّي تعتبره لئيماً، خسيساً، لأنه باعنا حين كنا صغاراً، وبعد وفاة أبي مباشرة.

لن تفرح يا أسعد، صحيح انني وقعت تلك الورقة اللعينة، لكن لن أترك لك فرصة للشماتة، لن ترى وجهي، وقد لا أراك في حياتي كلها!

أول شيء أريد ان أفعله غداً زيارة قبر أمي. هل تذهبين معي يا انيسة؟ لا أريدك ان تذهبي، دلّيني على قبرها فقط. أريد ان أكون وحيداً الى جانب القبر، سأبكي، سأقول لها كل شيء، سأقول لها كيف حصل الأمر، لماذا حصل. هي الوحيدة التي تفهمني، تفهم ما يدور في رأسي حتى دون أن أقول كلمة واحدة. سأبقى ساعات الى جانب قبرها، لكن لماذا ماتت؟ ان قوة غامضة وغبية هي التي تدير

هذا الكون، وهي نفسها التي انتزعت أمّي في وقت كنت أريدها ان تبقى.

أعرف انها كانت تتكوم لساعات طويلة أمام زاوية السجن، وأمامها سلّة فيها أكل وخبز وبرتقال، وفيها ثياب، وفي مكان ما من الثياب رسالة. كانت تنتظر دون تعب، حتى اذا سمحوا لها بالدخول، كنت أرى من بعيد ابتسامة تملأ وجهها، وفي تلك الدقائق، التي لم تكن تزيد على العشر أتزود بالقوة، بالجنون، بالمحبة، كنت أتزود منها لفترة طويلة تكفيني أسابيع، حتى عندما يمنعون الزيارة.

وماتت. انيسة لا تشبه أمي، الملامح، الصوت، نظرة العيون، كل شيء مختلف، كانت كل واحدة تحب بطريقة مختلفة، كل واحدة تعبر عن حبها بطريقتها الخاصة. آه لشد ما كنت قوياً في السنوات الأولى، وفي تلك السنوات تحملت من الضرب والاهانات ما لا يحتمله بشر، وصمدت، وبعد ان رحلت أمّي، تغير كل شيء فيَّ: الآلام، الخوف من الموت ومن عالم الحرية، الكراهية. لقد أصبحت انساناً جديداً.

هم قتلوها. كانوا يطردونها عن بوابة السجن، هي والأمهات الأخريات، مثلما يطردون الكلاب، كانوا يضربونهن بالعصي، يشتمونهن، كانوا يقولون عنهن بغايا وقوادات، ولا يتورعون عن شيء أبداً. رأيتها مرة ترتجف أمامي، كانت خائفة وقد تملكها الحزن، حاولت ان تبتسم، حاولت ان تخفي اضطرابها، لكن في لحظة رأيتها تبكي. لما سألتها قالت:

ـ يحق لهم ان يفعلوا كل شيء.

وصمتت، تاركة لدمعة كبيرة ان تسقط دون ان توقفها او تمسحها كما تعودت ان تفعل. ولما سألتها مرة أخرى، جاءت كلماتها غامضة حزينة:

- الكلب أمسكني من صدري.

وأشارت برأسها الى الحارس الذي كان يدور حولنا.

حفروا لأمّي مئات الخنادق، كانوا يحفرون لها خندقاً جديداً في كل مرة تأتي فيها لزيارتي. منعوا الأكل، منعوا الثياب، منعوا أمواس الحلاقة، ضربوها، قالوا لها: لو لم تكوني بغيا لما خلفت هذا القواد، واشاروا إليَّ، وهم يدفعونها أمامهم!

كانت أمّي صخرة. كانت أصلب من كل الصخور، غداً سأقبّل التراب مئات المرات، آه لو أستطيع ان أرى وجهها لثانية واحدة، لثانية.. ثم لتذهب بعد ذلك، لا أريد أن أراها، تكفي تلك الصورة، وهي تطل عليٍّ من وراء القضبان، وتقول بصوتها المجروح القوي:

- الدنيا حياة وموت يا رجب، وصيَّتي لك أن لا تضر احداً، تحمّل يا ولدي.

قالت لي هذه الكلمات قبل أن تموت بشهرين، تذكرت ذلك فيما بعد، عندما رأتني مرة أفكّر، وتتيه نظراتي بعيداً. أحسست بالخوف، وأحسَّت بالأفكار اللعينة تقترب من رأسي. قالت تلك الكلمات لتحارب خوفي، لتحارب فيَّ لحظات الضعف القذرة.

غداً سأنام عند القبر، سأقول لها ان جسدي هو الذي خانني يا أمي، انت التي بنيت هذا الجسد، واذا انهار فلأنه ضعيف هكذا، وانا لست مسؤولاً، لم يكن جسدي ضعيفاً بهذا المقدار عندما كنت حية.

كانت تأتي لزيارتي كل اسبوع. بعد موتها فجأة تغيَّر جسدي، أصبح هشاً مستعداً لاستقبال الألم، أصبح عبئاً عليَّ، لا يتركني أنام، لا يتركني أتذوق الأكل، وله فوق ذلك طلبات تزداد كل يوم!

انيسة تابعت الرحلة حتى نهايتها، بدأت تنبهني إلى أمور لم أكن ألحظها من قبل:

- تطلع هذه الناحية يا رجب.

ومثل طفل صغير أدير رأسي، وتصرخ:

- عروق رقبتك نافرة مزرقّة، هل ضربوك؟ هل حصل لك شيء؟

وعندما أهز رأسي دلالة النفي والاستغراب، تقول:

- العروق تظهر اذا ضعف الجسم، وانت ضعيف جداً في هذه الفترة.

وبشكل سري وبطيء أتطلع الى يدي الممدودة، أتطلع الى العروق، وأتحسس صدري!

تابعت انيسة الرحلة الخطرة حتى نهايتها، ومع الرطوبة والرائحة الكريهة والألم، لاحظت يوماً بعد آخر ان أشياء كثيرة في جسدي تتغير وتضطرب.

انكسرت يدي حين كنت في العاشرة، بكيت بتوجّع، صرخت من الألم، رأيت أمي تقول لي بلهجة لا تستعملها إلاّ في لحظات الغضب:

- لو رآك أبوك تبكي مثل النساء، لكسر يدك الثانية. ماذا حصل حتى تبكي هكذا؟!

ولا أكفُّ. كان الألم أكثر مما احتمل، ولم تجد أُمّي غير تلك

القصة التي كرّرتها على مسامعي مرات كثيرة..

ـ أُصيب المرحوم والدك مرة، انكسرت رجله عند الساق، أُصيب برأسه عدة اصابات، ومع ذلك قتل اثنين، ومنع الآخرين من ان يتقدموا. لو كان سليماً لقتلهم كلهم. تصوّر انه جبّر رجله وركب الحصان وحده، وعاد الى البيت. ماذا يقول عنك اذا رآك تبكي هكذا؟

أمي التي تنام تحت التراب الآن، تركت لي انيسة تقودني في الدهاليز اللعينة. ظننتها وهي تتحدث عن العالم الخارجي، تتحدث عن الجنة. كانت تسرف في وصف حديقة البيت، وانا أتذكرها من سنوات طويلة: حديقة صغيرة، لها سور من أحجار مصفوفة بعلو نصف القامة، ولأن ارضها تستقبل المياه القذرة والصابون، تحوّلت الى سبخة لا تنبت فيها غير تلك النباتات الشيطانية والتي تتحمل الحرارة والبرد ومياه الغسيل. أتذكر تلك الحديقة جيداً، ولا أعتقد ان من الممكن ان تتحول خلال فترة غيابي الى شيء مختلف، لكن أنيسة تصرّ وهي تتحدث عن الحديقة:

ـ عباد الشمس يا رجب أطول من رجل على حصان. المداد، الريحان، الآس.

ـ وماذا أيضاً يا انيسة؟

ـ لو تراها يا رجب، انها الآن غير الحديقة التي تعرفها!

ـ وهل بدأت تزرعين فيها القمح والشعير؟

ـ أتمزح؟ آه لو تراها!

ـ لا أمزح، مجرد اسئلة.

ـ وغرفتك، كل اسبوع أنظفها بالصابون، وهي الآن حاضرة،

نظيفة، يلعب فيها الهواء والشمس.

ـ وأي شيء آخر في عالم الحرية يا انيسة؟

ـ كل شيء تغيّر، الشوارع غير الشوارع، البيوت غير البيوت، الحدائق، الأضواء، أشياء كثيرة تغيرت!

ـ وماذا ايضاً يا أنيسة؟

وتضحك وهي تجيب:

وانت يا رجب تغيرت كثيراً. كبرت عشر سنين، عشرين سنة، مَن يراك الآن لا يعرفك: الشيب، التجاعيد.

وتتغير نبرة صوتها وتتقلص الابتسامة وهي تضيف:

ـ الله يلعن السجن ويومه، قلنا حين تخرّجت من الجامعة سعادتنا بدأت، لكن ما مرَّ شهر حتى تحوَّل الفرح إلى مأتم!

لو ظلت أمي، لظللت شاباً وصامداً، لو ظلت هدى لظللت أقوى وأشد، لكن جسدي هو الذي عذّبني، لم يتركني ارتاح يوماً واحداً. حاربت جسدي فترة طويلة، جاملته، سألته أن يقف الى جانبي، لكن شيئاً من الخارج ظلَّ يغزوني دون رحمة.

انيسة تقترب وتبتعد. ترتِّب الغرفة، ترتِّب بقايا ملابسي. سمعتها وهي تفتح الحقيبة، ثم حين فتحت الخزانة. أي شيء في هذه الحقيبة المسلولة؟ بقايا ثياب، بقايا يأبى حتى المتسولون ان يمدوا اليها أيديهم، لو تركتها في السجن لكانت تنفع احداً، أمَّا في العالم، خارج السجن، فإنَّها تثير الشفقة! ولكن لمَن اتركها؟ هل يقبل احد من الأصدقاء ان يمد يده اليها؟ لم تكن ملوثة بنظرهم فقط، كانت تحمل رائحة جيفة، ربما كانوا أحرقوها لو تركتها.

اصنعي ما تريدين انيسة بهذه الخرق. لا أريدها، لن ألبسها

بعد اليوم، أريد أن أتخلص من كل شيء له علاقة بالماضي. اذا لم تمزّقيها فسوف أحرقها، يجب أن أحرق كل ما له علاقة بالماضي. وأي ماض اريد ان أحرق؟

السادسة.. تلك الساعة اللئيمة التي جعلت نهايتي حقيقية مؤكّدة، نهائية. قبل ذلك كنت رجلاً وبعد ذلك أصبحت شيئاً آخر. لم يحتمل التوقيع إلاّ ثانية صغيرة، حصل الأمر بسرعة، اضطربت يدي واضطرب التوقيع، نهاية التوقيع طويلة، مشوشة. آه لو توقفت في تلك الثانية، آه لو توقفت!

(٢)

ظلَّ نور الغرفة يتأرجح على الستارة وانا أنظر اليها بصبر نافد، كنت أريد ان أتأكد من نومه قبل أن أنام. انتظرت حتى سمعت أنفاس حامد تغرق في هذه الدورة الأزلية من الاطمئنان، جررت نفسي بهدوء، وانزلقت الى الصالة.

كان السكون يغطي الدار كلها، الأولاد نائمون منذ ساعات، وفي الخارج شيء يشبه الريح الصغيرة، كنت أرى آثارها من الاهتزازات اللينة للستائر، ومن صرير باب قن الدجاج. لم أكن أتصور ان الأيام تنقضي خفيفة راكضة هكذا، انقضت تماماً، مرَّ اسبوعان لم أره خلالهما كما تمنيت. غداً يسافر، لا.. اليوم، لم تبقَ سوى ساعات قليلة وابدأ الانتظار من جديد. قال لحامد بصرامة، يريدني ان أسمع الكلمات تماماً:

ـ اذا انقضى شهران ولم أعد، فمعنى ذلك ان اقامتي طويلة، اذا وجدت هناك عملاً مناسباً بقيت!

لم تكن هذه الفكرة تخطر على بالي، سمعتها مرات كثيرة، لكن قبل هذه الليلة لم أكن متأكدة انه يعنيها، كانت كلماته واضحة، وان بدا فيها شيء غريب، ثم يعود اليها بطريقة أخرى.

في هذه الليلة لست متأكدة من شيء، حتى السفر كان من

الممكن ان يتخلى عنه. هل أطلب منه ان يبقى؟ ولكن كنت أعرف ان أية كلمة جديدة تُسبب له عذاباً لا تحتمله صحته. ليذهب. الحل الوحيد ان يذهب. وأنا سأتعلم الانتظار من جديد. انتظرته خمس سنين حتى عاد. واليوم يمكن ان انتظره، انه لا يعني كلماته تماماً، هل يبقى؟ وأي عمل يستطيع ان يعمل؟

قبل ان ينام حامد بكيت وأنا ألح عليه لكي نقنعه بأن يترك فكرة العمل، قلت:

- سنبيع البيت ونرسل له ما يحتاجه، له اكثر من نصف البيت ومن حقه ان يبيعه.

ان رجب الآن ليس رجب الذي أعرفه. تغيَّر كثيراً. رفض استقبال احد من أصدقائه، كان فظًّا وهو يصرخ في وجه عادل، ويطلب منه ان يقول للذين جاءوا بأنه غائب ولن يعود قبل منتصف الليل. وعمَّتي، آه لشد ما غضبت، لأول مرة رأيتها تبكي بهذا الشكل. امسكها من كتفها وهزَّها بقوة يريد ان يوقعها على الأرض، لم تكن تدري ان زغرودة فرح يمكن ان تسبِّب له مثل هذا الغضب؟ ظنَّت أول الأمر انه يداعبها، لكن عندما توالت هزاته القاسية خافت، وتوقفت. نظرت اليه بتساؤل واستغراب، فلما رأته غاضباً والكلمات تتطاير من فمه، تراجعت وهي تنظر اليّ تسألني بعينيها، لم أكن أعرف ما ينبغي ان افعل، اقتربت منها، احتضنتها حتى اذا رأت دموعي، انخرطت في البكاء، أمَّا هو فقد دخل الى الغرفة وارتج الباب وراءه صاخباً عنيفاً.

قالت عمَّتي بعد ان ابتعدنا كثيراً عن الغرفة، وجلسنا في طرف الحديقة، عند الباب:

ـ والله يا ابنتي لم أُصدّق، كان كل يوم بسنة، كنت اريد أن أفرح به سبعة أيام. ومسحت دموعها وهي تقول بصوت مكسور: ارأيت ما فعل؟

قلت لعمتي أشياء كثيرة لأقنعها، لكن قبل ان يحل المساء كانت تعود الى القرية، والدموع تملأ عينيها، ورجب رفض ان يخرج الى الغداء. ورفض ان يقول كلمة. ظلّ يدخن ويشرب القهوة، ولما جاء حامد ودخل غرفته رأى بقايا دموع في عينيه!

انتهى ذلك كله.

اقتربت من باب الغرفة ووضعت اذني. كان السكون الأخرس يغرق الدار. ظننته نائماً وانه نسي الضوء فلم يطفئه. انتظرت لحظة، ثم شققت الباب بهدوء ومددت رأسي، كان يجلس في السرير مثل كرة، وما كاد يراني حتى انتفض. شعرت ان ملامح وجهه تنخضّ دفعة واحدة، تصبح غاضبة، أردت ان أتراجع، لكنه كان قد رآني، تقدمت لأوضح له وأعتذر، ولم اجد سوى الضوء حجة. قلت:

ـ ظننتك نسيت الضوء يا رجب!

وهزَّ رأسه دون ان يجيب. كان وجهه حزيناً وغاضباً، ودخان السيجارة يتصاعد ويتلوى، حتى ظننت وأنا أتنشق الهواء، ان عدداً لا يحصى من السجائر يشتعل في نفس الوقت، فيجعل الرؤية مضطربة، والتنفس ثقيلاً. قلت بلهجة متوسلة:

ـ يجب ان تنام يا رجب. نم ساعة، ساعتين، حتى تستيقظ نشيطاً وتستطيع ان تسافر!

ورأيته يسحب سيجارة جديدة ويشعلها من السيجارة التي في يده. حتى اذا انتهى، اطفأ الأولى، ودون ان يعدل جلسته، قال

وهو منحن:

ـ أتعرفين يا انيسة ان حياة السجن أفضل؟

كنت انتظر كلمات مجنونة مثل هذه التي يقولها رجب الآن. لقد تأكدت ظنوني، بدأ يقول الكلمات التي أخاف منها، والتي حاربتها خلال الأيام الماضية. لم أكن أصدّق ان حنيناً مثل هذا يمكن ان يعاوده. سألته وأنا أقترب وانظر اليه، لكي أتأكد ان عيونه تعني الكلمات التي يقول:

ـ وهل يزعجك شيء يا رجب حتى تقول مثل هذا الكلام؟

ولم يجب. ظلّ يهز رأسه بلوعة مميتة، حتى ظننت ان الدموع ستنفجر من عينيه. لم أكن أحب بكاءه فقد تمزقت روحي وأنا أراه.

في هذه اللحظة يجب أن أحارب، لكي تبقى صورته مثلما كانت قبل السجن.

بدأت الدموع صغيرة خجولة في عينيه في اليوم الأول، ولكن لا يكاد يوم جديد يأتي حتى أرى حزنه يتحول الى غمامة سوداء تفرد ظلها على البيت كله.

جلست بخوف على حافة السرير. كنت مستعدة لأن احتمل كل شيء حتى انتزع العذاب الذي يموج في داخله، ويدفعه في كل وقت الى العصبية والبكاء، قلت وأنا أشد يده وأمسكها:

ـ رجب.. برحمة أمي، أكاد أموت من صمتك، قل يا رجب، هل رأيت شيئاً، أو سمعت شيئاً أزعجك؟

وبنفس الطريقة المدمرة الكاوية، هزَّ رأسه دلالة النفي. كنت أريده ان يقول. لم تبق إلاّ ساعات قليلة ويرحل، واذا لم يتكلم الآن، فقد لا يتكلم ابداً. ضغطت على يده، وسألته من جديد:

- الدنيا لا تستاهل ان تعذّب نفسك بهذا الشكل، ما الذي يعذبك؟

هزَّ رأسه وكتفيه، وعبرت ملامحه الحزينة عن شيء. لم يكن يريد ان يتكلم. أحسست، أنه لو تكلم، فسوف يتعذب أكثر. ومع ذلك لم أتركه، اعتقدت ان عذاب لحظة، بكاء لحظة، قد يخلصه. ألقيت رأسي على ركبتيه، وقلت له بتوسل:

- ارحمني يا رجب، لقد اسودت الدنيا في عيني، واذا لم تقل لي، اذا لم تتكلم، فسوف أقتل نفسي.

وسمعت صوته، بدا لي كأني اسمعه لأول مرة، كان صوتاً مبحوحاً يائساً:

- هذه الطريقة تعذبني اكثر يا أنيسة!

- اية طريقة؟ ما يعذبك؟

- لا شيء، تأكّدي انه لا شيء.

- وهذا الصمت والعصبية؟

- ماذا تريدينني ان أفعل؟

- تكلم، أنا أختك وأريد أن أساعدك، قل لي ما في قلبك، انت تعرف ان الانسان اذا تكلم يرتاح. ما الذي يعذبك؟

- ماذا تريدينني أن أقول يا انيسة؟

- قل، قل أي شيء، المهم أن لا تتركِ شيئاً في قلبك.

وضحك بيأس، كان يريد ان يسيطر عليَّ ويعذبني، حتى اذا تلاشت الضحكة، قال وملامح وجهه تعربد بالحزن:

- وماذا تقولين اذا لم يبقَ لي قلب؟

وجلست مقابله على السرير. جلست مثل جلسته. ولا أعرف لماذا طلبت ان يشعل لي سيجارة.

ضحك هذه المرة مثل طفل، لكن بحزن أيضاً، وسألني وهو يسحب سيجارتين من العلبة:

ـ نبدأ السهرة من أولها؟

وأشعل السيجارة ومدَّها إليّ، ثم قال بنفس اللهجة:

ـ ألا تعرفين أنَّني سأُسافر في الصباح ويجب أن أنام؟

وضحك وهو يراني أُدخن، لأول مرة أراه يضحك. ربما كانت طريقتي في التدخين هي السبب!

أشعل سيجارته وقال:

ـ ابلعي الدخان. . ابلعيه، لا فائدة في ان تحصريه في حلقك ثم تتركيه!

وعب نفساً، وتابع:

ـ انظري إلي. . . لقد بلعت الدخان، وبعد لحظة أخرجه من فمي وأنفي، انظري!

إنَّ رجب الذي أراه الآن، هو نفس الطفل الذي عرفته قبل أكثر من عشرين سنة. نفس الشاب الدامي الوجه الذي كان يعود من المظاهرات. وعندما أراه الآن يعلمني التدخين، أتذكر كيف علَّم أمي. كانت أمي في البداية قاسية، شتمته أكثر من مرة، رمت السجائر في المرحاض، ولكنها تغيَّرت بعد ان أدركت أن طريقها لا تجدي. بدأت تحذره، وتذكر له قصصاً كثيرة، حتى كان يوم اصبحا يجلسان عند أول المساء في الحديقة، على كرسين واطئين ويدخنان. ضحك عليها كثيراً حين رآها تدخن بطريقة النفخ كما كان يسميها،

ولم تمض فترة حتى أصبحت أمي تشتري علبة سجائر، كل ثلاثة أيام، ثم لم تعد تكفيها العلبة أكثر من يومين، ولما سجن رجب لم تكن تفعل شيئاً سوى التدخين والبكاء!

قلت لرجب، أحاول ألا أذكّره بكل شيء:

ـ يبدو أنّني سأتعلم التدخين..

رد عليّ وقد عاد لملامحه الحزن:

ـ الأفضل أن لا تتعلمي!

ـ وانت.. لماذا تدخن بهذا الشكل؟

ـ قريباً سوف أترك التدخين. أشعر ان التدخين يتعبني، وأنتِ يجب أن لا تتعلمي مثل أمي!

التقط رجب الخيط. رفرفت صورة أمي فوقنا. رفرفت مثل طائر كبير، تصطك أجنحته في الهواء. وتغيَّر كل شيء في لحظة. قال يريد ان يجرني:

ـ أمي كانت تدخن كثيراً... أتتذكرين؟

ـ أتذكر.

حاولت أن أهرب، قلت أتذكر ولم أرد أن أقول شيئاً آخر، لكن رجب لاحقني، كأنه يريد أن نتحدث عنها، وعنها فقط. سألني:

ـ هل كانت تدخن كثيراً لما كنت في السجن؟

ـ مثل قبل، أكثر قليلاً!

ـ نفس السجائر؟

ـ نفسها.

ـ كم سيجارة كانت تدخن؟

ـ علبة في اليوم!

وهزَّ رأسه دلالة الاستغراب، كأنه يريدني ان لا أكف عن ذكر كل شيء، ولما وجد أنَّ دفاعي الوحيد هو الصمت، سألني:

ـ وهل استمرت تدخن حتى أثناء المرض؟

ـ أوصاها الطبيب أن تنقطع، قالت له انها لا تستطيع، وعندما وجدها مصرة طلب منها ان لا تدخن اكثر من سيجارتين إلى ثلاث سجائر.

ـ وماذا فعلت؟

حاولت أن أبتسم لكي أجعل الحديث عنها أقرب الى ذكرى بعيدة، ذكرى لا تولّد حزناً من أي نوع.

قلت وقد تغيَّرت نبرة صوتي فأصبحت عالية ولها رنين:

ـ تصوّر.. كل محاولاتي في اخفاء السجائر فشلت، كنت أمنعها. كنت أبعد السجائر عن البيت كله، ولكن دائماً تجد طريقة. تفتّش عن السجائر حتى تجدها، تبعث ولداً لكي يشتري لها علبة سجائر دون أن أعرف، وتضعها تحت وسادتها. عرفت كل الأماكن التي كانت تخبىء فيها السجائر، ومع ذلك ظلَّت تدخن!

ـ ظلَّت تدخن كثيراً؟

ـ ليس أقل من عشر سجائر!

ـ عشر سجائر في اليوم؟

ـ كانت تتوسل، كانت تستغل وجود الزوار، وبعض الأحيان تبكي وتتذكر السجن ورجب، وأجد نفسي مضطرة لأن أعطيها

سيجارة من اجل ان تكف عن البكاء وتنسى.

ـ وظلَّت تدخن حتى اللحظة الأخيرة؟

ـ في اليومين الأخيرين لم تعد تستطيع، انهارت تماماً، اما قبل ذلك فقد ظلَّت تدخن رغم وصايا الطبيب، ورغم كل المحاولات لمنعها.

ـ وكيف ماتت أمي يا انيسة؟

لا استطيع ان أتحدث عن موت أمي بحياد. مهما حاولت لا أستطيع. كنت امتلىء تصميماً على ألاَّ أتحدث مع رجب عن موتها، رغم انه في اليوم الأول، قبل ان ننام، قال لي انه يريد زيارة قبرها في الصباح التالي، حاولت صرفه عن الفكرة، لكن شبح أمي ظلَّ يلاحقنا نحن الاثنين طوال هذه الأيام، أقام معنا في البيت، وما يزال حتى الآن. حاولنا كثيراً كل بطريقته، ان نتحدث عن الأمر، وان لا نتحدث بنفس الوقت. حاولنا ذلك كثيراً، أمَّا الآن، فإنَّنا نواجه المشكلة، وهذه المرة دفعة واحدة!

وفي اليوم الثاني، بعد ان غادر رجب السجن، ذهبنا معاً الى المقبرة. قال لي بعد ان وقفنا لحظات فوق القبر، ورأى دموعي، قال بعصبية:

ـ ارجعي الآن يا انيسة.

ولما رآني واقفة لا أتحرك، ورأى دموعي، قال لي مرة اخرى:

ـ ارجعي الى البيت، وانا سأبقى هنا بعض الوقت، سأزور قبر ابي وقبر خالي.

ونتيجة لإلحاحه عدت، رأيته وأنا أخرج من المقبرة يتابعني بنظراته ليتأكد، ولا أعرف أي شيء فعل.

لكن عند الظهر، لما عاد، رأيته شاحباً، عصبياً، وتمنيت لو اني لم أمتثل لكلماته وبقيت معه.

والآن يريد ان ينكأ الجروح كلها مرة واحدة، قلت له وأنا أفكّر بطريقة لا تجعلني انهار امامه وأغرق في بحر من الدموع:

ـ لقد مضى على موتها ثلاث سنوات، ونسيت!

أمسك بكتفي وهزّني. كانت يده حنونة دافئة، والسيجارة في فمه تهتز، سألني وهو يغمض احدى عينيه، ربما من اثر الدخان، وبصوت غامض متداخل:

ـ انتِ تنسين يا انيسة؟

حاولت أن أبتسم وأجبته:

ـ نسيت يا رجب!

تراجع فجأة. أسند ظهره الى السرير ومدَّ قدمه اليسرى على طولها، ورأيته يحاول ابعاد نظراته عنّي. رجب لا يخطىء في معرفتي. ان ابتسامات صغيرة، وبطريقة معينة، هي النذر الأخيرة قبل الانفجار. كان يعرف أنّي أحتمل كثيراً لكن فجأة ينتهي كل شيء، أسقط، أصبح مثل طفلة صغيرة لا يمكن لأحد ان يمنعها او يوقفها. رآني اكثر من مرة أبكي ذلك البكاء الصاخب المجنون. والآن، تراجع وغيَّر جلسته، كان يحاول ان يسحب الذكرى كلها.

كنت أريد البكاء، كانت لديّ عشرات الأسباب، وتصورت اني اذا تركت لنفسي الحرية في البكاء فقد أنقذ رجب ايضاً. كنا، نحن الاثنان، بحاجة الى ان نغتسل بالبكاء، ولا يهم السبب الذي نبكي من اجله، فقد كانت قلوبنا تمتلىء بالأحزان لدرجة ان اي شيء يكفي ليكون سبباً.

عندما سقط رماد السيجارة على الوسادة، انتفض، نفضه بعصبية، وهو ينظر اليَّ وابتسامة صغيرة ترتسم على شفتيه. قال:

ـ ما دمت نسيت كيف ماتت العجوز فإنَّك كبرت كثيراً، وربما نسيت كل شيء!

ـ لست صغيرة يا رجب، عمري الآن يزيد على الأربعين.

ـ وهل ينسى الناس ويخرفون في هذه السن؟

ـ المهم يا رجب، أنت لا تعرف كم تحملت وكم تعذبت!

وهزَّ رأسه هذه المرة. هل أتركه يفلت ويبقى يتعذب؟ لماذا لا نبكي معاً، ومن أجل أمي هذه المرة، لكي يغسل نفسه ويعود انساناً آخر؟

قلت وأنا أغيّر جلستي فوق السرير، أتراجع وأستند إلى الحافة الواطئة:

ـ لا يمكن أن أنسى شيئاً يا رجب. أتذكّر كل شيء كما لو أنّي أراه الآن، وهل تتصور أنَّني أنسى أمي وموتها بهذه السرعة؟

تغيَّرت ملامح وجهه، وبدا بعينيه المتسعتين، أكثر رغبة في ان يسمع. التقط بسرعة سيجارتين من علبة جديدة، وقال يسألني دون ان يقطع عليَّ أفكاري:

ـ سيجارة؟

ورفعت اليه وجهاً رافضاً، وربما كان متعباً ومتحفزاً في ذات الوقت. تركته يشعل سيجارته وينفث نفساً أو أكثر قبل ان أبدأ تلك القصة الحزينة.

ـ أتعرف كيف ماتت أمي يا رجب؟ لماذا ماتت؟

رايت في نظراته اشعاعاً غاضباً، ينفذ الى أعماقي، تابعت قبل أن يجيب:

ـ لقد قتلوها يا رجب!

ودفنت رأسي في الفراش وأخذت أبكي. لا أتذكّر أنّي بكيت هكذا في حياتي كلها. في لحظة تجمعت آلاف المواكب الحزينة، وضغطت على رأسي بقوة، حتى تصوّرت ان رأسي سينفجر، لكن والدموع تنزف من عيني بغزارة، رأيت المواكب الحزينة تتفكك، تتباعد، ثم تبتعد، وظلّت صورة أمي وهي تعود في ذلك اليوم، عند العصر، الصورة الوحيدة المليئة بالأسى.

لما رفعني ومسح دموعي، أحسست انه استغل لحظات بكائي، وأنا أدفن رأسي في الفراش، وبكى هو الآخر. كانت عيناه حمراوين، لكن لم يكن فيها دموع، وكان وجهه محتقناً من الألم وشديد الاصفرار، اما السيجارة فقد ظلتَ وحدها على المنفضة تتابع بدخانها مشهداً يائساً، قلت له وفي صوتي بقايا دموع مضطربة:

ـ هم الذين قتلوها يا رجب، لولاهم لكانت حيَّة إلى الآن!

ـ كيف؟ مَن قتلها؟

ـ لا أعرف، لو لم يقتلوها، لرأيتها الآن أمامك!

ـ اجلسي يا انيسة، لا احتمل أكثر، أكاد أختنق.

ـ قبل موتها بعشرة أيام، كان يوم خميس، ذهبت مع امهات ونساء المعتقلين لمقابلة وزير الداخلية. لا أعرف مَن الذي أقنعها بالفكرة، لكن خلال ايام لم تهدأ ولم تتعب وهي تنتقل من بيت لبيت، حتى تجمع عدداً من النساء، ويوم الخميس ذهبن لمقابلة الوزير. لم يُسمح لهن بالدخول، او بمقابلته. ولا أعرف مَن اقترحت

ان لا يتركن المكان حتى يصلن الى نتيجة. كشفن عن رؤوسهن، ونفشن شعورهن، ويدأن بالصراخ والعويل، وقد صممت كل واحدة منهن ان تموت! انت تعرف موقف الشرطة، بدأوا بالضرب، بالصراخ، لكن لا فائدة. ولما حاول الوزير الخروج هجمن عليه. ويبدو ان الضربة التي تلقتها على أضلاعها عجّلت في نهايتها.

قبضوا عليها وقبضوا على عشرات أخريات، وفي النظارة كانوا وحوشاً، ضربوها، أهانوها، شتموها، وأبقوها حتى اليوم التالي، بعد ان عرفوا اسمها وجاءت تراجع من اجل مَن. عادت الى البيت عصر يوم الجمعة وبدا لي كل شيء منتهياً.

أصابتها الحمى منذ تلك الليلة، وكانت صحتها تزداد سوءاً، وتنهار كل يوم، ولم تتكلم إلاّ قليلاً، كانت تشتم وتدخن، وبعض الأحيان تبكي. أحضر حامد ثلاثة أطباء، أعطاها الأول ابراً، والثاني طلب اجراء تحاليل لها ثم اقترح ان تنقل الى المستشفى، اما الثالث، فقد وصل بعد ان ماتت بخمس دقائق...

كانت لا تذكر في الأيام الأخيرة إلاّ رجب. قالوا لها في النظارة ان رجب سيموت قبلها، وأنهم سيضاعفون مدة محكوميته، وأنَّ رجب سيأكل ضرباً لا يحتمله حمار.

وفي اليومين الأخيرين، عندما كانت تصحو من الغيبوبة، كانت ترفع يديها الى السماء وتقول: «اللهم قو رجب، وأعم عنه عيون الظلاّم» وتشتم.

هم قتلوها يا رجب، وأنا منذ ذلك الوقت خفت، وحزنت عليك أكثر من حزني على أمي. خفت ان يقتلوك!

وبكى رجب. كان يجب أن يبكي من أجل قضية محددة،

مفهومة. أفهم بكاءه الآن، أمّا في الأيام الماضية فقد كان غامضاً، لم أكن أعرف لماذا يصمت ولماذا يبكي.

تركته يفعل ما يشاء. كانت الدموع مثل سيول صغيرة تتدفق، وتتساقط من عينيه على خديه. لم يرفع يديه ليمسحها، ليمنعها، تركها تسيل، ولم أتصور في حياتي ان الرجال يملكون هذا المقدار من الدموع.

في لحظة سكون، وأنا أحاول مسح دموعي، وانظر اليه بعيون جديدة، سمعت صرخة جعلتني ارتجف، قال بصوت حاد يشبه سقوط الحجارة:

ـ انت مجرمة يا انيسة، لماذا لم تقولي لي هذا وأنا في السجن؟

ـ وما تستطيع ان تفعل يا رجب؟

ـ لماذا لم تقولي؟ لماذا؟

ـ كانت أحزانك تكفيك!

ـ لكن لماذا لم تقولي لي؟

ـ لا أعرف، تصورت اني لو قلت لك فسوف ازيد همومك وحزنك.

ـ كنت بحاجة لذلك.

ـ انتهت تلك الأيام يا رجب، يجب ان ننسى.

ـ ننسى؟

ـ وهل نستطيع ان نفعل شيئاً آخر؟

وضرب وجهه، وضرب جبهته. كانت صرخاته حادة مزقت صمت الليل، وكانت ضرباته مثل سكاكين تنغرز في القلب. هجمت

عليه اريد منعه، دفعني بقوة، وضرب رأسه بالجدار، ولا أعرف ان كان حامد أفاق على الصرخات أم على ضربات رأسه... رأيته فجأة ينتصب وسط الغرفة، وقد ارتاع وجهه لدرجة انني تصورته انساناً آخر.

كان يجب ان نبقى وحدنا. فأي انسان لا يستطيع ان يفهم مشاعر تلك اللحظة، حتى حامد، زوجي، الذي أعرفه، منذ ثلاثة عشر عاماً، بدا لي غريباً وكدت أصرخ في وجهه لكي يخرج، لكن رجب وهو يضرب رأسه بالجدار، وصرخاته المتشنجة المتدفقة من الألم الممض، لم تترك لي حرية التصرف. رأيت حامد يهجم عليه، يمسكه من كتفيه ويهزه بقوة. ولا أعرف كيف بدأ الحديث من جديد.. او متى.

في وقت ما، سمعت حامد، يقول بصوت قاس:

ـ يجب ان تناموا... لستم صغاراً لكي تتصرفوا بهذه الطريقة!

حين أطفأ رجب السيجارة، وتمدّد في الفراش، قال لي حامد بصوت حاد:

ـ انهضي يا عاقلة!

هل نام رجب بعد ذلك؟ لم يشعل الضوء، ولم نسمع صوتاً، لكن شيئاً في داخلي قال لي انه لم ينم. ظللت طوال الساعات الأخيرة مفتوحة العينين في الظلمة، انتظر. كنت أنتظر سماع صوته أو سماع طلق ناري رغم انه لا توجد في البيت كله اسلحة. كنت أتوقع صوت ارتطام رأسه بالجدار. عندما رأيته يضرب رأسه هكذا، خفت كثيراً، تصوّرت في لحظة خاطفة ان رجب اكتشف الطريقة التي سيقتل بها نفسه. سيقف في أول الغرفة، ويركض بسرعة نحو الجدار

المقابل ويضرب رأسه، ان ضربة واحدة من هذا النوع تكفي لأن ينتهي.

لما انتظمت دورة النوم الأزلية، وأصبحت أنفاس حامد منتظمة، عدت أتذكر من جديد: أمّي تقف في وجه الباب تمنعهم من الدخول. جاءوا عند الفجر، قبل الفجر بقليل، سمعنا صوت أمي، كانت تصرخ في وجوههم، لكن دفعوها بقوة ودخلوا. قبضوا على حامد أول الأمر، ظنّوه رجب، لكن الهمسة الصغيرة التي وصلت الى اذن قائد المفرزة من احد العناصر، جعلته عصبياً اكثر مما تصورنا. دفع حامد في صدره، وصرخ في وجهه:

ـ أين الحقير رجب؟

وقلبوا البيت كله، لكن رجب كان قد استعد قبل ذلك بثلاثة أيام، واختفى. تركوا في البيت اثنين. كان الاثنان يتغيران كل بضع ساعات، وكانا يجلسان، أغلب الوقت، في الصالة، في مواجهة الباب. كانا يقفزان مثل الذئاب اذا سمعا خطوات تقترب، يفتح احدهما الباب، والثاني يشهر مسدسه ويقف في الناحية الثانية. افزعا الصغار وأبكوهما، اما نظراتهما الى الكبار فكانت اتهامات مباشرة حاقدة. كانت عيونهما من نار، وطلباتهما لا تحتمل التأخير او المناقشة. باختصار قلبا حياتنا كلها خلال تلك الأيام الكئيبة، لم نكن نستطيع ان نتجول او ان نتحرك، وفي اليوم الرابع، عندما وصل رجب بعد الغروب قبضا عليه.

قبضوا قبل ذلك على خالد وادمون. كانوا فرحين بخالد وكانوا ينتظرونه منذ فترة طويلة، واعتبروا صيده أثمن صيد في تلك الفترة. اما رجب فقد تملكه الغضب حين رآهم أمامه، انقضّ بشراسة، أخذ يضرب ويشتم، لكن لم يقاوم طويلاً، سقط بعد ضربة على رأسه،

بكعب المسدس، وظهرت أصابع حمراء منتفخة على وجهه، اما صرخات أمّي وأظافرها وهي تدافع عن رجب فقد ذهبت أدراج الرياح. دفعوها بقوة، قالوا لها كلمات لم تستطع ان تنساها الى ان ماتت. قال لها القصير الذي ضرب رجب بكعب مسدسه، كان يعربد من الغضب والتعب:

- ابعدي يا قذرة، لولا انك قحبة، لما خلفت ابن الحرام هذا!

بعد فترة قصيرة من القبض عليه، رجع الذي ذهب لاستدعاء العناصر، اما الآخر، فقد ظل مستنداً الى الجدار وبيده المسدس. كان عصبياً وخائفاً، أمرنا ان نبقى في أماكننا، وهدَّد بأن يطلق النار على أي واحد يتحرك من مكانه.

لما أخذوا رجب، ولولت أمّي وركضت وراءهم. تجمع الناس في الزقاق، لكن احدهم وقف وهو يرفع مسدسه وهدَّد كل مَن يتقدم. حتى أمّي، لم تستطع ان تتابع، امسكها الرجل أول الأمر، ثم تدخل الناس في الزقاق، وقالوا لها كلمات أقرب الى الخشونة.

وبدأت أمي تدور. كانت تخرج من الفجر ولا تعود إلاّ بعد الغروب. لم تترك مركزاً إلاّ وذهبت اليه، لكن دائماً ينتظرها نفس الجواب:

- ليس عندنا أحد بهذا الاسم!

كانت تريد ان تتأكّد من شيء واحد: ان رجب لا يزال حياً. لم تكن تتمنى أكثر من ذلك، ولم يقل لها أحد تلك الكلمة اللعينة. ظلَّت تبكي طوال وجودها في البيت ودموعها تسبقها:

- انيسة... ماذا تقولين لو ذهبت الى الحاج مصطفى الغزاوي، انه يعرف أناساً كثيرين، ويمكن ان يساعدنا؟ قبل طلوع

الشمس سأذهب إلى بيت مدير الشرطة، سوف أُقبّل يده، اريد ان يطمئنني ان رجب ما يزال حياً. الكلب أبو سعدي لم يشأ ان يتطلع في وجهي، قال لزوجته ان لا علاقة له بالأمر، ويجب ألاً أسأله مرة أخرى.

... وحامد استعان بكل الناس الذين يعرفهم. أ.سبح عصبياً دائم الصمت، فإذا سألته صرخ في وجهي، أمّا اذا سألته أمي فكانت تبدو عليه علامات الضيق ويردد بعض الكلمات التي أصبحت تثير أمي أكثر مما تطمئنها.

أربعة شهور كاملة ولا أحد يعرف عن رجب شيئاً. لبست أمي طرحة سوداء وعصبت جبينها بشريط أسود. عافت نفسها الأكل وقالت بيأس مميت: «قتلوه.. اربعة شهور وهم يضربونه، لو كان جملاً لقتلوه». واثر السهر والقلق على صحتها، تحوَّلت الى شبح، لا تعرف للراحة طعماً. واذا كانت في البيت تشق الباب وتتطلع الى الشارع، لعل احداً يأتي ويقول لها كلمة، فإذا يئست جلست في الركن صامتة، لا تُكلِّم احداً. امَّا كلماتها وهي تنبه على الجميع ان يتركوا لها فتح الباب اذا دقَّه أحد، فقد حفظها الصغار وظلُّوا يرددونها فترة طويلة.

ويوماً بعد آخر بدأت تتعوّد، ولكن رافق العادة ذلك الغضب الذي يتحول الى ثورة لأبسط الأمور. كانت تصرخ في وجوه الصغار، تبعدهم عنها بغلظة، وتغضب اذا ضحكوا بصوت عالٍ، وتغضب اذا ضجوا ولعبوا. لم تعد تطيق ان ترى احداً يضحك، قالت لي مرة، لما رأتني أضحك:

- لم يبق إلاً أن تحنّي رجليك، مات رجب وعليك الآن ان تفرحي وترقصي!

ندمت كثيراً على تلك الضحكة حين رأيت أمي تبكي. ولم تكف عن البكاء إلاّ بعد فترة طويلة، وظلَّت أياماً لا تتكلم معي!

ظلت أمي هكذا، حتى كان يوم رجعت فيه وتغيَّرت تماماً. قالت وهي ما تزال في حوش الدار قبل ان تدخل.

ـ انيسة.. يا أنيسة، رجب عايش، رجب حي.

وحدَّثتني كيف ذهبت الى السجن، وظلَّت هناك ساعات طويلة، حتى اذا رأت ذلك الشرطي الذي يشبه ابن عمتي محمود، كما قالت، هجمت عليه، تريد ان تقبِّل قدميه، ورجته ان يساعدها فقط في معرفة ما اذا كان رجب داخل السجن. رقَّ قلبه وقال انه سيتأكد من ذلك حالما يعود الى السجن، في الثانية بعد الظهر. وانتظرت من الثامنة والنصف حتى الرابعة، وكانت اكبر بشرى في حياتها حين قال لها انه في السجن.

ظلَّت طوال الليل تكرّر القصة وكل مرة تضيف اليها تفاصيل جديدة، لكن القلق بدأ يساورها من جديد. ماذا لو كان يكذب عليها؟ ماذا لو كان في السجن شخص آخر بنفس الاسم؟ ماذا لو أخطأ في السؤال؟ كانت تريد ان تتأكّد، فكّرت طويلاً تلك الليلة، وقبل طلوع الشمس هيأت صرّة صغيرة وضعت فيها ملابس وبعض الأكل وذهبت!

وظلت تعود كل يوم وهي تحمل نفس الصرّة. كانت تبقي الملابس، اما الأكل فتخرجه، لتهييء غيره لليوم التالي.

رجب اكثر من أخ بالنسبة لي، رغم السنين العشر التي تفصلنا. أتذكره عندما كان طفلاً، وأتذكره، وهو معصوب الرأس، بعد المظاهرات. أتذكر ضحكاته وصرخاته وغضبه. لكن رجب

الذي يرقد في الغرفة المجاورة انسان آخر. كبر كثيراً في الشهور الأخيرة. لم أتصور الانسان يمكن أن يكبر بهذه السرعة، ولكني رأيته بعيني وهو يكبر كل اسبوع.

لما رأيته قبل شهرين تشبثت بالباب الحديدي وبدأت أبكي بصوت عال. تصورت اني لن اراه بعد ذلك. كانت عيناه تغوران في وجه معروق أصفر، كأنه قام لتوه من مرض خطير، وانه سيستأنف المرض، وبشكل اشد بعد ان أتركه. مددت يدي الى وجهه أتلمسه، ولم يفعل مثل المرات السابقة، ترك يدي ترتاح على وجهه، ولما رفع اليّ عينيه مرة أخرى رأيته كما لم أره من قبل.

كنت ألوم امي كثيراً، وأنا أراها كالنحلة تحوم في البيت والأزقة طوال النهار، كانت تقضي وقتها أمام باب السجن، وعندما تريد ان تستريح تذهب لأم سجين آخر وتبدآن معاً الندب والذكرى.
قلت لها مرة وبتحريض من حامد بعد ان ملّ الجو الكئيب:

ـ سافري عند عمّتي، هناك يمكن ان تستريحي!

نظرت إلي بمرارة ولم تجب أول الأمر، ولما رأيتها صامتة ونظراتها أقرب الى اللوم، قلت:

ـ رجب ليس أول رجل يسجن، ولن يكون الأخير، ولو عرف انك تفعلين هذا كل يوم لغضب.

صرخت وكان صوتها غاضباً وحزيناً:

ـ وماذا فعلت؟ هل سرقت؟ هل نهبت؟

ـ لا . . ولكن الدوران في الشوارع، ماذا يفيد ان تظلي هكذا؟

ـ اسمعي يا انيسة، لا تتدخلي في أموري ابداً، انا كبيرة وأعرف ماذا يجب ان أفعل!

ـ ولكن الناس يتكلمون

ـ عن أي شيء؟

ـ يقولون أم أسعد جنت، طوال الليل والنهار دايرة على كعبها.

ـ لم أقم بعمل مخجل ابداً.

ـ ابقي في البيت، ويوم الزيارة زوري رجب، وهذا هو الشيء المعقول.

ـ والشيء غير المعقول؟

ـ ان تكوني بهذا الشكل!

ـ سأظل بهذا الشكل مهما قال الناس واذا لم يعجبك ارحلي انت وزوجك!

وظللنا فترة لا نتكلم. جاء حامد ذات يوم، قلقاً مضطرباً، ولما ألححت في السؤال قال لي ان ثلاثة سجناء قتلوا، لأنهم حاولوا الفرار، وأضاف وهو يبتسم بحزن: هكذا كتبت الجريدة! كانت تأكل، كانت تجلس على الأرض وأمامها صحن معدني لم تغيره من وقت طويل، وقد وضعت قطعة اللحم جانباً على قطعة من الخبز، لعلها تأخذها لرجب. رغم اننا كنا في يوم الأربعاء، أي قبل الزيارة بيومين! لما رأتني توقفت عن الأكل، تطلعت اليَّ باستغراب، وتساؤل، رغم محاولتي ان أبدو هادئة. نحّت الصحن جانباً ونظرت اليَّ، وقبل ان تسألني قامت بحذر، حملت السلة ولم تنسَ ان تلتقط قطعة اللحم وتمضي!

وفي المساء ظلت ساعات طويلة تلح عليَّ لأقول لها ما سمعت. قلت لها كل شيء، وأكّدت ان الحادث وقع في السجن الصحراوي

البعيد، فلم تقتنع، وأيقظت حامد، بعد منتصف الليل والدموع في عينيها لتطلب منه الذهاب معها الى مدير الشرطة في تلك الساعة المتأخرة. وألحَّ عليها حامد كي تؤجّل الأمر إلى الصباح، ولما يئست فتحت باب البيت وجلست على العتبة حتى الصباح!

كنت أتصور ان ما تفعله أمي يسيء الينا كلنا، وإلى رجب بشكل خاص. كنت أعتبر موقف رجب خاطئاً منذ البداية. اذ ما فائدة العمل الذي يقوم به؟ وهل يستحق هذي السنين الطويلة التي يقضيها في السجن؟ وأمي، ماذا يجدي ان تذهب من بيت لآخر والسجناء في سجنهم بعد ان صدر عليهم الحكم؟

كنت أتصور الأمر خطأ، لكن ظلَّت تصوراتي تنام في صدري، لم أقلها لأحد، حتى حامد وهو يسخر من السياسة، كان يضطرني ان أدافع عن موقف رجب، وقد أدى ذلك الى خصومات كثيرة. أمَّا مع أمي فقد كان الأمر مختلفاً تماماً إذ أحسست ان كلمة واحدة او التفاتة تصدر عني، تسيء إلى رجب فإنَّ ذلك يمكن أن يدفعها الى الجنون. آخر مرة بعد صدور الحكم بشهور، قالت لي:

ـ اسمعي يا انيسة، اذا سمعت كلمة واحدة عن رجب فلن تراني عينك، سأرحل.

بعد وفاتها تغيَّر كل شيء. ندمت كثيراً على تلك الأفكار التي كانت تنطح رأسي بين فترة واخرى، وندمت أكثر على الكلمات التي قلتها، بل تصوّرت ان موقفي ساعد على موتها بهذه السرعة.

منذ ان ماتت، قرَّرت ان أكون لرجب أكثر من أخت. أصبحت أمه وأخته في نفس الوقت، وتحملت من اجل ذلك أكثر مما تحتمل امرأة في مثل سني. حتى حين كنت أسافر الى تلك القرية

الملعونة، على أطراف الصحراء، كنت أواجه احتمال الطلاق من حامد. وكنت لا أتكلم عن التصرفات التي أتعرض لها: بصقت في وجه اثنين من الشرطة عندما أسمعاني كلمات بذيئة، ونزعت حذائي اكثر من مرة وهدّدت المخبر بالضرب، اما الانتظار والجلوس على باب السجن، فقد تعودته تماماً وبدأت أجد لذة حين أسمع قصص الأمهات والزوجات عن الأبناء والأزواج، وأصبح لديّ شيء يمكن ان أرويه عن رجب!

بعد فترة من الزمن أصبحت بنظر النساء امرأة لها ميزة تفوق الكثيرات. كيف ان رجل حكم احدى عشرة سنة، وظل معلقاً سبعة أيام بلياليها في السقف، وانه تعرّض لعذاب لا يحتمله انسان. كانت النسوة يستمعن إليّ بخوف ممزوج بالاستغراب والتقدير، وكنت لا أمل أبداً من اعادة هذه القصص، التي كان لها ان تنهي بكاء امرأة عجوز، أو بنت صغيرة، بصورة خارقة. كنت أقول لهن: كل ما تسمعنه من الشرطة كذب، فالشرطة تقول هكذا كي تخيفنا، ولو صح ما يقولونه فإنَّ الرجال قادرون على الاحتمال اكثر مما نتصور، ماذا تظنن؟ أخي رجب اسماعيل، ظلَّ ثلاثة شهور وسبعة أيام في المنفردة. كان ينام ويأكل، دون أن يرى انساناً او يسمع صوت انسان، ليس هذا فقط، رأيته مباشرة بعد هذه الفترة كان أكثر شجاعة وأقوى من ذي قبل!

نفس القصص التي كانت تردّدها أمي بدأت أُردّدها، وكأني سمعتها من لسان رجب مباشرة، لم يقلها أحد، بل رأيتها بعيني وأصبحت مقتنعة بكل كلمة، وكانت النساء في أغلب الأحيان يسألنني عن أدق الأمور وأصعبها.

لكنني لم استطع ممارسة هذا الدور حتى النهاية. لما رأيت

رجب قبل شهرين مريضاً، ونوبات الاغماء تتكرر، وجدت نفسي أحارب نفسي أكثر مما أريد ان أحاربه. قال طبيب السجن، وهو من نفس قرية حامد:

- يجب ان تفعلوا شيئاً من اجله وبسرعة. اذا تأخرتم خسرتم الرجل!

لما قال لي حامد ذلك أصابني الخوف. تصورت ان رجب لن يموت فقط، وانما سينتهي معه كل شيء. اسودت الدنيا في عيني، وبدأت أحاول. نسيت كلمات أمي التي ظلّت ترددها لكل مَن يسألها، حتى قبل ان تموت بأيام قليلة.

قالت مرة لعمتي، وهما تتحاوران:

- ماذا تظنين يا حسيبة، رأس مال رجب شرفه، اذا فقده فَقَدَ كل شيء. ثم أنا أعرفه، الله يسلمه، عنيد ورأسه مثل الصوان.

قالت أمي هذه الكلمات عشرات المرات، كانت تردّدها لنفسها، حتى لو لم يسألها أحد، كانت تقولها أمامي وأمام حامد لكي نحارب تلك الأفكار التي تدور في رؤوسنا، حتى لو لم نقلها.

في يوم ماطر، عند أول المساء، دخلت مبللة ترتجف، ظننتها أول الأمر ترتجف من البرد، لكن ما كادت تجلس قريباً من النار، حتى خرج صوتها غاضباً:

- الله يقطع هذي الأم، هذه ليست أماً، هذه مزبلة، نكون جالسين بانتظار ان يسمحوا لنا او ان يأخذوا الأكل، وما ان يظهر آمر الحرس، ويبدأ ينادي على الأسماء، حتى تولول والدموع على خديها قناطير. قبل دقيقة كانت امرأة عاقلة، تحكي وتنتظر، لكن حين تدخل على ابنها تسبقها أصواتها، تبكي، تولول، تصرخ. هذه

الأم تقتل...

وتصمت أمي ريثما تجفف شعرها على طرف النارِ، بعد ان تفرده. تنظر اليّ لترى آثار كلماتها، ثم تتابع، وهي ترخي الجديلة الثانية وتقلبها:

ـ أم... ما أحقر مثل هذه الأم، اليوم خرج ابنها، خرج بعد ان اعترف على جماعته ووقع.

وتتطلع اليّ، كانت نظراتها تبدو حانقة، أكثر من كلماتها، وكنت أتصور ان أمي تقاوم قوة خفية، تعاودها بين فترة وأخرى على شكل خوف او رغبات غامضة. لكن كانت تخاف منا اكثر مما تخاف من نفسها.

نسيت كلمات أمي تماماً لما رأيت رجب ذلك اليوم. وعندما جاءت كلمات الطبيب، تصورت اني لن أراه مرة أخرى، وقررت ان اخترق مقاومته.

تقلب حامد، ضرب بيده طرف السرير، كأنّه يقاوم قوة تحاصره، لما استقر في الفراش من جديد، انتزعت نفسي، مشيت على أطراف أصابعي، حتى اذا اقتربت من باب غرفة رجب، انصت..

كان يقطع السكون صوت اسنان تصطك. رجب نائم اذن. أتذكر صريف الأسنان، تلك العادة التي لم يتخل عنها ابداً. كانت تسأله أمي ان كان قد رأى أحلاماً، كان يحاول ان يتذكر، وأغلب الأحيان لا يستطيع، حتى اذا سألها عن سبب سؤالها، أجابته وتلك الابتسامة تملأ وجهها:

ـ قلت لنفسي ستفتت أسنانك، وكان صوتها عالياً وهي تصطك.

تعوَّد رجب على السؤال. كان وجهه يتقلص وهو يحاول التذكر، لكنه لا يتذكر أو على الأقل، لم يكن يتحدث عن احلامه.

تطلعت الى الساعة الموضوعة على طرف الشباك، كان فسفورها يشع مثل حبات صغيرة راكضة. استغربت ان الساعة بلغت الثالثة والنصف. في السادسة يغادر رجب، يسافر، وقد لا أراه مرة أخرى.

لم يبق إلاً ثلاث ساعات، ساعتان، وتنتهي تلك الأيام التي كوَّنت حياتنا معاً. لم تكن حياة حلوة، كانت صعبة، ومع ذلك أحبها أكثر من أية أيام أخرى. خلال سجنه كنت انتظر الجمعة، وكأنّي طفلة صغيرة، ماذا انتظر بعد الآن؟

ان شيئاً في داخلنا تمزّق، أحسست بذلك ونحن نمد أيدينا الى الطعام في المساء الأول بعد ان خرج رجب من السجن.

كان الجو ثقيلاً. رجب صامت أغلب الوقت، لا ينظر إلى أحد، والمرح الذي حاول حامد أن يخلقه لم يجد على شفتي رجب إلاً ابتسامات شاحبة، كانت ابتسامات حزينة وتغيب بسرعة، ويحل مكانها صمت ثقيل، ينذر بأخطار كبيرة.

تجنبنا الحديث عن السجن. لم نسأله إلاً أسئلة عادية لا تثير ذكرى، وتجنب اكثر منا ان يتحدث. وفي كل المرات التي جلسنا فيها معاً، كان يحاول ان يظل صامتاً، لكن رغبتي في ان أخرجه من صمته دفعتني لأن أهذي وأتحدث في أمور كثيرة غير مترابطة. كان يسمع ولا يجيب. حتى اسئلته، كانت من ذلك النوع الذي لا أعرف كيف يتذكرها. الآن تبدو لي الأمور أكثر وضوحاً. كنت أجيب عن تساؤلاته الصغيرة بسرعة، لم أكن أتصور انها تعني اكثر من

تساؤلات.

سألني عن جارنا الأسود، قلت له مات. سألني عن تمام الخادمة العجوز، قلت له ماتت. سألني عن أم جعفر، قلت له انها ماتت قبل دخوله السجن، ولم يستغرب اجاباتي.

في وقت ما، وأنا أدور حوله ملهوفة وكأنني معصوبة العينين، أريد أن أفعل شيئاً، لإبعاد الكآبة الثقيلة التي تخيم على الدار، والتي سرت عدواها الى الأولاد، فأخذوا يلزمون الصمت أغلب الأحيان، أو يذهبون الى الخارج ليلعبوا، حاولت ان أذكره بأيام لعبه، وحين كنا في المدرسة... رأيته مرة واحدة يضحك ضحكة صغيرة فرحة، لكنه زمّها بسرعة، وبدا على وجهه ما يشبه الندم!

قبل ثلاثة أيام، وكنت أسير أمامه في الحديقة، خلف الدار، أريد ان أريه الأزهار الجديدة، وشجرة المانوليا التي كبرت، سألني دون تمهيد عن هدى!

ما زال الجرح في قلبه ينز. لم ينسها، ولم تغب عن فكره. كان سؤاله متلهفاً ومباشراً، قال لي وعيناه الى الأرض:

ـ ما أخبار هدى، يا انيسة؟ هل ترينها؟ ألم تسأل عنّي؟

حاولت كثيراً تجنّب كل ما يذكّره بها. لم أذكر عنها شيئاً، ولم أعطه بعد الرسالة التي تركتها، وأوصتني ألا يقرأها إلاّ بعد ان يترك السجن. قلت لنفسي، وأنا أحارب الأفكار التي تدفع بطيفها: «أصبحت الآن بعيدة، والأحسن ان ينساها، أمّا الرسالة فسوف أتصرف فيها بشكل ما».

أعرف هدى، كانت تريد ان توضح له شيئاً ما. قالت لي عندما أغلقت الرسالة ودفعتها إليّ مع تلك الدمعة الراجية «احفظي

سري». ولم أشأ إلا احترام هذه الرغبة، كنت أريد في ذلك الوقت أن أترك لرجب ذكرى مضيئة، أمّا الآن، وأنا أراه حزيناً لهذه الدرجة، فقد تصورت ان قراءة مثل هذه الرسالة قد تتعبه، وتولد في نفسه احزاناً جديدة، وصمّمت أن أكتم أمرها.

قلت له، وأنا لا أزال أسير أمامه وعيناي تتيهان في الأفق البعيد، أحاول ان أتخيلها بالصورة التي يحبها رجب:

- لن أقول لك، هذه المرة، ان هدى ماتت، لا، انها لا تزال حية. وبيتها لا يبعد كثيراً من هنا، ولكن هدى تغيَّرت، تغيَّرت كثيراً. أصبحت الآن سمينة، أسمن مما تتصوّر، وتذهب إلى حفلات الاستقبال، وتتحدث بمناسبة وبدون مناسبة عن زوجها!

- ألم تسأل عنّي أبداً يا أنيسة؟

- في البداية كانت تسأل، لكن منذ سنة، او أكثر، لم أرها إلاَّ مرة او مرتين.. ولم تسألني...

وأضفت وأنا أحاول تخفيف اثر كلماتي:

- عندما رأيتها لم تكن وحيدة، ولم أستطع أن أراها على انفراد، ربما كان هذا هو السبب الذي منعها من السؤال!

ظل صامتاً يسير. لا أعرف عالم الرجال إلاَّ من خلال رجب وحامد! وحتى هذا العالم، لا يبدو لي واحداً أو متشابهاً. وحين أتذكر هدى الآن، أتصور انها حاولت كثيراً. كانت تبكي. كانت تقضي عندنا ساعات طويلة، ولا تفعل شيئاً إلاَّ البكاء. سألتني مثل طفلة صغيرة: «هل أهرب يا انيسة؟ لا أطيق أن أتزوج غير رجب». لكن رجب كان بعيداً ومستحيلاً، وأهلها كانوا يلاحقونها ويحاصرونها، ولم تكن تستطيع ان تتخلص.

حاربت شبحها، عندما كان يسألني عنها وهو سجين. قلت له أشياء لم تحصل، ولكن ماذا أستطيع؟

ومع الأيام تغيَّرت هدى. تغيَّرت فعلاً هذه المرة. لم تعد تسأل، لم تعد تبكي، خلقت لنفسها عالماً جديداً، وبدأت تصبح جزءاً منه. أمَّا الرسالة التي تركتها لرجب، فقد حاولت بعد سنة من زواجها ان تستردها. ألحت كثيراً، رجتني ودموع الخوف تملأ عينيها، قالت ان زوجها سيقتلها لو عرف بذلك. وحين قلت لها اني أحرقت أوراق رجب كلها، وأول ما أحرقت رسالتها، بدت غاضبة وشاكة، وكانت كلماتي تلومها أكثر مما تقنعها، وأنا أقول: كل العالم القديم احترق ولا أريد ان نتحدث عن الأمر من جديد!

قلت لرجب، وأنا امسك بيده لكي اكتشف عالمه الداخلي:

ـ أمي زرعت لك هذه الشجرة، زرعتها بعد شهرين من سجنك.

قال بتساؤل لذيذ:

ـ شجرة حور!

ـ نعم شجرة حور، وقالت عندما يخرج رجب من السجن سيكون كبيراً شامخاً مثلها!

ولأول مرة رأيت وجه رجب يتقلص من الألم، ثم تركني بسرعة. ارتكى على حائط الدار باستسلام يائس، وبعد لحظة صمت مدمرة بكى. كان بكاء متوجعاً، أقرب الى النشيج.

تراءى لي في فترة من الزمن ان الحديقة التي حدّثته عنها حين كان سجيناً، ستخلق في نفسه الفرح، ولكنني الآن وأنا أشير الى الأشجار وأحدثه عنها تصوّرت انني أقتله.

تركته يبكي. لم أفهم أول الأمر. ظننت ان ذكرى أمّي هي التي دفعته لهذا البكاء، لكن لما استعدت الكلمات وجدتها حادة، نازفة بالمرارة. .

قبل ان ينتهي ذلك اليوم، رأيت رجب والعرق المريض يغسله تماماً، كان يحاول قطع الشجرة، وبعد ان تعب، عاونه حامد. لم نسأله سبباً، ولم نحتج على ما يفعله، تركنا له ان يتصرف دون كلمة احتجاج واحدة، اما حامد، فقد قلت وأنا أقنعه بالحاح لكي يساعده:

ـ بعض الناس يتوهمون خصومهم بالأشياء المادية. رجب يتصور هذه الشجرة عدواً. لا نريد ان نناقشه، المهم ان تساعده!

ساعده حامد بصمت. ظلاً يعملان معاً، وعندما هوت الشجرة، تداعى جزء من السور. وفي محاولة يائسة، للاعتذار، قال رجب بطريقة مرتبكة:

ـ سأبني غداً هذا السور بنفسي.

فرحت عندما سقطت الشجرة، أمّا حامد فقد أغرق بالضحك بعد ان استراح، وأخذ ينظر الى رجب تلك النظرة التي تمتلىء بالمودة، وكانت ابتسامة ظافرة على وجهه عندما قال له:

ـ مثلما قرأنا في القصص. . . هذه الشجرة هي رمز للماضي، والآن بعد ان انتهت وسقطت سقط معها الماضي وانتهى، ماذا تقول يا رجب؟

قال رجب بكلمات بطيئة أقرب الى الغموض:

ـ هذا النوع من الأشجار، النوع الضامر، الطويل، يولد في نفسي حزناً، ومن أيام بعيدة وأنا أكره الحور والسرو، انها اشجار

كثيبة!

حاول حامد ان يتحدث عن الأشجار، عن الماضي، لكن رجب الصامت اول الأمر، ثم الذي نهض فجأة وبشكل عصبي، جعله يتوقف، وكأنَّه احس بخطئه!

بعد ذلك اليوم، ظلَّ رجب في غرفته، لم يغادرها إلاَّ قليلاً. أمَّا السور الذي قال انه سيبنيه، فقد طلب منِّي في صباح اليوم التالي ان أفتِّش عن رجل ليقوم بهذا العمل، تقبلت الأمر بهدوء، ولم أكن لأحتج على أي تصرف. كنت أريده ان يفعل ما يريحه، فلو بناه لما قلت كلمة واحدة، والآن وهو يسألني أن أُفتّش عمن يبنيه قلت وأنا أتظاهر بالمرح:

ـ أنت تهدم وحامد يبني! وحتى اذا لم يبنه حامد، فسوف نفتح للحديقة باباً آخر.

وهزَّ كتفيه دلالة الاستخفاف، وعاد إلى غرفته، وأغلق الباب وراءه!

الآن، مرة أخرى نسير في الحديقة، ورجب يسألني عن هدى. ماذا أقول له غير هذه الكلمات الميتة؟ ان هدى في ذاكرته هي تلك المرأة التي تقفز مثل غزال، تضحك، تغنِّي، وبعض الأحيان يحمر وجهها من الانفعال، اذا اختلفت معه حول أمر من أمور السياسة، التي لم تكن تفقه منها إلاَّ القليل!

رفع حامد رأسه في الظلمة. كان يريد ان يتأكد ان كنت قد نمت، أغمضت عيني بسرعة، ثم بعد برهة صغيرة، وكرد فعل لحركته، استدرت الى الناحية الثانية، وتظاهرت بالنوم!

ربما تجاوزت الآن الرابعة. سيضيء رجب النور، قال لي في

الليلة الماضية ونحن نطلب اليه أن ينام مبكراً:

- سأضع الأشياء التي استعملها في الحقيبة الصغيرة، سأرتبها بنفسي لأعرف مكانها.

وحاول أن يغيّر لهجته ليدخل الطمأنينة الى نفسي، تابع وهو يضرب كتفي بمودة:

- سأنهض مبكراً لأحلق وأرتّب الأشياء.

سينهض رجب. ربما نهض الآن، لم يضيء النور، لكن لا يمكن ان يستمر نائماً.

في الأيام الماضية راقبته بدقة، كان ينهض مبكراً، ولا أعرف أين يذهب، خفت كثيراً لما رأيته في اليوم الثاني يخرج وتعمدت أن أنتظره.

يا إلهي كم تغيَّر رجب، لم يعد ذاك الذي أعرفه، الذي عشت معه. انه الآن انسان آخر. هل مات رجب ذاك؟ هل تركه في السجن؟ والانسان، هل يمكن ان يتغير بهذا المقدار؟ الصوت المشبع بالثقة والمودة، تراجع ليحل مكانه صوت هامس يخنقه البلغم والسعال، العيون الضاحكة، التي كانت تسميها أمي عيون اللصوص، انطفأت تماماً، عيونه الآن مثل مرايا مجللة بالبخار، لا ترى ابداً، تتطلع، لكن لا ترى. آه لو تركني رجب أتطلع الى جسده. هل يمكن أن يتغير الجسد ايضاً؟

قلت له والأطياف والأفكار تتراكض في رأسي بسرعة مجنونة:

- السجن غيّرك؟

- لا . . لم أتغيّر، واذا تغيّرت، فنحو الأحسن!

- السجن يغير الانسان إلى الأسوأ، ألا ترى كم كبرت؟ كم

تعبت!

ولكن لم أعد أعتمد على أحد، تعلمت أشياء كثيرة. غسيل الملابس، الصحون، ولا تستغربي يا انيسة اذا قلت اني أصبحت اشطر من امرأة في خياطة الأزرار والرقع.

ـ وتعلمت أن تغتسل وحدك؟

ـ في البداية كنت أحك ظهري بالجدار، لكن تعلمت ان أمسك الليفة من الناحيتين وأفرك.

لو أرى جسده لأتأكد من الجروح في الساقين، والكتف، ألا تزال جراحك التي أتذكرها في مكانها؟ ألم تتغير؟

لا يريدني ان أرى جسده كي لا أكتشف الآثار التي قالوا انها في أجساد السجناء مثل الخرائط، ولكن ألا تتغير تلك الآثار؟ سمعت قصصاً كثيرة عن السجناء الذين يفاخرون وهم يشيرون الى آثار التعذيب: الورم في الأرجل، العلامات الزرقاء على الظهور، كانوا ينظرون الى العلامات بدهشة يمازجها الشعور باللذة، كأنهم يكتشفونها لأول مرة. نظرت الى جسد رجب قبل أيام، كان يمد ذراعه في كم القميص، تقدمت منه دون ان أشعر، ووضعت أصبعي على كتفه قريباً من الصدر، أتحسّس نتوءاً متورماً.. رفع ذراعه بسرعة، يريد ان ينتهي من ارتداء قميصه، ولما رأى السؤال في عيني قال:

ـ لا تظنّي ان كل شيء من السجن، هذا مكان الجرح عندما سقطت عن شجرة الجوز. ألا تتذكرين؟

أتذكر ان ذراعه كسرت، ولكن لا أتذكر ورماً او علامة، وحتى لا يترك الفرصة لأسأله قال:

ـ لا يتركون علامات، ولا يحبون ان يكون السجين مشوهاً، حتى لو اعترف فإنّهم يحتفظون به الى ان يشفى!

ـ هل ضربوك كثيراً يا رجب؟

وبعصبية رد، كأنَّه فوجيء بالسؤال، ولا يطيق ان يتحدث:

ـ لا.

ـ والأخبار التي سمعناها؟

ـ كذب.. كلها كذب.

لم أستطع ان أصدقه، تمنيت لو أرى جسده، لو رأيته بنظرة خاطفة، اقرأ فيه كل شيء: الآثار، التغيرات، الكبر، ولكن رجب يعتبر جسده، منذ وقت بعيد، سراً، ولا يبيح لأحد ان ينظر اليه. أتذكر عندما سمع قصة ذلك الرجل الذي سكن بعيداً من بيت خالتي، والذي كان يحلو له ان يتعرى من أغلب ملابسه ويصعد الى السطح، عندما سمع رجب أن أولاد الحي ضربوه وأرغموه على ان يترك البيت، قال لأمي وهي تتحدث عنه:

ـ الحيوانات تقرف من النظر اليه، ماذا يظن؟ هل يتصور ان النساء يتراكضن عليه ويرتمين تحت أقدامه؟

ولم يعلق أحد على تلك القصة، لكن رجب قال لمنعم، ابن خالتي، بعد أيام وهو يسأله عن الرجل:

ـ لو كنت مكانك، لأركبته حماراً بالمقلوب وجعلته يسير في الشوارع! ألا يخجل من كرشه؟ من مؤخّرته التي تزيد عن خنزير؟

ان شيئاً في جسد رجب يسبِّب له الخوف، لست متأكدة، لكن لما سألت حامد عن شبابه وحاولت أن أُقارن، تبيَّن لي ان الاثنين يختلفان، فحامد لا ينسى ابداً القصص التي تؤكِّد قوته، كان يكررها

بلا ملل: «ثلاثة كانوا.. وكنت وحيداً لم يكن معي سلاح، لكن تظاهرت ان شيئاً في جيبي، ضربت الأول فسقط على الأرض، ضربت الثاني على وجهه، وسال منه الدم، وبعد الضربة الثانية كانت اثنتان من أسنانه الأمامية في فمه وعندما بصق الدم، سقطت إلى الأرض.. اما الثالث فقد بقي متفرجاً أول الأمر، ثم هرب».

سمعت هذه القصة من حامد عدة مرات، وسمعت غيرها. رجب لا يحب ان يمتحن جسده. كان يعتمد على خفته، ومهمته ان يبدي براعته في أمور يتصور ان الآخرين لا يستطيعونها. كان ماهراً بالكرة، بالركض، أمَّا جسده فأقرب إلى الضمور، وظلَّ كذلك في فترة طويلة، حتى حين أصبح كبيراً، وبدأ يعود من المظاهرات دامي الوجه، متورم الشفة، فإنَّني أعتقد انه كان يعتمد على براعته أكثر مما يعتمد على قوته!

قلت أول أمس وأنا أضع في صحنه قطعة اخرى من الدجاج:

ـ عادل يأكل اكثر منك، لماذا لا تأكل؟

رد عليَّ بكلمات غاضبة، وهو يضرب على بطنه دلالة الشبع:

ـ اصبح الأكل مضجراً بالنسبة لي. ومع ذلك أكلت كثيراً!

ربما يريد ان يعذب نفسه بشكل ما. بدأت أعتاد عليه من جديد، لكن رجب لم يعد ذاك الذي أعرفه. بعد ساعة يرحل، وهناك، مَن سيعد له طعامه؟ وهل سيأكل؟ انه الآن معنا ويهرب من الأكل، ماذا سيفعل اذا ظلَّ وحيداً؟ لن أنسى ان أكتب اليه، سأوصيه دائماً ان يهتم بصحته، لقد أفسده السجن اللعين، وهو الآن بحاجة الى عناية زائدة، لكي يعوض السنين الخمس التي لم يأكل خلالها مرة واحدة مثل انسان! لقد قال ان أكل السجن لذيذ، لا

أصدّق ابداً، عندما رأى وجهي ساخراً قال بإصرار:

ـ الجوع أحسن معلم. قبل السجن كان لي مزاج خاص: هذا طيب، هذا أحبه، هذا لا أحبه. في السجن كنت آكل أي شيء، ولكي لا أعلّق، قال:

ـ حشو مصران، المهم ان يأكل أي شيء، فقط لكي لا يجوع، ومع ذلك كان الأكل لذيذاً.

والنوم.. هل استيقظ رجب؟ بقيت له ساعة، ويرحل، ان النوم عدوه في هذه الأيام. لا أعرف متى ينام ومتى يستيقظ؟ كان الضوء يلعب في انحاء الغرفة أغلب الساعات، ولما سمعت اقدامه عند الفجر، في اليوم الثالث بعد الخروج من السجن، استغربت كثيراً. أتذكر أنّي رأيت ضوء غرفته بعد ان استيقظت للمرة الثانية، تلك الليلة. كان النوم يطفو على عيني بلذة، ظننته أول الأمر قام ليشرب، وأنّه سيعود، لكن لما سمعت الباب الخارجي يغلق وراءه اضطربت. أين يذهب في مثل هذه الساعة المبكرة؟ تركته، ولم أسأله في اليوم الأول، لكن عندما سمعت الباب في اليوم التالي، وفي نفس الموعد، تقريباً، قلت في نفسي: رجب يعرض نفسه لمخاطرة جديدة.

انتظرته حتى عاد. تظاهرت اني لم أسمعه عندما ذهب، ابديت دهشة كبيرة وأنا أراه يدخل. فتح الباب بهدوء وانزلق، لما رآني أمامه تراجع وبدت في وجهه آثار غضب وحيرة.

قلت له وأنا أضغط على الكلمات لكي أجعل لها وقعاً متشجعاً:

ـ خرجت الى الهواء لكي تحارب الأرق، يبدو انك لم تتعود على الحياة الجديدة!

قال باضطراب:

ـ نمت مبكراً، ولم أستطع البقاء في الفراش اكثر، فخرجت؟

ـ تعودتم ان تستيقظوا مبكرين؟

ـ ليس قبل السادسة!

ـ ولكن الساعة الآن أقل، كم الساعة الآن؟

قال وهو يتجه الى غرفته، لكي أكف عن الثرثرة:

ـ حوالى السادسة، ربما اكثر قليلاً!

ـ هل أصنع لك قهوة يا رجب أم تريد ان تنام ثانية؟

ـ سأنام!

رجب يفعل أشياء غامضة، الى أين خرج؟ ماذا فعل؟ أريد أن أعرف، لكن لو أحسَّ أنّي اراقبه، لو سألته، فإنَّه لن يرحب بمثل هذه الأسئلة، ولن يغفر لي! لم تتغير عاداته في السجن، والأسئلة تولد في نفسه مرارة، لا تلبث ان تصبح عصبية متهورة.

كان يقول لأمي إذا سألته:

ـ اذا كنت تحبينني فلا تسألي. أصبحت كبيراً وأعرف كيف اتصرف، لا تخافي أبداً!

وعندما تحاول أن تتوسل إليه، أو تشعره بأنها لم تستطع النوم، لأنها قلقة وخائفة، كان يقول:

ـ نامي، واذا جئت ولم أرك نائمة، فسوف أتأخر أكثر. سأنام خارج البيت.

حاولت معه مرات كثيرة، ولما فشلت، تركته. ونفس الأمر حصل بالنسبة لما يقوم به من أعمال. لم تتجرأ أن تسأله، بعد تلك

الليلة التي ردَّ عليها بطريقة جعلتها عصبية أول الأمر ثم ذهبت الى فراشها وأخذت تبكي! قالت له مرة:

ـ يا بني لو تترك السياسة، أنت ترى بعينيك كيف أخذوا ابن النداوي، كيف حبسوا مجدي، ماذا تفيد السياسة يا بني؟

قال لها بغضب:

ـ هذه قضايا أكبر منك فلا تتدخلي، أنا كبير وأعرف كيف أتصرف.

ـ ولكن ترى بعينيك؟

ـ ماذا أرى؟

ـ كل يوم يحبسون واحداً، كل يوم يقتلون واحداً، ماذا أفعل اذا حبسوك؟ اذا قتلوك؟

ـ اطمئني اذا حبسوا فسوف يحبسونني فقط، اما انت فلن يقتربوا منك!

ـ وهل تتصور أنّي احتمل الحياة يوماً واحداً بعد أن يحبسوك؟

ـ لماذا لا تحتملين؟

ـ أموت، أقتل نفسي؟

ـ ما شاء الله، كنت أظن أن لي أُماً أقوى من الرجال، كنت أتصور أنّي اذا ذهبت الى السجن، أذهب وأنا واثق، وأنا مطمئن، لا دموع ولا صراخ، انت الآن وقبل ان أُسجن تهدّدين، تريدين أن تجعلي مني امرأة؟ ان أتحول الى رجل مخصي؟

لا أعرف ما الذي دفعني لأن أتدخل. لو ظلت المناقشة بينهما لانتهت دون نتائج. لكن عندما قلت لأُمّي بلهجة باردة، أقرب إلى

التأنيب، ان تكف عن التدخل في شؤونه، ردت عليَّ بعصبية:

- انت لست أُمًّا ولا تعرفين شعور الأمهات، اذا سجن فلن تركضي في الشوارع، ولن تسهري الليل. ماذا أستطيع ان أفعل؟

قلت لها بنفس اللهجة:

- رجب أمامك الآن، وقبل ان يُسجن يجب ألاَّ تتحدثي عن السجن.

- بعدما يموت تريدين أن أوصيه؟

قال رجب بعصبية كي ينهي المناقشة:

- اتركوا الموضوع، واذا سُجنت فأنا أتحمّل النتائج!

- لكن يا ابني أنا أُم وأنت تعرف قلب الام.

- اذا كانت كل أُم تقول الكلمات التي تقولينها فلن يتحرك أحد، وسوف نموت في المزابل.

- ولكنك تعرّض نفسك للهلاك يا ابني.

- انا كبير وأعرف ما يجب أن أفعل!

قلت وأنا أفهم رجب، وأريده أن يهدأ:

- أمي.. اتركيه كما يشاء.

- الى الجحيم، ليفعل ما يشاء، وأنا لن أتدخّل ولا شأن لي!

قال رجب غاضباً:

- اذهب الى جهنم ولا أريد أن يذهب معي أحد!

- لو كان أبوك حياً ورآك بهذا الشكل، تُعرّض نفسك للخطر، لعرف كيف يربيك!

- الحمد لله انه ميت، وحتى لو لم يكن ميتاً، فأنا أعرف كيف

أتصرف.

- هل تقول شيئاً اذا منعك من العمل في السياسة؟

- ربما لن يمنعني. راح ذاك الوقت الذي كان يستطيع فيه أحد أن يمنعني!

- يا ابني يجب ان تسمع كلمتي.

- أنت خرقة ولا تعرفين شيئاً.

قالت بعصبية جامحة، وكأن الجرح الذي أصابها لم يترك لها فرصة لكي تفكر بهدوء:

- مائة جهنم، وأكون مجنونة اذا سألت عنك!

- مائة جهنم، وأنا لا أريد من أحد أن يسأل عنّي!

ذهبت غاضبة الى فراشها، لكن ما كادت تستقر في الفراش، حتى بدأت تبكي، كان بكاؤها هادئاً اول الأمر، ثم تحوَّل الى نشيج، ولم يفعل رجب شيئاً. ذهبت اليها، وظللت أتكلم معها ساعة، قلت لها أشياء كثيرة، ولم ترد عليّ بكلمة واحدة، حتى اذا هدأت، نامت دون أن تبدّل ملابسها!

منذ ذلك الوقت تجنبت سؤال رجب عن أشياء كثيرة. كنت أحاول أن أضعه في جو معين كي يتكلم، فإذا تكلم وحده، أو تهيأ، أدفعه تدريجياً لما أريد، وأغلب الأحيان أرى على وجهه ما يشبه الندم، اذا تحدَّث في أمور لا يجدر ان يقولها لإمرأة أو لانسان غريب!

ومنذ ذلك الوقت، عرفت ان رجب لا يضيق بالأسئلة فقط بل يكرهها، وتدفعه لأن يتصرف بقسوة ليست من طبيعته.

سأل جارنا ذات يوم، وكان جاراً جديداً، ظلَّ يسكن بالقرب

منا الى ان ماتت زوجته في السنة الماضية، وكان يكبر رجب بقليل. سأله حين كان يزورنا لأول مرة عن أصل العائلة، وعن عدد أفرادها وعن مصدر دخلها. أجاب رجب عن اسئلته بضيق، حتى اذا سأله عن مساحة الأرض التي نملكها في القرية، وما اذا كنا نستثمرها مباشرة او عن طريق أقاربنا، نظر اليه رجب نظرة حائرة وقاسية وسمعته يقول بعصبية:

- لي أخت واحدة ومتزوجة، وأنا لا أريد أن أتزوج في الوقت الحاضر!

فلما استغرب الرجل، وبدت على وجهه علامات التساؤل والحيرة، قال له رجب:

- يا سيدي، لا حاجة لمثل هذه الأسئلة، وأعتقد ان احداً لا يسألها إلاَّ اذا كان يريد ان يصاهر!

حاول الرجل ان يعتذر، لكن ظلَّ هذا اللقاء مطبوعاً في ذاكرة رجب، كذكرى حزينة تثير في نفسه الكراهية، ولم يجد كلمات كثيرة يقولها لأمي، حين ألحّت عليه أن يرد الزيارة لجارنا، قال لها بحزم:

- لا أريد زيارته، أمَّا التحقيق فسوف يأتي دوره، لا تخافي!

ولما استغربت أمي ردّه، قلت لها بعد أن خرج كيف ان ذلك الجار أثار رجب بالأسئلة.

وصمتت أمي دون أن تقول شيئاً!

يجب أن استيقظ، سأتذكر كل شيء عن رجب فيما بعد، الآن أريد ان أراه، ان أتملى من وجهه في الساعة الأخيرة، قد لا يعود، وحتى لو عاد فلن يكون ذلك في وقت قريب.

لما دفعت الباب بهدوء، رأيت رجب ينحني فوق الحقيبة

الصغيرة. تقدمت على أطراف أصابعي لكي لا يراني، حتى اذا أصبحت قريبة جداً، رأيته يضع مجموعة من الأوراق!

أتذكر الدفتر الأسود، وهذه الأوراق اللعينة. خفت وتصورت ان الغضب سينفجر دفعة واحدة، وسيغرقنا في بحر من الحقد الأصم. انها نفس الأوراق، نفس الدفتر، لقد أعطاها لأمي، وكان شديد الحرص على ان يبقيها سرية، وبعيدة، بحيث لا تصلها يد. أتذكر ان صمتاً مرتاباً كان يخيم على الغرفة، في ذلك اليوم، رأيت أمي تجفل وتضع الأوراق بسرعة تحت الفراش حين دخلت، تراجعت وأنا أتظاهر أنّي لم أر شيئاً، وقبل أن تموت أمي، قالت، وهي تشير إلى المدخنة، في الغرفة العليا، الصغيرة:

ـ انيسة، امانتي الوحيدة ان تحفظي هذه الأوراق لرجب، لا أعرف ما فيها لكنه ائتمنني عليها كثيراً.

لم أجب. ظلّت الأوراق في مكانها فترة طويلة، لكن الشيطان الثاوي في قلب كل انسان، ارتعش ذات يوم في قلبي، ولا أعرف كيف امتدت يدي إلى الأوراق.

لا أستطيع ان اقول كل شيء، لأنّي لم أقرأها كلها، وحتى لو قرأتها، فربما كان من المضني ان أتكلم. لم تكن أوراقاً خطيرة، ولا تعني احداً غير رجب، ولو وقعت في يد أي انسان فلن يجد فيها ما يجده رجب. انها دون كلمات كبيرة، عالمه الصغير، أفكاره، أحلامه، حبه وجنونه، وفيها بعض الشتائم، هذا ما أريد أن أتذكره.

لما رآني ارتجف، نظر إليَّ بحقد، كأنه يرتكب عملاً فظيعاً، ولكي أبعد أفكاره وأوحي له بالثقة قلت:

ـ أأصنع القهوة الآن أو بعد أن تحلق؟

رد وابتسامة شاحبة تتخلل كلماته:

ـ لا يهم. . الآن أو في أي وقت.

ـ وهل انتهيت من ترتيب أغراضك؟

ـ تقريباً!

ـ ألم تنس شيئاً؟ حاول أن تتذكر.

ودون أن يحاول، قال بعصبية:

ـ لم أنس شيئاً.

ارتمى على مقعد قريب. دفع الحقيبة برجله لكي يبعدها، قال لي وهو يمد اليَّ سيجارة:

ـ أتتذكرين ما كانت تقول أمي عن السيجارة الأولى!

هزرت رأسي دون أن أُجيب، كنت أريده ان يقول، لأنه يتذكر أمي من جوانب لم أستطع ابداً أن أتذكرها، فلما رآني صامتة، قال:

ـ «السيجارة الأولى سم، أقوى من السم، ضع سيجارة في ماء واتركها حتى تحلَّ، وانظر الى لون الماء بعد ذلك، انه اصفر قاتم، هذا هو السم». اما كيف عرفت السم، مَن قال لها ان لونه هكذا، فلم تجب أبداً. كانت تردد هذه القصة كلما رأتني أُدخن قبل الأكل، وكانت تحاول ان تسرق مني السيجارة، تركض لكي تعطيني شيئاً آكله، أتتذكرين ذلك؟

هززت رأسي. ورأيت ملامح وجهه تعتكر وتتداخل، حتى لتصبح قاسية، قال: .

ـ لذلك سأدخن وحدي، لن أعطيك سيجارة مثلما فعلت في

الليلة الماضية.

قلت وأنا أحاول تقليد أمي لأدخل على قلبه بهجة الذكرى في الساعة الأخيرة:

ـ وكيف تدخن قبل أن تأكل يا رجب؟ ألا تعرف ان السيجارة الأولى سم، أقوى من السم؟

ـ السجن يعوّدا والسيجارة الأولى الآن تجعل لحلقي استمرار طعم المرارة، التي احتاجها.

ـ لماذا تقول هذا يا رجب؟

ـ وهل ما قلته شيء سيّء؟

ـ تغيّرت حتى طريقتك في الكلام!

سحب عدة أنفاس، وهو غارق في ذكريات بعيدة ومتناقضة، هذا ما أحسسته من حركاته العصبية ومن وجهه الذي كان يتغير في كل لحظة، وكأنّه يصارع قوى عديدة. فجأة، رأيته يعتدل في جلسته، يسحب قدمه التي كانت مثل مخلوق زائد في ارض الغرفة، ويقول:

ـ ما زلت حائراً يا أنيسة، هذا الدفتر الذي تركته عند أمي، والذي أخذته منك، وأشار إلى الحقيبة، لا أعرف إن كان يجب أن آخذه معي، أم أحرقه قبل السفر. اذا أخذته قد يفتشونني ويجدونه، وهذا فضيحة جديدة، فضيحة من نوع آخر: رجب عاشق، رجب يكتب اشعاراً، رجب يحلم. سوف ينشرون كل شيء كي يضحك عليّ الجميع، خاصة أصدقائي، وقد تصل الجريدة إلى السجن: إلى عصمت وأحمد. . والآخرين، سوف تتأكّد كل الأفكار التي قالوها عني. واذا لم آخذه معي، واذا أحرقته، قد أندم، فيه بقايا أشياء

أريد أن أحتفظ بها كذكرى.

كان يتدفق وهو يتكلم، كأنَّه يتحدث إلى نفسه، لم يكن يرى أحداً، ولم يكن يسألني، كانت كلماته محاولة أخيرة لإقناع نفسه. قلت:

- اتركه عندي يا رجب، وعندما تعود سوف تتصرف به كيفما تشاء.

- ولكني أحبه يا أنيسة، وقد فكّرت فيه كثيراً وأنا سجين.

- أعتقد انك قرأته في هذه الأيام، وتذكرت كل ما فيه، ولا حاجة لأن تُعرّض نفسك لأخطار جديدة، أليس من الأفضل أن تتركه؟

- قد يكون من الأفضل ان أحرقه، ماذا تقولين؟

- اتركه عندي الآن. سأضعه في مكان أمين، ولن تمتد اليه يد حتى تعودا

- قولي لي الصدق يا انيسة، هل قرأت هذه الأوراق؟

كيف أجيبه؟ هل أقول اني قرأت بعض الصفحات؟ هل أنكر؟ لا أستطيع ان أقول كلمة ولا أندم عليها. اذا قلت قرأتها فسوف يغضب، أتذكر صمته عندما دخلت عليهما، حين أعطاه لأمي. اذا قلت لم أقرأها، فلن يصدّقني، ستفضحني عيوني. انه يسأل بعض الأحيان بعينيه، تكون عيناه مركزتين عليّ تماماً، وبشكل مدمر يرى ما يجول في رأسي من أفكار، حتى لو لم أقل كلمة واحدة. قلت وأنا أغامر بكل شيء:

- قرأت بعض الأوراق يا رجب، لأني خفت من الشرطة، خفت أنه اذا جرى تفتيش جديد وعثروا على الأوراق، ان يخلقوا

لك المتاعب، قرأت لكي أتأكد ان هذه الأوراق لا علاقة لها بالسياسة!

ـ وأي شيء قرأت؟

أمسكت يديه بكلتا يدي، أحاول ان أقنعه ليصدق، قلت:

ـ صدّقني يا رجب إنّي لا أتذكر، كنت أريد أن أعرف فقط.

ـ وأي شيء عرفت؟

قلت ضاحكة وأنا أهزّه لكي يقوم:

ـ لن أفشي أسرارك لأحد، تأكّد من هذا تماماً.

ـ حتى لو ضربوك؟

ـ حتى لو ضربوني.

ـ لو استعملوا الكهرباء؟

ـ لو استعملوا أي شيء.

ـ تكذبين.

ـ أكذب؟

ـ نعم تكذبين. الانسان يقول انه لن يقول شيئاً، اما اذا بدأوا يضربونه، اذا استعملوا أساليبهم، فإنّه سيقرر في تلك اللحظات. وكيف يقرّر؟ ان جسده هو الذي يقرّر، الارادة في تلك اللحظات تموت، تخبو، والجسد وحده هو الذي يفعل كل شيء!

ـ وهل تحملت كثيراً قبل أن تقول يا رجب؟

بصق على الأرض، وقام.

كنت أتمنى لو تكلم، لو قال شيئاً فإنّ صورة رجب ستبدو أكثر وضوحاً بالنسبة لي، ولكنه الآن يرحل، وترحل معه أسراره، هل

قال رجب شيئاً؟ هل تحمّل كثيراً قبل أن يقول؟

ماذا كان شعوره بعد ان رآهم يعيدون عليه الكلمات التي قالها جسده، وهو يتلوى تحت كلماتهم وكرابيجهم؟

كان من الواجب ان أرغم رجب على ان يقول شيئاً، لكن يبدو هذا مستحيلاً الآن. لماذا لم أسأله في الأيام الماضية؟ لماذا تركته وراء الستائر في غرفته العجوز يعلك ذكرياته وحده؟ ان الانسان مهما كان قوياً، لا يعادل ذبابة اذا كان وحيداً! رجب كان وحيداً، هو الذي اختار ان يكون كذلك، لكن لماذا يختار ويقرّر وحده؟

والأوراق.. والدفاتر، أأتركهما له؟ أأحتفظ بهذه الذكرى وأبيح لنفسي كل الحق في أن أقرأ الكلمات وأتذكر رجب عندما كتبها؟

رأيته وهو ينهض ويضرب الحقيبة بحقد، ربما كان يضرب الأوراق، الماضي، لحظات تعبة! قلت وأنا أحاول أن أعيده:

ـ ماذا قلت. هل ستترك الأوراق أو تأخذها معك؟

ـ لا أعرف، قبل أن أغادر البيت بدقيقة واحدة سأُقرّر!

ـ الأفضل أن تقرّر هذه اللحظة، ونحن الآن وحدنا، أما اذا كان معنا حامد والأولاد فقد يكون صعباً ان تترك الأوراق. اذا رأوها فسوف يسألون، ولن أستطيع ان أحتفظ بها سرية كما فعلت في الفترة الماضية!

ـ لا تخافي يا انيسة، اذا قرّرت ان أبقيها هنا، فسوف أقول لك ان تحرقيها، لأنّي لست بحاجة لها بعد ذلك!

ـ الأفضل أن لا تأخذها، لو تتركها الآن، سأحتفظ بها حتى تعود!

ـ لا أعرف!

كنت أصنع القهوة لما أخذ يحلق، كان الصمت ممتداً مثل جسر من الموت، لم أكن أسمع تمزُّق صوت الماء وهو يتقلب في الوعاء ويغلي، تذكّرت الأوراق من جديد، وكنت أضع القهوة في الماء الغالي وأتذكر:

مجموعات من الأوراق مطوية بعناية، ودفتر أسود له غلاف مقوى، وصفحات كثيرة، حاولت أن أتذكر. . .

مذكرات ثلاثة شهور، انتهت قبل السجن بفترة طويلة، وخلال الشهور الأخيرة لم يكتب شيئاً رغم الأوراق البيضاء. بعد المذكرات أشعار، ثلث الدفتر أو أكثر قليلاً.

كان عنوان الأشعار «عربدات صغيرة وحزينة» أمّا القسم الأخير فقد وضع له عنواناً ثم شطبه، كان العنوان الأول: «أفكار من أجل الحرية» وبعد ان شطب هذا العنوان كتب تحته «بلا عنوان»!

ماذا قرأت؟ هل أتذكر الكلمات واللحظات العنيفة التي مرَّت تحت عيني؟

انسفحت القهوة. رأيته هذه المرة يقف ورائي، ويضحك. لقد تبادلنا الأدوار الآن. قبل قليل كنت أتابع حركاته وهو يرتب الحقيبة الصغيرة، لم يرني أول الأمر، وعندما التقت عيوننا أجفل، وبدا حائراً وغاضباً. والآن، منذ متى يقف ورائي ويراقبني؟ كانت يدي ترتفع وتنخفض بوعاء القهوة دون وعي، حتى اذا قربتها من النار اكثر مما ينبغي، انسفحت، انطفأت النار واستيقظت. . ورأيته يضحك!

قال لي ينقذني من الحرج:

ـ لقد نسيت كيف تحضر القهوة، لم نشرب طوال سنوات، لكن أستطيع ان أصلحها الآن بعد أن أفسدتها!

ولم أتركه. أضفت من جديد ملعقة من البن وقليلاً من السكر.

لم يتغير رجب وحده، تغيرنا كلنا، وإلاَّ كيف أفسِّر هذا الولع، هذا الارتجاف في اليد والخفقة في الصدر؟ كيف أفسر تصرفاتي كلها؟ لم أعد كما كنت أختاً وأماً. إنَّني أتعذب الآن. ولا أعرف كيف ستنقضي هذه الساعة الباقية، أخاف أن نبقى وحيدين. أخاف على نفسي، وأخاف عليه أكثر. ماذا لو عاد الى البكاء مثلما فعل في الليلة السابقة! ماذا لو بكيت؟ ان هذا الجو المشحون دائماً يهدد بالانفجار كل لحظة، يمكن ان يتحول في ثانية الى عويل مجنون، الى هستيريا من البكاء لا يوقفها أحد!

واذا لم نبك فماذا نستطيع ان نفعل؟ هل أدور حوله لأنظر اليه واحفظ تفاصيل وجهه وحركاته قبل أن يرحل؟ هل أشغل نفسي بأشياء تافهة لكي لا أجلس في مواجهته وأنظر اليه؟ أكاد أفقد سيطرتي على نفسي!

كنت طوال الفترة الماضية أخاف ان أكون وحيدة مع رجب. أجّلت مرات كثيرة الأفكار والكلمات التي كنت أريد أن أقولها. الآن، وأنا أراه يلتقط فنجان القهوة ويشرب منه رشفات بينما كان يسير نحو الصالة، سيطرت عليّ رغبة جامحة لأن أمنعه من السفر. ولأول مرة أرى في حركته فرح طائر مهاجر. كان رشيقاً، وخطواته ترقص، أمَّا أصابع يده عندما أطبقت على الفنجان والصحن معاً بطريقة محكمة، فقد بدت لذيذة تنهش الانسان من الداخل. قلت لنفسي وأنا أضرب الأرض بحقد: «لماذا يعود رجب في هذه اللحظة

إلى أيام الطفولة؟».

لما جلسنا على مقعدين متقابلين، سألته بصوت هامس:

ـ ألا تؤجل سفرك يا رجب؟

كانت الابتسامة على وجهه غطاء رقيقاً للتصميم المعذب. هزَّ رأسه كما لو انه يترنم بالرفض، ولم يقل كلمة واحدة. رخيَّم علينا الصمت.

كانت عيونه تتراكض في كل الأنحاء، لئلا تتوقف لحظة واحدة، وتلتقي بعيني. اية أفكار كانت تحوم في رأسه؟ أية رغبة تسيطر عليه؟ لو طلبت منه ان يبقى، لما وافق، سيحمل حقيبته بعد قليل ويلوح بيده ويسافر، سيسافر وفي حلقه تلك الشهقة الموجعة! ما دام الأمر هكذا يجب ان أبدو متماسكة قوية، لأقل له كلمات لذيذة يتذكرها حتى وقت بعيد. قلت:

ـ لا أقصد أن تؤجل سفرك تماماً، كنت أريدك ان تعدني!

ـ أعدك؟ بأي شيء؟

ـ ان تعود وان تكتب!

ـ سأكتب، سأكتب كثيراً.

ـ رسالة في الأسبوع؟

ـ ربما...

ـ اذا لم يكن كل اسبوع، ففي كل اسبوعين مرة.

ـ سأحاول.

هذا وعد يا رجب!

ـ سأكتب دائماً، لن أقول لك كل اسبوع او اسبوعين، لكن

سأكتب عندما أكون قادراً.

ـ قادراً؟

ـ اذا رأيت ان في الكتابة راحة. اما اذا لم أكتب فمعنى ذلك أنّي أبحث عن الراحة، أطاردها ولن يكون لديّ وقت لكي أكتب!

ـ معنى هذا أن أتعذب وانتظر. اذا انقطعت رسائلك فسوف أعرف أنك في حالة صعبة، وعليّ فوق ذلك ان انتظر! أليس كذلك؟

ـ رحلة صغيرة يا انيسة، ولا أعرف لماذا نحب ان نتحدث بهذه الطريقة عن الرسائل والفراق والعذاب. ألم تتعودي عليّ؟ ألم يعودك السجن كيف يجب ان تصبري وتتحملي؟

ـ ولكن انتهت أيام السجن، وحتى عندما كنت سجيناً كنت أحسك قريباً.. أمَّا الآن!

ـ السجن يا أنيسة في داخل الانسان، أتمنى ألاَّ أحمل سجني أينما ذهبت، ان مجرد تصور هذا عذاب يدفع بالانسان إلى الانتحار!

تنحنح حامد، ليشعرنا انه اقترب. كان يحس بغريزته ان لحظات مثل هذه تجعلنا أقرب إلى الحلم، وكان يحرص ان يترك لنا الاستمتاع او العذاب، دون ان يتدخل. ان الرجل الغريب، أياً كان، زوجاً أو صديقاً، تبقى بينه وبين الأيام البعيدة سدود من الغيوم السوداء، الأيام التي كوَّنت طفولتنا وحياتنا الأولى، ولا يستطيع ان يخترقها إلاَّ بعد فترة طويلة من الحياة المشتركة والعذاب، حتى اذا صارت ماضياً، اتسعت آفاق الرؤية وبانت الحياة كلها وكأنَّها مقاطع من الحجارة الصلبة المتداخلة.

تنبهت وحامد يدخل. كان وجهه متعباً من أثر النوم القلق، ترك أصابعه تتخلّل شعره، بطريقة عصبية محرجة قال:

ـ أحلام الليل أقسى من عذاب النهار!

جلس حامد، لم نسأله ولم يتكلم. أحرجه الصمت، نظر اليَّ طويلاً وفي عينيه ذلك التساؤل الممض والذي يحمل لوماً أكثر من التساؤل، حتى إذا رآني لا أتحرك، قال:

ـ وأنا..؟ أين قهوتي؟

انتفضت، أغمضت عيني أكثر من مرة، كأنِّي أفيق من حلم، لما رأيت حامد يتبسم، ابتسمت له ونهضت!

انقضت الفترة الباقية كما ينقضي حلم لذيذ...

عند السابعة، وضع رجب الحقيبة الكبيرة عند الباب من الداخل، وعلّق الحقيبة الصغيرة في كتفه أول الأمر، ثم تركها تسقط وبدأ يدور في البيت ليلقي عليه آخر نظراته.

كان يدور بحركة أقرب الى مَن يفتّش عن شيء ضائع. كان يخرج من غرفة لأخرى، ينظر إلى الجدران، إلى النوافذ، الى وجوهنا. كانت نظراته متسائلة. لم يكن يتكلم، لم يكن يتذكر، كان يبحث، ولا يريد معونة من أي نوع، حتى قال له حامد:

ـ لم يبق لنا وقت، يجب ان نتحرك.

انتفض، هجم على الصغار مثل ديك مبلول، حمل رامز وليلى على صدره، قبّلهما بحنان كأنَّه لن يراهما بعد اليوم، وظلَّ ينقل نظراته بينهما يريد ان يتشرب وجهيهما، حتى اذا أحسَّ بجسم عادل وخالد يحتكان به قرفص، وضع رامز وليلى على ساقيه، تاركاً لهما ان يتشبثا بعنقه، وأمسك خالد من كتفيه، وهزَّه محاولاً ان يمنحه قوة أو ان يدمره، ثم التفت الى عادل وضربه في بطنه، وقال له بلهجة آمرة:

ـ لن تكذب بعد اليوم اذا سألك أحد عنّي فستقول انه سافر، وأكون قد سافرت بالفعل، أليس كذلك؟

وهزَّ عادل رأسه دلالة الموافقة ولم يتكلم. اما خالد فظلَّ يدور حوله كأنه يراه لأول مرة.

وددت لو تنتهي الحياة في هذه اللحظة. شعرت بالحزن كبيراً كثيفاً مثل يد قاسية تنتزع أمعائي، ولكنّي صممت ان أبقى قوية، كنت أريد لرجب ان يتذكر وجوهنا الضاحكة، لتكون له زاداً في الغربة. اما حامد فكان وهو يرقب المشهد، راضياً ومحرجاً في نفس الوقت.

قال حامد يخاطب رجب من خلال الصغار:

ـ اتركوا خالكم يا أولاد.. لا تؤخروه.

ظللت الوحيدة التي يجب ان يفعل رجب شيئاً من أجلها. هل يهز يدي وينسحب بسرعة لكي ينقذ نفسه، هل أركض الى غرفتي ولا أرى في عينيه دمعة محبوسة يخاف أن تنطلق في اللحظة الأخيرة؟

تمنيت لو ان أمّي تراه للحظة واحدة ثم تموت. لو كانت موجودة الآن لحملت عنا اللحظة الثقيلة المشحونة بالخطر، لجنبتنا الدموع وآلاف المشاعر المضغوطة، والتي تتجمع في سيول صغيرة، لتصب في تلك النقطة الضعيفة.

لقد رحلت حين كان يجب ان تبقى. رحلت دون عودة، وهي الآن ترقبنا، ترقب أيدينا، عيوننا، لهاثنا، خفقات قلوبنا، ترقب لتعرف كيف نتصرف، كيف نواجه لحظات ضعفنا المدمرة، كانت لا تحب ان تبكي أمامه. أوصتني آلاف المرات ان أحبس دموعي، حتى لو اختنقت ولا أبكي أمامه. كانت تقول «البكاء يهد اكبر الرجال،

وأقسى ضربة توجّه لرجل ان يرى أمه او أخته تبكي امامه». لن أبكي الآن. لن أبكي. سأدفن وجهي في صدره وأقبّله، وبعد ان يغيب سأبكي، سأبكي وحدي، لن أترك له في غربته ذكرى دموعي، وكأنّها نجوم سوداء تتساقط عليه لتضغط على قلبه. سأضحك، لكن فكّي لا يطاوعني، أحسهما ثقيلين متصلبين، سأبتسم، الانسان يستطيع ان يبتسم، والابتسامة ارادة حتى لو كانت حزينة!

التقط رجب الحقيبة مثل قط، وبسرعة لم أفطن لها سحبني من يدي إلى الغرفة القريبة. تصوّرت الدفتر الأسود والأوراق. كان رجب يفكّر طوال الوقت، كان يصارع ولكنه في النهاية قرَّر شيئاً!

دخلت وراءه وبتلك الرشاقة الخائفة المضمحلة من ذاكرتي، والتي نسيتها لفرط ما ابتعد بها الزمن، رأيت يد رجب تدخل الى جيبه. كنت أنتظر شيئاً. ماذا خبأ في هذه الساعة الأخيرة؟ وأي حزن ستولدها هديته؟

بيد مرتجفة أعطاني مغلفاً مفتوحاً. قال لي قبل ان أقرأ الكلمات المكتوبة على ظهره:

ـ ما زلت متردّداً هل أعطيك الأوراق كلها أم لا. هل أترك هذه الآن؟

كان يريد أن يسأل. ان يتكلم، لكن عيون الصغار وحامد المترصدة، قطعت عليه كل شيء.

قلت له أحاول تخليصه، من الاحراج:

ـ اتركه كله لي، وسوف أفعل الشيء المناسب.

وباستسلام يائس خفض عينيه. لم تنته المأساة بعد، ما زال يصارع نفسه: الأوراق، الدفتر.

قلت والرغبة تسيطر عليّ في أن يبقي الأوراق عندي:

ـ أعطني الأوراق يا رجب، سأحتفظ بها حتى تعود!

ان أقوى الناس وأكثرهم قدرة على التصرُّف، يفقدون في لحظات معينة قدرتهم على ان يتصرفوا منفردين. يجب ان يكون احد الى جانبهم لكي يقول لهم ما يجب ان يفعلوا. رأيت رجب ينحني على الحقيبة، وبمرارة يسحب الدفتر والأوراق ويضعها بكلتا يديه على كفيّ المفتوحتين. ودون ان التفت الى الباب المفتوح والى النظرات المنصبة عليّ، رفعت طرف الفراش، مثلما فعلت أُمّي تماماً قبل أكثر من خمس سنين، ووضعتها هناك، وضعتها بصمت دون كلمة، ولكن بخوف أيضاً.

الخطوة الأخيرة قبل الرحيل. دفعني بيد رقيقة أمامه، حتى اذا أصبحنا عند الباب، قبّلني، قبّل شعري، وقبّل وجنتي. كان لا يريد ان يتركني. وأنا كنت أستجيب له ولا أفعل إلاّ تلك الحركات الصغيرة، والتي تشبه ردود الفعل لحركاته.

تمنيت لو أتلاشى. كنت أختنق بدموعي، وأتعذب. لو ان دمعة واحدة انفجرت الى الخارج لجعلت روحي تتنفس وتحاول ان تتملى منه قبل أن يرحل، لكن كنت مسلوبة، أجاهد مثل حيوان مخنوق لكي ألتقط الهواء.

لما خرج، كانت أمطار بداية الشتاء الصغيرة الناعمة تنزلق بهدوء أخرس على أوراق الشجر. وكانت الأقدام على ممشى الحديقة، تترك علامات حزينة باهتة. ظلَّ الأولاد يركضون وراءهما، حتى غابا في الشارع. أمّا أنا فقد ظللت عند الباب ألتقط بقلبي صورته التي بدأت تغيب.. وبدأت أبكي!

(٣)

اهتزي اشيلوس. اهتزي أكثر، تحوَّلي إلى حوت، اذا أصبحت حوتاً، انتفضي فجأة، اقلبي البشر، وعندما يطفون حواليك موتى، ممسوخي الوجوه، التقطيهم واحداً بعد آخر: ازدردي المخلوقات التائهة، والذكريات، ولحظات السقوط، أتسمعين اشيلوس ما أقوله لك؟ يجب أن تسمعي كل الكلمات، اذا سمعتِها جيداً سيزول الندم، ستنقضي لحظة التردُّد، وتفعلين!

اشيلوس باخرة الركاب اليونانية تبحر الآن عبر المتوسط، اذا انقطع المطر، وظلَّ البحر مثلما هو الآن، غاضباً كرجل وقور، فعند الغروب سنصل إلى البيريه، البيريه أول خصلة من أرض اليونان، لن أتوقف فيها أكثر مما تتوقف الباخرة، لا أريد يونان معذبة، سأحيِّي رجالها من بعيد، وأُواصل الرحيل، قالوا ان الحرية في أرض أخرى، أبعد من اليونان، يمكن ان يعيش فيها الانسان أيامه دون أن يوقظه عند الفجر صوت المخبرين وضربات أحذيتهم، سأرحل الى تلك البلاد.

اشيلوس، كفِّي عن الدعابة السمجة، اهتزي كما أقول لك، اهتزي مثل راقصة شرقية عذَّبتها ذكرى أيام الجوع، وتريد بأردافها ان تضرب العالم، ان تنتقم! هل تريدين ان أقول لك كل شيء يا

اشيلوس؟ لا تلعبي هذه اللعبة، لا تفكري ان نخون بعضنا؛ بقيت لي خمسة أيام يا اشيلوس، سأشد على الدرابزون كآخر تحية يمكن ان يوجهها اليك انسان راحل، لن يراك مرة أخرى!

أمس في شمس خريفية كابية كنت أضرب الحاجز على ظهر اشيلوس، وأقول لنفسي بصوت عال، يمكن ان يسمعه انسان على مسافة أمتار! لم أكن خائفاً، ربما لأول مرة في حياتي لا أشعر بالخوف. قلت لشيء ما، للبحر، للحاجز، للشمس، لا يهم لمن قلت:

ـ أريد ان أنسى. ان أتوقف نهائياً عن استعادة تلك الأيام البائسة. الذكرى حيوان قارض، حيوان يزحف في الدماء. وأنت أيها الحيوان ألا تخاف من دمائي الملوثة؟ أقول لك كصديق: الدماء التي أحملها الآن في عروقي يفتّتها الروماتيزم، لا تغرق في هذه الدماء، فتّش عن غيرها. أتسمع ما أقول لك؟

أنا الآن أملك جسدي، استطيع ان ألقيه في البحر، لا أحد له سلطان عليه مثلي، كانوا يستطيعون ذلك، فعلوا أشياء كثيرة، لكنهم الآن لا يستطيعون، أصبحت بعيداً، في كل ثانية ابتعد، أنجو، وحتى لو أرادوا الآن ان يفعلوا شيئاً، فلن يكون أمامهم إلا طريقة واحدة: ان يطلقوا عليّ الرصاص، وحتى لو أرادوا ذلك فيجب ان يفعلوا ذلك من بعد، لن أمكنهم ابداً أن يلمسوا جسدي مرة أخرى... اهتزي يا اشيلوس وابتعدي.. أنا أبتعد، ابتعد!

هل يمكن ان أتصالح مع نفسي بشكل ما؟ أريد أن أتفق مع هذه النفس. أعرف أنّ كل شيء فيَّ خبا، تمزّق، لكن يمكن للانسان ان يعقد صلحاً مع أيامه الأخيرة، هذا ما أريد الوصول له.

الباخرة، منذ ثلاثة أيام، توفر لي جواً من الحرية، لكنها حرية لا تصل حدود أن أُغنّي. تمنيت أمس أن أغنّي بأعلى صوتي. كان المهاجرون يغنّون أغنيات حزينة، كانوا يغنون ويتوعدون القدر بأن يعودوا. كنت أريد الغناء دون أن أتوعد احداً. لم يبق أحد إلاّ وغنّى. لماذا تركت نفسي تذوي وراء السارية ولم أُغنِّ؟ الآن أستطيع، الأيام الخمسة الباقية تتيح لي الغناء طوال الليل. كانت أغنياتهم تهدر. كانت تختلط بالدماء، بالصراخ، كانوا يحبون ان يقوموا بالعمل، وصوت آلة التسجيل يمزق الصمت الثقيل!

كيف أدعو الناس لكي يخرجوا الى ظهر الباخرة ويسمعوا غنائي؟ حصل الأمر صدفة، الشمس هي التي ولدت فيهم رغبة الغناء. كانت الشمس خريفية دافئة وحزينة، كان الرجال والنساء على ظهر الباخرة، ناحية المؤخرة، وفجأة بدأ الغناء.

العرب الذاهبون الى فنزويلا والأرغواي، والى أماكن بعيدة لم يسمع احد باسمها، غنّوا، كانت أغنياتهم حزينة، تحمل مرارة الملح الذي فسد، والملح اذا فسد لا يمكن ان يصلحه احد. ولم يغنِّ العرب وحدهم، غنّى ثوار المناطق الفقيرة المغتصبة. غنّى مكسيكي وهو يعزف على قيثارة. وفي وحدة عاطفية شديدة البوح، غنّى هندي وباكستاني معاً! هل كانا يعبّران عن شيء ما؟ أكانا يعرفان بعضهما قبل الغناء وهل عرفا نفسيهما اكثر بعد ان غنّيا معاً.

كنت أقف وراء السارية، ورغبة الغناء في حلقي مثل دمل أريده ان ينفقىء، لكن لذة العذاب، غير المقدّسة، جعلت السارية كبيرة مثل أشباحهم وقرّرت ان أصمت. الصمت دواء، تعلمت ان أتجرع هذا الدواء في كل الأوقات، وكنت أشفى!

هذا القدر من الحرية، فوق أشيلوس الهادرة في الليل والنهار،

يكفيني زاداً لسنين. أشيلوس يا صديقتي.. يا صديقتي، انت لم تري السجن، لو رأيته يوماً لتغير صوتك، كانوا يريدون صوتاً، مجرد صوت، يصرخون: «قل كلمة يا ابن القحبة»، واصمت، لا أقول شيئاً. ويضربون. لو عرفت السجن يا أشيلوس لتعلمت كيف تصمتين. لو توقف صوتك دفعة واحدة، فإنَّ الرعب سيشلهم، سيموتون. «قل أي شيء يا ابن العاهرة، اشتم.. أمَّا ان تظل صامتاً مثل الجدار، فسوف تغرق في البول حتى تموت». ولا أجد شيئاً، أي شيء لأقوله، وأصمت.

سأنظم لك أشعاراً يا أشيلوس، وأريد أن أُغنّي. لا أحد الآن على ظهر الباخرة، إنَّهم يتكومون في الصالة وفي البار. يتعودون على الأيام القادمة تماماً مثلما تعودت على أيام ماضية، هكذا بدأت المسألة.

بدأت المسألة أول الأمر في الهواء الى جانب حقول القمح او تحت ظلال الأشجار، كانت تترافق الكلمات مع الشتائم والضحكات، ثم أصبحت الكلمات لا تقال إلاً في الغرف المغلقة المليئة بالدخان، كانت كلمات تمتلىء بمقدار مجنون من الثقة والدخان، حتى أصبحت في النهاية همساً من تحت الأبواب او دقات على الجدران.

الانسان يتعلم، وأنت يا أشيلوس تريدين أن تُعلِّمي البشر، احصريهم في الصالة والبار لتمتلىء رئاتهم بالدخان والكلمات. في البيريه سينزل قسم من البشر، وبعد ساعات يرحل الآخرون على ظهر الماء الى مكان آخر، ثم الى مكان ثالث.

لو تابعت الكتابة، لو وضعت لعيني حواجز مثل تلك التي

يضعونها للبغال كي لا تضل، لو غنيت او صرخت. هل ترضين يا أشيلوس؟ ولكن مَن أنتِ أيَّتها الخنزيرة الملساء كي استجديك؟

كانت لهم شعور طويلة، فوق أيديهم حتى الأصابع، كانت لهم شعور في صدورهم، أمَّا رؤوسهم فقد تعودت ان تترك لشعورهم الحرية في أن تتزلق، ساعات الغضب.

«ألا تعرف أين ذهب نجم؟ خد، خد». الزبد يتطاير حول أفواههم كما يتطاير حولك يا أشيلوس. العيون تنتفخ من الدهشة والغضب. «يجب ان تتكلم يا قوّاد. سأعلّمك كيف تقول كل شيء. لن تعيش هذه المرة»! كان جسدي يرتعش، يتمزق، يتحول الى كلب لا يتوقف عواؤه. «والآن ماذا تقول؟ ألا تعرف أين نجم؟».

قل لهم شيئاً يا رجب، اكذب عليهم، لا لن أقول كلمة واحدة. اصرخ وقد احتقن وجهي وأحس عيني تخرجان: «اسألوني عن نفسي يا كلاب».

«أخيراً بدأت تتكلم.. مَن أنت يا م[1].. حتى نسألك عن نفسك، نريد هادي، نريد نجم، أين يختبيء هادي، قل لنا يا ابن القحبة!» واصمت. لو عرفت السجن يا اشيلوس يوماً واحداً لعرفت الصمت، لتحولت الى صوت ينتفض في الشمس ويأكل الحشرات التي تحوم فوقه. سيأتي يوم تقفين في ميناء مهجور مثل سجين قال كل ما عنده، ولم يكتف احد. سيغادرك كل شيء، حتى الجرذان، واذا هبت ريح تميلين على هذا الكتف، ذاك الكتف وتغرقين. لم يتركوا لك فرصة لكي تغرقي في البحر الكبير، في أعماق

(١) كلمة قبيحة.

المياه الخضراء، سوف يجرونك حتى تصلين الى ميناء مهجور، وهناك يجردونك من ثيابك، من الذكريات، ويتركونك وحدك تموتين. لا تنسي ما أقوله لك يا أشيلوس!

آه.. ما ألذ ان يموت الانسان وهو قوي. كانوا خائفين لدرجة الرعب عندما مات هادي، لم يصرخوا في وجوهنا مثلما كانوا يفعلون. صمتوا. نحن الذين سألناهم. صرخ زيد في وجوههم: «أين هادي أيها القتلة؟ لا تظنوا ان دم هادي يذهب دون ثمن». لم يقولوا شيئاً، ظلوا ينظرون الينا بصمت والخوف يمزق أحشاءهم.

ظلوا خائفين فترة طويلة. كنا نسمع أصواتهم الخائفة، خطواتهم وهي تنتقل بحذر. لماذا يخافون ما دام هادي قد مات؟ وهل يخاف القاتل لهذه الدرجة؟ كان هادي قوياً وكبيراً. كانوا يخافون منه في كل وقت.

كان يضحك مثل طفل وهو يقول لنا: «لا تخافوا منهم ابداً. إنّهم أنذال وضعاء كلهم وجبناء. كانوا يقولون: اعترف يا هادي ولا أحد يمد يده عليك، قل مَن معك يا هادي وثمن الاعتراف الحرية، يجب ان تعترف» ولا يسمعون منّي كلمة واحدة.

لما تعبوا من هذا الأسلوب، بدأوا يجربون أساليبهم الأخرى: السجائر الأجنبية، فناجين الشاي، المعاملة الجيدة. وبعد اسبوع: ماذا تقول يا هادي، هل حان الوقت الذي تقول لنا فيه كلمتين وتخرج؟ وأصمت...

وتعبوا ايضاً.. وبعد ذلك هل تعرفون ماذا حصل؟ الانسان أيها الأصدقاء، أقوى من الصخر، يحتمل كل شيء. جرّبوا الضرب، التعليق، الكهرباء، جرّبوا المنفردة والمرحاض، جرّبوا

الأضواء وأصوات التعذيب والغناء. وأقول لهم: لن تصلوا يا أنذال إلى ظفر هادي ولن تظفروا بشيء!

كان صمته يعذبهم. وتعلمنا الدرس قبل ان يقبضوا علينا!

من أين جاءت هذه الطفلة؟ لها وجه الأطفال وجرأتهم، وفيها عنادهم، قالت لي أمس ونحن نتكىء على حاجز السفينة، بعد ان انتهى الغناء:

- انت من بلد... أليس كذلك؟

قلت لها أُداعبها، ولم أحس انها أنثى كبيرة، إلاَّ بعد ان رفعت صدرها عن الحاجز:

- كيف عرفت؟

- عرفت!

- ولكن كيف؟

- الشكل لا يخفى، قدرت، وأنت، الآن تؤكّد!

- لم أقل شيئاً!

- ولكن من طريقة السؤال، من الكلمات، عرفت أنّي لم أُخطىء!

هكذا بدأ بيننا الحوار أمس. لم أرها قبل ذلك، ومنذ ساعات وأنا أتجنب الصعود الى الصالة لكي لا أراها. لا أُفكّر الآن بأي شيء، ولم أعد أحب أن أتحدث مع انسان. قال الرجل الذي انضم الينا بسرعة، بعد ان عرف اننا من نفس بلده، وهو يضغط على حروف الكلمات لتبدو واضحة:

- الذي لا يعرف لغة أجنبية ويسافر وحيداً يكون مثل الضائع.

قال الكلمات وظلَّ واقفاً الى جانبنا، كأنَّه يريد رداً على كلمات ليس لها رد. قلت له لكي أوفر على الصغيرة:

ـ إلى أين تُسافر؟

ـ الى ايطاليا!

ـ لفترة طويلة؟

ـ شهرا! وأنتما؟

ـ أنا أُسافر الى فرنسا، ولفترة طويلة!

ـ وأنت؟

ـ الى بريطانيا.. للدراسة!

عرفت اذن انها تسافر إلى بريطانيا، وانها طالبة، لم أسألها من قبل، وبعد ذلك تحدثنا مثل طيور عصبية، عن البحر والغناء والسفر. كان البحر في بداية الغضب، قلنا ذلك. وكان الغناء قد انتهى، قلنا كان الغناء رائعاً.. أمَّا السفر، فقد بدأنا نتحدث، لما وقف الرجل الى جانبنا، ودون أن نسأله تبرع وقال كل شيء:

ـ حظِّي جيد. أغلب المرات التي سافرت فيها، يسَّر لي الله أُناساً طيِّبين، شباباً يعرفون اللغات، وقضينا في الباخرة وفي ايطاليا فترات جيدة، السفر للذي يسافر أول مرة صعب، لا يعرف الانسان كيف يتصرف، والطليان، اذا رأوا واحداً لا يعرف لغتهم، سرقوه، ضحكوا عليه.. انهم خبثاء!

قالت له الطفلة التي لم أعرف اسمها ابداً:

ـ سافرت كثيراً وأصبحت تعرف كل شيء!

ـ لكن اللغة، اللغة يا آنسة مصيبة كبيرة.

ـ ألم تتعلم شيئاً من السفر؟

ـ كلمات، أقل من عشر كلمات: مرحباً، شكراً، مع السلامة.. مثل هذه الكلمات.

ـ ولكني لا أعرف اللغة الايطالية!

ـ المهم لغة أجنبية، أية لغة، العربية بعد بيروت لا تفيد شيئاً، حتى هؤلاء اليونانيون الذين قضوا فترة طويلة في مصر، ويعرفون اللغة العربية، لا يحبون ان يتحدثوا بها بعد ان تُغادر الباخرة بيروت!

تركتهما يتكلمان. بدأ يتحدث عن ايطاليا، عن الطبيعة الجميلة والشوارع، وأتذكر أنَّ آخر كلمات سمعتها وأنا أبتعد:

ـ اذا رغبت يا آنسة، فسوف يكون لي الشرف ان اطلعك...

وذابت الكلمة في الهواء قبل ان تصل أذني، ليس لديّ شيء يمكن أن أقوله لهذه الطفلة، سأكون مضجراً لدرجة الألم. لماذا أخرج الى الصالة؟ لماذا أفسد عليهما الأفكار المضيئة التي تشتعل في رأسيهما وهما يتجولان في روما، أو في أماكن أخرى! اذا رأتني على ظهر الباخرة سألتني، فماذا أقول لها؟ أشيلوس أنت لا تسألين، تسمعين ولا تجيبين. لقد امتلأت روحي بالأسئلة حتى لا أطيق الآن ان يسألني أحد. لا أعرف شيئاً ولا أريد ان أعرف اي شيء!

ولكن بعد ايطاليا سنقضي يومين وثلاثة ايام، كيف أواجه هذه المرأة الطفلة بعد ان تتدرب على يد هذا المتألق الجامح؟ يمكن أن أرابط في غرفتي أطول فترة. يمكن ان أتجنب لقاءها، ويمكن ان أظل صامتاً كما فعلت من قبل. ولن تتعب لتجد صديقاً. الجميع يفتشون عن أصدقاء. أنا الوحيد الذي لا أريد. يكفي ما رأيت وما عرفت. الآن أشيلوس، الحديد الصلب، الخشب المثقل بالملوحة والمطر،

الزبد المتطاير، الأيام الصعبة التي تنتظر عندما تموتين، يا أشيلوس، حين تهرم اركانك وتتداعى، أي مصير سيواجهك؟ أشيلوس وحدها التي أريد أن أتحدث معها، ووحدها يمكن أن تسمعني! أشيلوس تسمع ولا تسأل!

«دون أن نسألك. احك كل شيء، يجب ان تعترف، الأفضل ان تعترف. لماذا تصمت مثل النعجة؟ هل أنت خائف؟ كما قلت لك اذا اعترفت لا أحد يمد يده، اما اذا لم تعترف الآن فسوف أجعلك تعترف مثل كلب. أتعرف كيف يعوي الكلب، ستعوي اكثر منه».

قلت لهم وقلبي يرتجف:

ـ ماذا تريدون أن أقول؟

ـ ابدأ من يوم ما جئت من... [1] أمّك.

ـ تعرفون كل شيء عنّي!

ـ نريد أن نسمع منك.

ـ اسألوا.

ـ امرك يا بك، سوف نسأل وأنت تجيب، لكن اذا كذبت بكلمة واحدة، فلا تلم إلاّ نفسك.

كان يوم اثنين، أول يوم بعد عيد الفطر. قبضوا عليّ قبل نهاية دوام يوم الخميس. كانوا يتراكضون، لم ينظروا إليّ طويلاً، قال نوري وهو يصرخ مثل ثور:

ـ هذا بعهدتك، جديد، وأريدك أن تعتني به!

---

(١) كلمة قبيحة.

امسك بي حاتم، آمر الحرس، مثل قط أجرب. امسك بكتفي وقال بلهجة آمرة:

ـ افتح السرداب يا عبد.

دفعني أمامه. صرخت بتحد:

ـ أنا مريض بالقلب، ولا أستطيع ان أنزل الى القبو!

أتذكر اني رأيت الباب يفتح، ثم رأيت بقعة الدم وقد غطَّت مساحة واسعة من أرض القبو. لا أعرف كيف نزلت الدرجات العشر. حصل ذلك في لمح البصر، ضربني حاتم على وجهي بظهر يده، وفي اللحظة التالية أحسست برجل تضربني على ظهري، وأهوي، لم يدم ذلك وقتاً طويلاً، حصل بسرعة!

كان القبو صغيراً لدرجة ان ثلاثة أشخاص لا يمكن ان يناموا فيه، أمَّا الجدران والسقف، فقد كانت متقاربة لزجة، والنافذة الصغيرة، والتي تشبه شقاً، كانت تستقبل ضوءاً باهتاً، ينزلق اليها من ارض الحوش.

ما ان أفقت من الصدمة الأولى، حتى بدأت أصرخ. شتمت، قلت بأعلى صوتي: أيُّها الأنذال. انفتح باب القبو. كان الضوء في الخارج زاهياً فوَّاحاً، وكان طلاء الجدار المواجه، له صفرة لذيذة. فرحت لما رأيت الباب ينفتح. لقد استجابوا لصراخي، ولن يقولوا شيئاً لسجين اضطرته المعاملة القاسية لأن يشتم.

قال لي رجل لم استطع ان أتبين وجهه، لأن الضوء وراءه كان يطغى ويعطيه ظلاً أسود:

ـ اخرس يا ابن الكلب، واذا سمعت صوتك مرة أخرى يا ابن القحبة ألعن أجداد أجدادك؟

أي شيطان حرَّك لساني في تلك اللحظة؟ أية أفكار دارت في رأسي؟ لا أدري. قلت له بصوت أردته ان يكون صلباً:

ـ انا مريض، ولن أبقى في القبو!

ـ مريض.. سوف تُشفى الآن.

أوقعني خرطوم الماء المندفع من أعلى. وخلال فترة قصيرة كنت أعوم في بركة من المياه، وذهبت كلماتي التي حاولت ان تكون قاسية، في جوف المياه المتدفقة، حتى اذا تعب قال:

ـ هذه المرة ماء، اذا سمعت صوتك مرة أخرى اغرقتك في البول!

لم أنم، ظللت طوال الليل ارتجف، حاولت كثيراً، فكّرت كثيراً بطرق لا حصر لها من أجل أن أتخلص من الماء، لكن ذهبت محاولتي وأفكاري دون جدوى. فتحوا لي الباب في اليوم التالي. خرجت لفترة، دفعوا عليَّ باب المرحاض مرتين أو ثلاثاً، ولم أستطع ان أفعل شيئاً. شعرت بحقد لا يوصف، بصقت على أرض المرحاض مرات كثيرة، لكن الألم في رأسي كان قوياً لدرجة اني لم استطع أن أفكّر. لما رجعت رأيت رغيفاً من الخبز وقطعة صغيرة لا تزيد على قطعة نقود معدنية من الجبن، كنت جائعاً، لم أتذوق شيئاً، منذ صباح اليوم السابق.

كنت أريد النوم، بعد ان شبعت. كان طعم الخبز لذيذاً، أكلت على مهل وقد جعلت قطعة الجبن آخر شيء أضعه في فمي. بدا لي النوم، في تلك اللحظة، أجمل لذة يمكن لانسان ان يمارسها. وقفت في الزاوية، أحاول أن استند الى الجدار وأنام، ولكن رجليَّ وهما تلامسان الماء البارد، جعلتا النوم مستحيلاً. رفعت ساقاً

وتركت الأخرى في الماء، بدّلت ساقاً بالثانية، ولكن النوم كان لا يأتي!

لا أعرف كيف خطرت لي فكرة وجود مصرف للمياه. بدأت أتلمس الأرض شبراً شبراً، لَعلّي أجد ذلك المصرف اللعين، بدت الأرض صلبة متجانسة لدرجة ان قطرة ماء واحدة لا يمكن أن تنفذ. فكّرت أن أصرخ، أن أستغيث، قدّرت أنَّ الحارس الآن لن يكون هو نفسه الذي وجّه لي خراطيم الماء. قلت في نفسي: لا يمكن أن يكونوا جميعهم قساة بنفس الدرجة، وهذا الحارس الذي ألمح حذاءه بين فترة وأخرى، من الشق المستطيل الملتصق بالسقف، لا بدَّ وأن يكون أحسن من ذاك.

لا يمكن ان يشق الصراخ طريقي لقلوب هؤلاء الرجال. يجب أن أدق باب القبو بهدوء، حتى اذا اقتربوا منّي، اذا سألوني، رجوتهم أن يخلصوني من الماء، لكي أنام ساعة واحدة. كانت ساعة واحدة تكفيني. قلت لنفسي بتصميم: لا يمكن أن أرجو أحداً، سأجلس على درجة من درجات القبو وأنام. لمتُ نفسي كثيراً لأنّي لم أفكّر بهذا الأمر من قبل، وصمَّمت الاَّ أترك شيئاً إلاَّ وأفكّر فيه.

بدأت من أولى الدرجات، كانت ضيقة، صغيرة، لا تتيح للانسان أن يجلس، وكانت حوافها محطمة في أكثر من موضع، حتى ان تفكيري قادني الى ان هذه الدرجات حطمت بشكل مقصود لكي لا ينام عليها أحدا

بدأت بالدرجة الأولى، كانت أكثر الدرجات ضيقاً. تركتها ونزلت الى الثانية، كان أحد جوانب الثانية مكسوراً بحيث لا يمكن الجلوس عليها ابداً، اما الثالثة فكانت مريحة للغاية. جلست فوقها، كانت لا تتسع لي إلاَّ اذا جلست، لو حاولت أن أنام يجب ان أمد

رجلي لكي تتجاوز درجتين او ثلاثاً. مددت رجلي، شعرت بألم في ظهري، شعرت بألم رأسي يزداد، تركت رأسي يرتاح على الدرجة العليا، استدرت لأنام على جنبي، استدرت إلى الناحية الثانية. كان السقف، أو الظلام يغطّي كل شيء، حتى ان فكرة الموت طغت عليّ لدرجة لم أستطع أن أنام. طردت الأفكار، وحاولت من جديد. قلت بتصميم لا حدود له: لا يوجد غير هذا المكان ويجب أن أنام. أغمضت عيني، لكن فكرة أن أتخلص من المياه عاودتني من جديد. وفكّرت في البحث عن مصرف، او الدق على الباب، وفكّرت بالصراخ. ثم فكّرت ان أقول للحارس كلمات حلوة، وأذكره بالعيد لعله يرق لي ويساعدني! وطردت كل الأفكار. قلت وأنا أحاصر الألم الذي أحسه ينبع في كل مكان من جسدي: أنت يا رجب لا تزال في يومك الأول، لم ترَ شيئاً، فإذا بدأت تضعف منذ الآن، فسوف تسقط مثل جيفة. اصمد. تحمّل. ورفاقك ألم ينزلوا قبلك إلى هذا القبو؟ ألم يحتملوا ويناموا، ثم خرجوا أقوياء؟ ولكن كيف يستطيع الانسان أن ينام؟ أين؟

آه.. ما أشد روعة أدراج القبو! استغرب الآن كيف ترددت في أن أنام عليها. هل كنت أحمق لهذه الدرجة؟ وهل يريد الانسان مكاناً أفضل من تلك الأدراج لكي ينام؟

بدأت الضجة منذ وقت مبكر صباح الاثنين. سمعت أصوات البشر ووقع أقدامهم الكثيرة. كنت أرتجف من الخوف، كنت أُتابع الخطوات حتى تبتعد. تصوّرت كل خطوة تضغط على أعصابي، تناديني. حاولت أن أجسّد في رأسي اشكالاً للبشر من خطواتهم: هذه خطوات رجل ثقيل، هذه لرجل نحيف، هذه لشرطي، وإلاّ لماذا تبدو ثقيلة بليدة هكذا؟ وهذه أليست خطوات الضابط؟ ولكن

الضباط لا يمرون قريباً من القبو، لا يقتربون منه، تكفي اشارة صغيرة لكي ينتقل كل شيء عندهم. وهذه الخطوات لماذا تبدو بطيئة متعثرة؟ موقوف؟ وهل بدأوا في هذا الوقت المبكر؟

ان لهؤلاء البشر عالمهم الخاص. يجب ألا أتدخل، لأتركهم، لأكتشف كل شيء بنفسي، أمَّا التفكير فيجب ان أوفّر كل ذرة من أجل أن أظل متماسكاً، ان أجبت عن الأسئلة دون خوف. وهل يسأل هؤلاء الناس؟ هل يتكلمون مثل باقي المخلوقات؟

في احدى الجلسات قال هادي، وهو ينظر في وجوهنا بصرامة:

ـ يجب ان تعرفوا منذ البداية، الطريق طويل وصعب، مَن يجد نفسه غير قادر فليقل الآن، لن نلوم أحداً إذا تخلّى الآن، اما بعد التوقيف والسجن، فأي اعتراف، أي انهيار، سوف يجعل من المعترِف والمنهار خائناً. . . أتسمعون ما أقول لكم؟

خرجت الكلمات من أفواهنا صلبة. ظننا ان هادي لا يثق بنا بالمقدار الكافي. كنا نريد ان نبرهن له كيف نكون رجالاً، لا نعترف ولا ننهار. لم يستمع الى الكلمات التي قلناها، اكتسب وجهه حزناً نحيفاً وهو يقول:

ـ الآن لا نستطيع ان نحكم على أحد، السجن هو المحك الوحيد، ولكن ليس معنى كلامي ان نحوم حول السجن مثلما تحوم الفراشات حول النار، لا، السجن آخر شيء يجب أن يقع لأي واحد منكم، احذروا كثيراً، اعملوا كل شيء من اجل ان لا تقعوا في أيدي البوليس، واذا وقع الانسان فيجب ان يثبت انه رجل ويعرف كيف يتحمّل!

كان ذلك منذ وقت بعيد، أتذكّر ان ريحاً عصفت خارج النافذة، ولا أتذكر ان كانت ريح الخريف أم ريح الشتاء. وبمجرد مرور هذه الذكرى الآن، أحس أن كلمات هادي لم تكن واضحة بالمقدار الذي يدفع الانسان لأن يقرر في الوقت المناسب. كانت الرياح أقوى من كلمات هادي وأشد قسوة!

قلت لهم وأنا أتلوى من الألم:

ـ لا أعرف هادي ولم تره عيني!

ـ تتصور ان ما تعاني منه ألماً؟ سوف ترى بعينك كيف تأخذنا وتشير إلى البيت الذي يختبيء فيه، دون أن نسألك، لن يطول صمتك؟

ـ ولكني لا أعرف انساناً بهذا الاسم؟

ـ هذا ليس اسم انسان، انه وحش، أتعرف وحشاً بهذا الاسم؟

ـ قلت لكم لا أعرف احداً!

قال لنا هادي ذات مرة، وكنا ثلاثة:

ـ لا تصدّقوا. ان أكبر قوة على الأرض، لا يمكنها ارغام الانسان على الاعتراف، اقصد اذا أراد الانسان. بعض الناس يموت ولا يعترف. القضية متوقفة على الارادة، وعلى البداية اذا قرَّر الانسان ان لا يعترف، اذا صمَّم، وتحمَّل لحظات العذاب الأولى، يصبح كل شيء بعد ذلك سهلاً.

الارادة.. كنت أتصور ان بعض الكلمات لا تعني شيئاً أبداً. وأنت يا أشيلوس الهرة، هل تريدين شيئاً؟ في القمرة البعيدة، في المقدمة، يجلس رجل يتجاوز الأربعين، له لحية صغيرة رمادية. هو

الذي يريد كل شيء. يقول لك اسرعي، توقفي، انحرفي الى هذه الناحية أو تلك، ذاك هو الذي يريد، وأنت أيتها الرائعة، ايَّتها البقرة الثقيلة، لا تفعلين شيئاً سوى انتظار ان يقول لك.

كنت أتصور أن الجسد يسقط، ينخر، يفقد القدرة على الاحتمال، وكنت أتصور الانسان اذا وصل الى هذه المرحلة، يجب ان يستسلم. هذا ما تصورته في البداية، ولذلك كنت أمتحن جسدي. ضربت رأسي بالحائط مرات كثيرة، ضربت ساقي اليمنى بطرف حذائي الأيسر. سقطت من الألم، تصوّرت ان ضربة مثل هذه سوف تدفعني للاعتراف، لكن التعذيب، أمواج البحر، هبات الرياح، هذا العناد الأخرق الذي تعبر من خلاله الطبيعة عن وجودها، والملاح، الذي يعرف ارتفاع الأمواج، اتجاه الرياح، ويعرف خرافة الطبيعة، يستطيع ان ينجو، ان يستدير الى هذه الناحية او لتلك وينجو، لتصبح الطبيعة في النهاية ذكرى حزينة!

الحقيقة كلها أقولها لك أيّتها المرة.

قال لنا هادي، وقد استبد به الغضب لدرجة تصورت انه سيبكي:

ـ قلت لهذا القذر مرات كثيرة ان يسافر، عرفت انه سيضعف ويعترف، وفي كل مرة يتذرع بأوهى الحجج ليبقى. كنا نريده ونخاف منه. كنا نريد ثقافته وقدرته في الكتابة، وكنا نخاف ان يسقط في أيدي البوليس وينهار.

قبل أيام وجهنا له امراً بالسفر، قال: اعطوني مهلة ثلاثة أيام لكي أستعد، قبضوا عليه في اليوم الثاني، وقبل ان يمضي اسبوع، كان توقيعه في الجريدة. لقد تحولت ارادته الى كلمات، وحتى

الكلمات كان يتخلص منها بكتابتها على الورق، كان يكتب لنا، والآن يكتب لهم!

ـ قل لنا أين هادي ولا نريد منك شيئاً آخر.

ـ ولكني لا أعرف انساناً بهذا الاسم.

ـ ألا تعرفه؟

ـ لا.

كل شيء في اشيلوس يذكر بتلك الأيام. نزلت أمس الى العنابر. الوقود والمؤن ورجال لا تظهر منهم سوى اشكال غامضة تتحرك في الدهاليز نصف المضاءة. كنت أرى وجهي في عيونهم. الغضب. الحقد. الشتائم. هل يحتوي الانسان على هذا المقدار كله من القسوة والشتائم؟

مدّدوني على طاولة، كنت عارياً تماماً، وجهي باتجاه الأرض، ورأسي يترنح من الضربات، لا أعرف أي عدد من السجائر اطفأوا في ظهري، على رقبتي، داخل أذني وبين اليتي، كانوا يضحكون أول الأمر، وأنا أحاول الدفاع عن نفسي بساقي الطليقتين. رفست مرتين أو ثلاث مرات، ولما حاولت في المرة الرابعة حزموا رجلي بقوة، وبدأوا يصرخون: «اعترف.. اعترف يا ابن الزنا».

أتذكر اني قلت لهم: لا أعرف شيئاً، ولن أقول لكم يا كلاب!

انهالت عليَّ آلاف الضربات بالكرابيج والأحذية. ضربوني بأحذيتهم على وجهي المتدلي، قفز واحد منهم فوق كتفي، وكانت يداي مربوطتين وراء ظهري. شعرت ان عظامي تتمزق ورقبتي تسقط مثل خرقة. وصرخت:

ـ لا أعرف، لا أعرف شيئاً!

ارتفع صوت الغناء، وضعوا عصا غليظة بين اليتي، ضحكوا وأنا أتلوى، بصقوا عليّ، أحسست بماء ساخن فوق ظهري، هل كانت دمائي تنفجر في مكان ما وتترنح بسخونتها؟ هل كانت قطرات من البول؟ هل كانت شيئاً آخر؟.

«أتتصورون ان الانسان اذا قال شيئاً ينتهي الأمر؟ لا، الكلمة الأولى بداية لسلسلة من الاعترافات، وأي تأخر في الاعتراف، في الاجابة، يثيرهم أكثر من الصمت. لا أقول لكم هذا الكلام إلاّ عن تجربة. جرّبت نفسي، ورأيت الذين جرّبوا العكس. الخرزة الأولى وبعدها ينفرط كل شيء!»

قال هادي هذه الكلمات ونحن نتذكر وجه ناجي، بعد ان قرأنا اعترافاته، وكنا نسير الى جانب النهر، كان الصمت فسيحاً مثل حقل لا نهاية له، وكان الخوف ينعقد فوق رؤوسنا ظلاً حزيناً. قلت له ذلك اليوم:

ـ هل تتصور ان اعتراف سعد الدين كان نتيجة التعذيب؟

ـ لا أريد التصوُّر. سعد الدين اعترف، واعترافه نتيجة الخوف، الخوف من التعذيب، أو من التعذيب ذاته. عندما يخاف الانسان يفقد السيطرة على نفسه.

ـ والاعترافات الأخرى، هل ضربوه من أجل أن يحصلوا عليها؟

ـ اذا بدأت الخيانة لا تنتهي. الشيء له بداية، أمّا النهاية فلا يعرفها أحد!

ـ لم أكن أتصور أنّ سعد سيعترف!

- وقد يأتي يوم يتبيّن لنا أن سعد الدين لم يضرب، لم يمس.

- أتقصد انه متعاون معهم منذ البداية؟

- فَقَدَ ارادة المقاومة. كان يلذ له ان يسأل كل مَن دخل السجن عن كل شيء، كان يسأل عن أدق التفاصيل وأصغرها. «متى استدعوك أول مرة؟» «كم كان عددهم؟» «ما أشكالهم؟» «هل جلست؟» «نمت؟» «ومتى انتهى التعذيب» قبل الفجر أم بعده؟» كانت أسئلة سعد الدين تحيرني، لماذا يسأل بهذا الشكل؟ ربما ارتسمت في رأسه الصورة قبل ان يسألوه كلمة واحدة، ولكي يتجنب التعذيب قال لهم كل شيء!

- كيف يمكن للانسان ان يعترف حتى قبل ان يضرب؟

- مثلما قلت، الضرب لا يغير ارادة الانسان، وربما كان العكس هو الأصح. بمجرد ما تمتد إليَّ يد امتلىء تصميماً ان لا أقول كلمة واحدة، ومع كل ضربة جديدة ازداد بعداً عن السقوط. الانسان ارادة قبل كل شيء!

- باعوك يا رجب، اعترفوا عليك، لم يتركوا كلمة إلاَّ وقالوها، وأنت إلى متى؟ ألا تعترف؟ ألا تنتقم لنفسك؟

- ليس لدي شيء.

كانت الأغنية تتحدث عن القمر. أتذكر بعض الكلمات، عندما رأيت يده تمتد الى مفتاح الصوت أحسست برجفة تسري في دمي.

هل يخافون أحداً؟ لماذا اذن يرفعون صوت آلة التسجيل؟ وهذه الأغاني التي تتحدث عن القمر والبحر، ألا تنتهي؟ لن أسمع هذه الأغاني. سأحطم الراديو دون رحمة اذا سمعتها، لا أطيق.

أمس فوق ظهر الباخرة كانوا يغنون بشكل مختلف. كانت أفواههم وهي تصرخ بتلك الآهات، تحمل معنى ألم الانسان. رأيت دموعهم المتحجرة في عيونهم، أمّا الأغاني التي كانوا يغنّونها فإنّها تذكّر بالعالم السفلي، عالم الدماء والقطط.

ظللت صامتاً. الأغنية تتموج مثل السياط في دمي. قال لي ببرودة كاوية:

- اخلع ملابسك كلها، قطعة وراء أخرى، ولا تتأخر!

حاولت مرات كثيرة ان أتمرد. ظلّوا ينظرون إليّ بسخرية، وكانوا يضحكون. ولكن في النهاية تعوّدت أن استفزهم. اذا قالوا اخلع ملابسك، اخلعها. اذا قالوا انبطح على وجهك افعل وكأنّي أقوم بواجب يومي. اذا قالوا اقعد مثل سعدان، كنت أجلس واضعاً يدي حول ركبتي. كان شيء واحد يملأ عقلي في كل وقت: ان أظل جداراً، صامتاً. ان لا أقول إلاّ ما أريد.

- رجب... هذه المرة لا نريد ان نضربك، ماذا تقول؟

- تعودت وليس عندي شيء أقوله!

- ألا تخاف؟

- انتم تعرفون!

- والله يا ابن القحبة سأجعلك عبرة، سوف تتكلم هذه المرة.

قالت الطفلة التي رأيتها أمس، وهي تستند على الحاجز بجانبي:

- كانت الحفلة رائعة: الغناء والمزمار، ما رأيك؟

كانت الحفلة تبدأ في الثانية عشرة ليلاً، في الواحدة، وتمتد حتى الخامسة صباحاً، حتى السادسة. متى ينام هؤلاء الناس؟ هل

ينامون فعلاً؟ ولماذا في هذه الأوقات بالذات؟ كانوا يضربون الباب بأرجلهم الثقيلة، يصرخون في الظلمة، وكل دقيقة تأخير، كل كلمة احتجاج، وحتى النظرة كان يقابلها في الطريق عقاب.

ـ عصّبوا عينيه، وضعوا رأسه في الكيس.

يمكن للانسان ان يحتمل كل شيء. حتى الضربات التائهة التي لا يعرف من أين تأتي، يمكن للجسد أن يتحداها. سقطت مرات كثيرة من الضربات. كنت أظل على الأرض، لكي أتعبهم وهم يرفعونني. كنت أتباطأ أثناء الوقوف لكي أدمّر أعصابهم. وتتوالى الضربات. بالأيدي، بالأحذية، بالعصي. كانوا يضربونني على وجهي، ثم مباشرة على ساقي. يضربونني لكمات على بطني، فإذا شدّدت عضلات بطني تحسباً للضربات التي ستأتي، أسمع وشيشاً في أذني ثم أحس لهباً ينفجر من خصيتي!

ـ ألا تعترف؟

ـ ماذا تريدونني أن أقول؟

ـ قل كل شيء في بطنك يا ابن القحبة!

وأبدأ:

ـ ١، ٢، ٣، ٤.

وقبل أن أصل الى الخمسة أحس الأرض رخوة، وأحسّها تدور. كانوا في البداية يتضايقون من أية كلمة أقولها. وقرّرت أن أصمت. بدأت ألمح في وجوههم آثار الصمت: دامية مفزعة.

ـ قل كل شيء. اصرخ، اشتم، أمّا أن تبقى صامتاً فهذا لن نسمح به ابداً.

ـ القطط يا محمد.

وضعوني في كيس كبير، ادخلوه في رأسي، وقبل ان يربطوه من أسفل، ادخلوا قطتين. هل يمكن للانسان ان يتحول الى عدو للحيوان؟ والقطط ماذا تريد منّي؟ كانت يداي مربوطتين الى الخلف، كنت مستلقياً على وجهي أول الأمر، وكلما ضربوا القطط وبدأت تنهشني، وحاولت أن أنقلب على جانبي، أحس برجل ثقيلة فوق كتفي، على وجهي، وأحس الأظافر تنغرز في كل ناحية من جسدي. لما فكُّوا الكيس، كنت أريد أن أرى القطط، كنت أريد ان أحفظ صور أعدائي الجدد. تراكضت القطط المذعورة، كأنها خرجت من الجحيم. كنت دامي الوجه وأحسست بالنزف من عيني اليسرى.

ضحكوا كثيراً، لما رأوا دمائي. استلقى نوري على ظهره، كان يضحك من الفرح واللذة، وبعد ان مسح عينيه من آثار الدموع، قال لي:

ـ ما رأيك بهذه الحفلة؟ ألا تعترف؟

لم أستطع ان أجيب. كان جسمي يلتهب. يتمزق من الألم. لا أعرف هل حركت كتفي، أم تصورت ذلك، قال لي وهو يجرّني ناحية الباب:

ـ عندي آلاف الوسائل التي تجعلك تتكلم مثل ببغاء. هل تتكلم، أم تريد أن تجرّب؟

كنت في ذلك الوقت مستعداً لأي شيء، ليفعل نوري ما يريد، سوف أقتله بصمتي، يجب أن أعاقبه بالطريقة التي تقتله.

أمسك أصابعي بقوة، ودفعها بين شقي الباب وبدأ يغلقه بهدوء. لما صرخت بصق في وجهي، قال بتشفٍ:

ـ هل رأيت؟ هذه واحدة من ألف!

ـ لا تتعب نفسك يا نوري.. لن تظفر بكلمة.

كان يجب أن أظل صامتاً!

ـ والله يا ابن الكلب، يا...[1] سأجعلك تتكلم في نومك...

ـ حاول!

هل كانت تلك أقسى الليالي؟ أطولها؟ جرَّب نوري كل الوسائل، وضعني خلف درفة الباب المفتوحة، وضرب الدرفة بقوة اول مرة. أحسست رأسي ينفجر، شعرت أنَّ اضلاعي تخرج من عيني ولم يسألني شيئاً، بدأ يغلق الباب بهدوء، وشعرت ان اضلاعي تتكسر، لم أعد اقوى على التنفس، شهقت عدة مرات من الألم ومن الرغبة في ان أعب الهواء قبل ان انتهي.

ـ هذه بداية.. ماذا تقول؟

لم يكن ينتظر جواباً، كان يريدني أن أمر على جميع وسائل التعذيب قبل ان يسألني. قال لي:

ـ سأجعلك هذه الليلة اعجوبة. لا أريد منك كلمة واحدة، وسأرفض غداً، وبعد غد، استقبالك، لا أريدك ان تتكلم من الألم، أريدك ان تقول كل شيء وأنت مرتاح تماماً!

لو طلب منّي ان أنزع ملابسي تلك الليلة، لما فعلت. قرّرت دخول الرهان مع نوري حتى نهايته، ولو دفعت حياتي ثمناً لهذا الرهان. قال لعبد:

ـ انزع ملابسه وحضّر الحبل.

---

(١) كلمة قبيحة جداً.

كانت مقاومة بائسة أقرب الى العبث، بعد دقيقة او دقيقتين وجدت ملابسي كومة الى جانبي وأنفاس عبد تلهث في ظهري، وهو يشد الحبل حول يدي. ماذا يستطيع هذا الخنزير أن يفعل؟ البكارة؟ أن يدعو عشرة من حراسه ويفعلوا ما يشاؤون... هذا أقصى ما يستطيع. سمعت القصة أكثر من مرة. هدّدني نوري أكثر من مرة، قرّرت ان أموت تلك الليلة. ليفعل نوري أي شيء. لم أعد أطيق ان أظل حياً يوماً واحداً.

أية روح أبالسة يمكن أن تعيش في الانسان؟ لا أريد أن أتصور أي وصف، أية كلمة لأقول ان نوري هو كذلك.

أمسك مثل طبيب بخصيتي. بدأ يضغط بهدوء أول الأمر، ثم شدّهما بعنف إلى أسفل، أحسست بروحي تخرج من حلقي، لا يمكن لانسان احتمال هذا الألم كله، تركهما.

أحسست بهما ثقيلتين، متدليتين كأنهما أجزاء زائدة غريبة، وبدأ يتسرب الألم إلى أمعائي حاداً مثل سيخ النار. لا أعرف من أين أتى بذلك الدبوس الكبير، كان أكبر دبوس رأيته في حياتي. أشعل عود ثقاب، اشعل سيجارة ووضع الدبوس فوقها. تمنيت في تلك اللحظة لو يغرسه في قلبي. لو فعل لانتهى كل شيء. لكن ابليس المجنون العابث لا يريد أن يقتلني. من جديد رأيته يمسك خصيتي ويغرز الدبوس الأحمر. أي إله يمكن أن يكون في هذا الكون ويرى؟

الانسان هو الاله. بصقت في وجهه من الألم والتحدّي. كنت أريد أن أفعل اي شيء قبل أن أموت. لقد فعل نوري كل شيء، ألا أستطيع أن أرد عليه مرة واحدة؟

أحسست بجراحي تزغرد من الفرح لما رأيت البصقة تنحدر

بهدوء من عينيه الى خده، قريباً من الأنف. أذهلته المفاجأة، لم يستطع ان يفعل شيئاً أول الأمر، ثم لما أحسَّ بالبصقة تقترب من فمه، مسحها بظهر يده. كان مجنوناً في تلك اللحظة. ضربني بحذائه على وجهي، ما تزال العلامة باقية حتى الآن، ضربني على بطني، ضربني بيديه وقدميه، حتى تعب. كان الآخرون يتابعون دون ان يقولوا كلمة، لكن عندما جلس، هزَّ رأسه بطريقة معينة، تأكّدت بعدها ان حياتي انتهت. انقضّ عليٍّ عبد وأبو خيري، انقضَّا مثل وحوش مجنونة، وكأنَّهما ينتظران تلك الاشارة. أتذكّر ان وجهي اصطدم بالحائط وبدأت الدماء تغسلني، ولا أتذكر بعد ذلك إلاّ ويداي مربوطتان بالسقف وأتدلى!

أشيلوس، يا بقرة بيضاء مقطوعة السيقان، ألا تعرفين كم مرة يموت الانسان وكم مرة يولد؟ التفتي الى الشاطىء الشرقي، لتغرز دموعك في الأماكن المظلمة، وانظري بقايا البشر: الضحايا والجلادين. بقايا البشر!

احذري يا أشيلوس ان عدت يوماً للشاطىء الشرقي، سيجدون لك سرداباً أصغر من القبر، وهناك يجب أن تقاومي الجنون والوحدة، لقد جنت المخلوقات هناك. القطط مجنونة لا تقترب من البشر، لا تهرهر مثل قطط المناطق الأخرى، تجفل من الخطوة، من قطعة الخبز، ونداء الحرية عندها أقوى من نداء الجوع. لقد جنت القطط تماماً، والبشر المجانين يلاحقون القطط، يقبضون عليها، يدخلونها في الأكياس مع البشر، يضربونها ويضربون البشر، تموء، تصرخ، تمزق بمخالبها كل شيء!

ليست القطط وحدها المجنونة يا أشيلوس: الكلاب والعصافير جنت ايضاً.

آه لشد ما هم منحدرون. منحدرون وجبناء. أليس لهم أخوة؟ زوجات؟ وأطفالهم، هل تعرف هذه الأيدي ان تحمل الأطفال مثل باقات الورود وتداعبها؟ لا أصدّق ان يداً مثل هذه أعدّت لشيء غير ان تضرب وتضرب وتضرب.

السويدية التي تحمل من شاطىء المتوسط الشرقي ثلاثة كناريات صفراء في قفص كبير، ابتسمت لي امس لما رأتني انظر الى طيورها بدهشة. ظلت تراقبني من بعيد، ولم تقل شيئاً. هل هذه الطيور شبيهة بتلك التي كان نوري يعلقها في غرفته؟ الألوان، المناقير، خفقات الأجنحة، تكاد تكون نفسها، ربما كانت هذه أبناء لتلك، نعم يمكن ان تكون.

كان نوري قصيراً، واسع العينين، شفته السفلى ثقيلة مرتخية، أمّا الأذنان فقد اكتسبتا حمرة معربدة. كان اذا خلع سترته وبان كرشه بدا أقصر، أمّا اذا رفع أكمام القميص، حتى الساعد، فإنَّ الشعر الأسود الغزير يتدفق كشلال على يديه، وكان بهاتين اليدين القصيرتين ينثر الحبوب في قفص الطيور، وكان بهاتين اليدين يغمس رأسي في الماء، فأحس اثقالاً لا حدود لها تجثم فوقي، حتى اذا كدت اختنق، جرَّ شعري بقوة ثور، وقبل ان أشهق شهقتي الثانية أحس من جديد ثقل الماء رصاصياً كاوياً وهو يضرب وجهي مرة أخرى!

اشيلوس، هل تقولين لهذه السويدية التي تنام الآن في فراش دافىء وتحلم بطيورها، إنّي أكره كل الطيور، وان نظرات الأمس كانت تشفياً ملعوناً؟ هل تقولين لها يا أشيلوس؟

كانت الطيور تغرد اذا دخلنا، كانت تنتقل من طرف القفص الى الطرف الآخر، وتنظر الينا بسخرية، تلتقط الحب وتقفز، كانت هكذا، حتى ونحن نضرب. التفت مرة وانا مُلقى على الأرض ويداي

معصوبتان تحت ظهري. كنت أتمزق من الألم، كنت أريد أن أبكي، رأيتها ما تزال تقفز، هل كانت تقفز من الخوف، من الفرح؟ كانت تقفز، تغرد. نوري يحب طيوره، يطعمها بيديه، يقف طويلاً يتأمل ريشها الأصفر، مناقيرها التي تنغمس في فنجان الماء الأبيض، كانت ابتسامة شديدة الفرح تطفو على وجهه وهو يرقبها!

- اكتب يا ابن القحبة.. غيّر خطّك كيفما تشاء، سأعرف كيف التقطك مثل جرذ. لا تنقري، خذي الحب دون ان تنقري. اتركيه يأكل، ابتعدي أنت، هل أنت حاضر؟ اكتب!

كل شيء له رائحة القيء. الكناري، عبد الطويل والذي تشابه يده سمكة كبيرة ثقيلة، حاتم المعروق الوجه، نوري بالضحكة المدوية، عندما يسخر، عندما يتحدى، حتى دمائي قبل أن تجف كانت لها رائحة القيء.

وأنت يا أشيلوس، ألا تسألين هذه السويدية مرة أخرى، لماذا الأقفاص الكبيرة؟ كنارياتها الصفراء المتبجحة، توضع كلها وعشرات مثلها في ركن من القفص، وهذا الفضاء اللامتناهي الباقي من القفص، ماذا تفعل به؟

لما وضعنا في تلك الغرفة، شعرت أنّي أولد من جديد. منذ سبعة شهور لم أرَ انساناً غير هؤلاء القتلة. كنت في القبو أُحارب الجنون. أمسكت مرة نملة سوداء كبيرة، قدمت لها رغيفي كله، وضعت امامها قدح الماء، وقلت لها بصوت حاسم مليء بالرغبة:

- لن أتركك الآن. ستبقين هنا ثلاثة أيام، أنت ضيفي، بعد ثلاثة أيام يمكن أن نتحدث.

لما رأيتها تبتعد عن رغيف الخبز، حملتها من جديد ووضعتها

فوقه. بدأت تنزلق، تريد أن تبتعد. صرخت:

- ألا تعرفين العادة أيّتها النملة المقدسة، يا ضيف الله؟ الضيافة ثلاثة أيام. قولي عنّي ما تشائين. قولي نوري أو عبد، قولي جلّاد وكافر، قولي، فأنا لا أسمع إلاّ ما أريد.

لم احتمل ان أحبس النملة عندما أصبحت قريبة من الشق، قلت لها وأنا أراها تتسلق الحافة:

- يجب ان لا تبقي وحيدة، لو ظللت هنا لكنت صديقك، احذري ان تقتربي ناحية الجنوب، هناك لا يعرفون معنى الصداقة، وليس لهم أصدقاء. اذا ضقت من قبوي، فاذهبي هذه الناحية، ناحية الشمال، هناك تجدين الأصدقاء!

سألتني الصغيرة وهي تقترب منّي:

- هل أصابك الدوار؟ لم نرك منذ الصباح؟

قلت وأنا أسحب عيني عن وجهها اللذيذ:

- اشعر بالغثيان، لكن ما زلت احتمل.

- يبدو انك معتاد؟

- لما كنت صغيراً كنت أقضي ساعات طويلة مع خالي في البحيرة نصطاد السمك.

- والبحر، ألم تركب سفينة قبل هذه المرة؟

- هذه أول مرة.. وأنت؟

- أول مرة!

- هل تشعرين بالدوار؟

- لم أنم طوال الليل، اخطأت اذ لم استعمل الدواء. تصورت

أنّي احتمل، لكن اليوم لم آكل إلاّ قليلاً وأخذت حبة دواء!

ـ وكيف تشعرين الآن؟

ـ أشعر أنّي مرتاحة، سأنام باكراً.

انعقدت عند الغروب حلقة الرقص. بعد ساعتين نصل البيريه. اشيلوس البقرة البيضاء المقطوعة السيقان، تعاند البحر، تقهره، لم تتأخر في رحلتها إلاّ مثلما يتأخر حاتم في فتح باب القبو، كنت أسمع مفاتيحه، كنت أنتظر، وبعد ان يعالج الباب ينفتح، كانت تداهمني أشعة الضوء المغروسة فوق الباب، ولا أرى إلا ظلالاً.

حفلة الرقص مجنونة. الطفلة بعيون مليئة بالدهشة، انسحب في ظلال المساء بعيداً، أصبح تحت السماء. مطر صغير مغزول من القطن، ولا تراه العين إلاّ في شبح الأضواء المنثورة على السفينة. أشيلوس تجاهد لكي تصل، تعذبها لحظات الانتظار الباقية، تفترس نفسها بشكل ما، تحقيقاً لرغبات مبهمة.

الأقفاص الكبيرة، الدوار، النوم الباكر، وأي شيء آخر؟

كنا أربعة عشر رجلاً. أربعة عشر. نعم أربعة عشر. الغرفة لا يمكن ان تستقبلنا إلاّ وقوفاً، وقوفاً تماماً. كانت الأجساد متراصة، رائحة العرق، رائحة الأفواه، الشعور الطويلة، الأظافر السوداء من بقع الدم المتخثرة تحتها، على هذه المسافات المتناهية الدقة لا يمكن للانسان ان يرى شيئاً. طرف الوجه قطعة لحم صمّاء لا تعني وجهاً او جزءاً من وجه، الأنف كتلة كبيرة تنتفخ وتتقلص في محاولة لأن تسحب الهواء، والشفاه رغم كل شيء تنفرج عن أسنان يخيم على أقسامها السفلى سواد الدخان، ويخيم على أقسامها العليا السواد المصفر. لكن كنا اربعة عشر رجلاً، وأن يكون الانسان داخل هذه

الكتلة من البشر ينتابه فرح أخرس، كل هؤلاء بشر، بشر حقيقيون، حقيقيون تماماً: أنفاسهم، الحركة المتموجة، الضحكة الصغيرة، كنا بشراً حقيقيين، كنا أربعة عشر.

هل انتهت فترة التوقيف المنفرد؟ هل احتملت كل هذه المدة؟ لا أُصدّق.

رأيت تحت المظلة، قريباً من مقدمة أشيلوس، رجلاً يضع على أذنه راديو صغيراً!

الأخبار؟ انتظر، انتظر، سيطول الانتظار أيُّها المسافر، ستموت قبل ان تسمع الكلمات التي تنتظرها. شاطىء المتوسط الشرقي لا يلد إلاّ المسوخ والجراء، وأنت تنتظر الخيول والسيوف! انتظر، سيظل ذاك الشاطىء يقذف كل يوم عشرات الجراء، مئات الجراء، وحتى لو وصلت أعدادهم إلى الآلاف، فستظل جراء تعوي في السراديب، أو تموت في المزابل، لأنها تريد ذلك!

اسمع الأخبار، وحدك، لا أريد ان أسمع. يكفيني ما سمعت!

كانوا يوقفون التعذيب عندما تحين ساعة الاخبار. كانوا يحرصون على أن يسمعوا مقدمة النشرة، حتى اذا اطمأنت وجوههم، اداروا المفتاح، وبدأت الموسيقى من جديد!

آه.. لو ظلَّ الشاطىء الشرقي للمتوسط بركة للتماسيح، ولو ظلَّت الكهرباء بعيدة، لكن جاءت هذه اللعنة لكي تقتل البشر.

أمجد يتذكر تلك الليلة، كان يتذكرها بعد ثلاث سنين. لم ينسها أبداً، انحفرت في رأسه مثل تاريخ على شجرة قديمة، على جدار دير. لما سألناه مرة عن تاريخ ميلاده، حاول أن يتذكر. قال ١٢ أيار، ثم استدرك وقال ٢٧ نيسان. لما سألناه أي التاريخين هو

الحقيقي؟ قال: التاريخ الحقيقي الوحيد: ٢١ تشرين الثاني، هذا هو التاريخ.

الكهرباء، الموت الحقيقي، ينخض القلب ثم يموت. كانوا يضعون التيار على الأكتاف، قريباً من القلب، فوق الأنف، بين الاليتين.. وينتفض القلب، يترنح، يتوقف، ويتوقفون.. مئات المرات فعلوا ذلك. لو أنهم شرفاء لدرجة كافية لوضعوه ثانية أخرى وانتهى الأمر. لكنهم لا يفعلون.

قال أمجد: آخر مرة كانت ٢١ تشرين الثاني، هذا آخر تاريخ لميلادي، وما عداه كذب أزرق!

التلفزيون، المراوح، الثلاجات، الفواكه المعصورة، أي شيء يمكن ان تولده الكهرباء؟ أن تمنحه الحياة؟ شكراً لله اني لا أعرف أسرار هذا المخلوق العجيب، لو عرفت الاستعمالات التي تمتد اليها الكهرباء لصعقت من الخوف، لأنّي لم أمتحن إلاّ استعمالاً واحداً: الارتجاف، الاحساس الحاد المتوتر بأن كل شيء قد انتهى، ثم والمياه تصفعني، وارتعش رعشة الحياة هذه المرة، وما ان أجر أنفاسي الى الداخل، لكي أتأكّد ان رئتيّ ما تزالان تستقبلان الهواء حتى أشعر بالارتجاف من جديد، احسه كاوياً مجنوناً، وأغيب. وما تكاد رعشة الحياة تعاودني مرة أخرى، وأتنفس الهواء الى الداخل حتى أغيب.

أشيلوس ترقص، رقصة الديوك المذبوحة. الفرح في قلب الانسان مغارة لا تعرف الامتلاء، لكن يا أشيلوس التي ترمين بقايا الأكل الى البحر، كما ترمين البشر في الموانىء، ألم تعرفي الجوع، ساعات الانتظار الممضة؟ يجب أن يتعلم الانسان، ان يتعلم باستمرار!

يجب ان يستقبل الكهرباء مثلما يستقبل الرجل المرأة، ان يذوب فيها بصمت، ان يترنح ولا يموت. قال لي نوري، وأنا موثق ومُلقى أمامه:

ـ نريدك الآن أن تقول الأشياء الأخيرة، اذا كانت لك رغبة او رسالة!

نظرت اليه ولم أجب. كان كتفي مكسوراً بعد ان وقف عليه عبد بكل ثقله، ولم يعد يهمني أي شيء. كنت أعرف ان الموت هو الراحة الكبرى التي يمكن ان اصلها، وكنت انتظر هذه الراحة بلهفة مسحورة.

قال لي وهو يخرج ورقة مطبوعة من جيبه:

ـ اذا لم تصدّق، انظر.

قرَّب الورقة من وجهي، لكن لم اقرأ شيئاً. لاحظ ذلك، قال وهو يعتدل في وقفته:

سأقرأ عليك: بعد استكمال التحقيق وتوفر الأدلة بخصوص الموقوفين التالية اسماؤهم، تقرر تنفيذ حكم الاعدام رمياً بالرصاص...

وقرأ الأسماء.. سمعت اسمي، كان الثالث.

توقفت مشاعري كلها، لم أستطع ان أتحرك، وحتى لو أردت، فقد كانت أية حركة مستحيلة. دفعني بقدمه، لم أحس إلا وجسمي يتقلص بحركة تشنج لا إرادية، وعاد إلى السؤال من جديد:

ـ أية رغبات؟ اية أوامر؟ أنت تعرف ان المحكومين بالاعدام يسألونهم ان كانت لديهم رغبات، أتعرف ذلك؟

لم أجب.

بصق في وجهي وقد تغيّرت هيئته كلها، صرخ:

ـ ألا تُصدّق؟ يجب ان تُصدّق يا ابن البيت العمومي! يا ابن القحبة!

ربطوا عيني، لا أدري مَن حملني، لكن أحسست بأيدٍ قاسية ترفعني عن الأرض، كنت مستسلماً، لأنّي لا أستطع غير ذلك.

هدرت السيارة وسارت، قطعت مسافة كبيرة، ثم توقفت. حملوني، انزلوني، سمعت أصوات السلاح، كانت الطلقة وهي تدخل بيت النار، لها صدى ساخر. سمعت الرجال الذين حولي يتكلمون بصوت منخفض. لم أكن أريد أن أسمع، الألم يجزرني، عيناي تحت العصابة كتل من الألم الساحق، أسناني، وكتفي المكسور كان يجعل تنفسي عسيراً مرهقاً، ليكن أي شيء. الموت؟ لكن هل أموت فعلاً؟ هل يقتلونني؟ ماذا فعلت؟

كنت أريد أن أصرخ. أن أقول افعلوا ما شئتم أيها القتلة. لكن أصوات السلاح وهي تتحرك بين أيديهم ارغمتني على السكوت. أصوات السلاح والألم. ولكن هل أموت دون كلمة؟ يجب أن أفعل شيئاً قبل الموت، كنت فرحاً وأنا أرى البصقة تنزلق على وجه نوري. شعرت في ذلك الوقت أنّي فعلت كل ما استطيع. والآن؟ أأتركهم يقتلونني مثل كلب دون ان أقول كلمة واحدة؟ وما فائدة اية كلمة أقولها الآن؟ ومَن يسمعني؟ وماذا لو سمعني العالم كله؟ ألم يقرأ نوري عليّ الحكم قبل قليل؟ ألم يردّد اسمي مرتين لكي أتأكّد؟ كان من الواجب ان اطلع على الورقة بنفسي. هؤلاء الناس يكذبون، لا يتقنون شيئاً أكثر من الكذب! قل كلمة اخيرة يا رجب، يجب ألاّ تموت مثل كلب، دون كلمة احتجاج، ودون صرخة،

ولتكن صرختك قوية تخلع قلوبهم، لن يستطيعوا ان يفعلوا أكثر من أن يقتلوك، هذا أقصى ما يستطيعون!

سمعت طلقة من مكان بعيد. ساد الصمت. كنت معصوب العينين على الأرض. هل يقتلونني وأنا في هذا الوضع، ألا يربطونني الى عمود؟ ألا يوقفونني الى جانب الجدار؟ ليست هذه هي الطريقة التي يتبعونها في القتل، لكنهم لا يتبعون طريقة بذاتها، كل طريقة تؤدّي الى الموت، مناسبة لهم. وماذا يهمني أن أموت هكذا أو أن أُربط الى عمود؟

لمّا نادى ابو خيري عرفت صوته. يبدو انه اشار بيده، ثم نادى:

ـ احملوهم الى ساحة التنفيذ.. تعالوا.

والطلقة، هل قتلت أحداً؟ حياة مَن انتهت؟ الدم ينزف، بركة دم كبيرة، رعشات ثم ينتهي الأمر. وهل احضروا كل الذين ذكر اسماءهم نوري؟ يجب ان أتذكر. سمعت اسماء: زكي، حسين، ووليد.. ومَن أيضاً؟ كان من الواجب ان اصغي، ان أحفظ الأسماء، ان أتذكرهم: زكي بوجهه المجدور، والشارب الكثيف، هل كسروا نظاراته؟ ألا تزال يده تمتد اليها كل لحظة لتثبتها؟ ووليد انه لا يحتمل، له كلية واحدة، كنا نسميه نصف رجل، هل صمد كل هذه الفترة وعذَّبهم أكثر مما عذبوه؟

كان وليد لا يترك لأحد ان يتكلم. كان يقول: «هذه القصة أعرفها، هذه النكتة أعرفها، اسمعوا».. كان يحارب ببسالة لكي يستمر دائماً في الحديث. لو انه تكلم لما ساقوه الى هنا. ربما قال لنفسه: تكلمت قبل السجن أكثر مما يجب، والآن يجب ان اصمت.

لو تكلم لما جاء الآن، لما صدر عليه حكم الاعدام.

أيعرف هادي كم نحن صامدون؟ سيقول له احد، سيعرف.

اشيلوس... انت سفينة الحرية، سفينة لها مائة باب، لا ترجعي، اقفزي دائماً إلى الأمام، ويل لك اذا أمسكوا بك يوماً، اذا قبضوا عليك لا بدَّ وأن يفعلوا بك شيئاً، كانوا يفعلون، اذا صمت، اذا تكلمت، اذا نظرت، اذا لم تنظري. كانوا يجدون سبباً لما يفعلون.

ولكن مَن يسألهم عن السبب؟

- لماذا تنظر هكذا يا ابن الزانية؟ أتتحدى؟ اضربوه، علّقوه.

- لماذا لا تنظر إليّ عندما أسألك؟ أتتظاهر بالعفة والخجل يا...[1] عدّل وجهه يا عبد، علّمه كيف ينظر!

- أحك يا ابن القحبة. يجب ان تحكي كل شيء.

- اخرس، سأدوس رأسك وأملأ حلقك...[2] أتفهم؟

كانوا كباراً، عمالقة من خشب. وكنا ضامرين، نئن، نصمت، نريد لحظة لنغفو، كنا نتلهف لكلمة من العالم الآخر.

في الأيام الأولى كنت أسأل نفسي مئات المرات: والعالم الخارجي، ألا يزال موجوداً؟ والمقاهي أتستقبل البشر؟ ودور السينما ألا تزال الحفلتان في المساء، الأولى في السادسة والثانية في التاسعة؟ والشوارع والأضواء ورجل ينتظر امرأة على محطة الباص؟

تصورت العالم الخارجي في لحظات معينة يتوقف، ينتهي. حزنت أكثر، وكدت أموت لمّا علمت بموت أمي. رأيت أنيسة،

---

(١) شتيمة.

(٢) كلمة قبيحة.

كانت هالات سوداء حول عينيها، رأيت الخطر أوضح من قضبان الحديد التي كانت تفصلنا. قلت لها مثل ذئب جريح:

- أين أمّي يا أنيسة؟

صمتت، ثم بكت. كان بكاؤها مثل صرخة مفاجئة في الظلمة. في ذاك المساء بكيت، ضربت رأسي بالجدار، وظننت أني لن أعيش، ولكن الأيام تدفقت بعد ذلك وواصلت الحياة.

الانسان أقوى من قطة. يموت ولا يموت، عيب الانسان في جسده، اذا ضعف الجسد، اذا تهاوى، سقطت روح الانسان، تفتتت ارادته. ولكن كيف يستطيع الجسد ان يسقط؟ كانت عيوني تثقب أجسامهم، تجعلها تتلوى من الحقد. كنت أقوى منهم مئات المرات. لم يُبقوا معي شيئاً: أخذوا الحزام، قيطان الحذاء، رباط العنق. كانوا يخافون ان انتحر! هكذا قال لي السجناء فيما بعد، لا.. لا لن تفرحوا. أنتم الذين تقتلون، السجناء لا ينتحرون، اكتبوا: انتحار هادي ابو الليل. هادي لا يموت. كنا قريبين. لما رأونا على الشباك وهم يقودون هادي، هجموا علينا مثل ذئاب جائعة. ضربونا، انزلونا الى القبو، كنا ثمانية. كان القبو صغيراً، صغيراً، لم نجلس ولم ننم، كنا نريد ان نسمع صوت هادي. آخر الليل سمعنا ثلاث طلقات. لم نكن نائمين عندما سمعنا الطلقات. قلنا لخليل الذي يسمع دبيب النمل:

- اسمع يا خليل وقل لنا ماذا تسمع.

كان الليل كثيفاً مدهشاً: الصمت ورنين الأحذية. هذا ما كنا نسمعه، أمّا خليل، فقد بكى. رمى نفسه بيننا وبكى. لم يستطع ان يقول كلمة واحدة. حزنا تلك الليلة حتى كدنا نُجنّ، كانت الأضواء المشربة بالصمت تتكوم فوقنا، تتسلل من الشق القريب في السقف.

في ذلك الوقت المليء بالخشوع والارتجاف، قال لنا خليل:

- قتلوا هادي...

- لا يمكن أن يقتلوا هادي...

- أقول لكم قتلوه!

- كيف عرفت؟

- أقول لكم قتلوه... قتلوه!

وبكى من جديد!

لم نسأل خليل بعد ذلك، ولم يتكلم. لكن بعد ان انقضت ثلاثة أيام، ورأينا الوجوه معتكرة عصبية، وكان البرد أقسى من ان تتحمله أجسامنا التي عافت الطعام، قال لنا خليل ونحن نأكل:

- سمعت همساتهم، بعد الطلقات، كانت همسات خائفة مجلّلة بالرعب. كانوا يتراكضون على رؤوس أصابعهم. قالوا وهم يتراكضون: احضروا كيساً كبيراً.. سنضعه في الكيس ونضع معه الحجارة ونلقيه في النهر.

- وماذا ايضاً يا خليل؟

- خذوه الآن، ضعوه في المرحاض، لكي نسأل الآغا ماذا يجب أن نفعل!

- هل سمعت هذا يا خليل؟

- وسمعت نوري يقول: احضروا ماء وامسحوا بقع الدماء!

- لا لم يقتلوا هادي، أنت تتوهم!

- قتلوه.. قتلوه.. قتلوه...

وبكى خليل مثل طفل. وبكينا.

(٤)

انقضت ثلاثة شهور، تلقيت خلالها رسالتين وثلاث بطاقات بريدية. أرسل رجب البطاقة الأولى من اليونان، لأول مرة أقرأ كلمات رجب بعد سنين طويلة. قرأت رسالتين أو ثلاثاً كتبها حين كان في السجن. وبعد ذلك لم يكتب.

قرأت البطاقة وبكيت. تأكّدت ان رجب أصبح بعيداً، بعيداً جداً. كانت البطاقة بعنوان حامد، لكن وجّهها الينا كلنا أعزائي، أثينا تغرق في الضباب الناعم. مطر هادىء في نهاية الليل، أمّا في الصباح فالضباب والنقاء. كل شيء مغسول، ويكاد يضحك.

أتمنى لو اقضي هنا فترة طويلة، لكن لم يبق للباخرة إلاّ ثلاث ساعات وترحل من جديد. صادفت عدداً من الناس يتكلمون اللغة العربية، يتكلمونها بلهجة مصرية لذيذة، لا أعتبر نفسي اني قد رأيت أثينا، لأن العشر ساعات لا تكفي.

تحياتي الحارة جداً. سأكتب قريباً

ولم استطع ان أميّز توقيعه. كان في زاوية البطاقة، غامضاً، حتى ان الشك راودني في ان لا يكون رجب هو الذي كتبها.

المرأة تفكّر بالأشياء الحزينة. اذا لم تجد ما يكفيها من الحزن، بحثت عنه عند الآخرين!

كانت الأيام الأولى بعد السفر شقية.

استدعوا حامد الى التحقيق، واستبقوه منذ الصباح حتى منتصف الليل، وبعد ان تركوه فترة طويلة دون أسئلة ودون أكل انتبهوا لوجوده، وكأنهم فوجئوا بالاكتشاف، كما قال، وسألوه نفس الأسئلة: مَن زار رجب؟ مَن اتصل به؟ إلى أين ذهب؟ هل نام خارج البيت؟

أجابهم بهدوء وصدق، لأنهم يعرفون الاجابات دون أن يسألوا احداً، وبعد ان انتهت المرحلة الأولى من الأسئلة، قالوا له:

ـ انت تعرف ان رجب ترك السياسة، ولم تعد له علاقات إلاَّ معنا، لكن مع ذلك، يجب ان تتأكّد ان كل شيء متوقف على سلوكه، لا يظن انه أصبح بعيداً، وان أيدينا لا تصل اليه. لا، اذا فكَّر هكذا يخطىء كثيراً. وانت، ستسأل عن كل شيء في المستقبل، انت كفلته، ألم تكفله؟

ولم ينته الأمر عند هذا الحد، تركوه يعود الى البيت عند منتصف الليل، وطلبوا منه العودة يوم السبت.

حاول ان يظل طبيعياً في الأيام الأولى، لكني لاحظت ان أقل الأشياء بدأت تثيره وتدفعه إلى الغضب، وبدأ بعد ذلك يتكلم بحزن عن كل شيء، ولكن لم يكن أمامنا إلاَّ ان نبقى!

استدعاء حامد لم يكن الشيء الوحيد، أصيبت ليلى بالحصبة، وأخطأ الطبيب في تشخيص مرضها، مما هدّد حياتها لمدة ثلاثة أسابيع، أمَّا عادل فقد ضبطوا معه في المدرسة سكيناً صغيرة، قال انه هدَّد بها أحد الأولاد، وكاد يتطور الأمر، لولا ان حامداً قدَّم لمدير المدرسة تعهداً بأن لا يتكرّر الأمر، وقال له ان يطرده نهائياً لأتفه مخالفة يرتكبها!

المصائب اذا جاءت تجيء مرة واحدة، لم أكن أعرف كيف أتصرف. لكن مرض ليلى دفعني لأن أوجه لها كل اهتمامي، لقد أغرقت نفسي في عالم المرض، لكي أنسى الأشياء الأخرى.

كان ثاني ما تلقيناه من رجب رسالة وبطاقة بريدية، جاءتا معاً في نفس اليوم، قرأت البطاقة بسرعة، أمّا الرسالة، فقد قلت لحامد ان يتركها على الطاولة لكي اقرأها في وقت آخر. كنت أريد عالماً جديداً أغرق نفسي فيه، فقد مللت المرض والأحاديث الحزينة، وكنت واثقة ان رجب كتب شيئاً في رسالته قد يساعدني على النسيان!

في الليل المتأخر، وأنا أسهر الى جانب فراش ليلى، امتدت يدي الى الرسالة. انتزعتها من الغلاف بيد مرتجفة، وأفكاري تتيه وراء ذلك الطائر المهاجر. لقد نسيت ملامح رجب خلال فترة اسبوعين، أو هكذا بدا لي. وحاولت مرات كثيرة ان استجمع في ذاكرتي صورته. لكن تلك اللحظة اللعينة وأنا أراه يضرب رأسه بالحائط سيطرت عليّ لدرجة لم أستطع تصوره بصورة أخرى، بكيت وأنا أقرأ الكلمات الأولى.

قال انه كتب الرسالة في الباخرة، وسوف يرسلها من ميلانو. تحدّث عن المهاجرين والبحر، تحدّث عن الباخرة الكبيرة التي تضم عدداً كبيراً من البشر من جنسيات مختلفة، وقال انه لا يشعر بالملل، لكن يحس كل شيء حوله غريباً وانه لا يستطيع التلاؤم مع هذه الحياة الجديدة، ثم عاد واستدرك، فقال ان حياة الباخرة مؤقتة، ولا تمثل شيئاً من الحياة التي ينتظرها.

بكيت وأنا أقرأ اعتذاره الغامض عن الأخطاء والاساءات التي ارتكبها خلال الفترة الماضية، وذكر شجرة الحور والليلة

الأخيرة. لم يتحدث عن ذلك إلاّ بكلمات قليلة غامضة، أحسست وأنا أقرأها، انه يعني اموراً اخرى، ولا أدري لماذا تصورت انه يفكّر بالسجن وموت أمي. ان هذين الأمرين هما اللذان يخيمان على رأسه مثل أشباح، ولكنه لا يقولها، او بالأحرى لا يستطيع... أو لا يريد! وقال ايضاً ان تخلّي هدى عنه حين كان سجيناً جرحه، وانه بعد ذلك لم يعد يثق بالنساء، لكن كيف حصل الأمر؟ حصل الأمر كأنّه قدر، لم يستطع أحد أن يفعل شيئاً ليمنعه.

كانت هدى تزورنا كثيراً خلال الفترة الأولى بعد السجن، كنا نتحدث عن رجب، كما لو انه سيأتي بعد ساعة، سيطرق الباب فجأة ويدخل. كانت في البداية تتحدث عنه دون ان تذكر اسمه، وقد احمر وجهها مرات عديدة وأنا أنظر في عينيها وأسألها ان كانت تحبه لهذه الدرجة، لكن في وقت لاحق، بعد ان أصبح رجب البعيد. ملحنا اليومي، بدأت تتحدث عنه مباشرة، ولا تتردّد في أن أتذكر ان عينيه جميلتان رغم الحزن.

هكذا كانت الأمور في البداية: الرسائل، العناية بالملابس، والتذكّر المبهج.

في وقت آخر بدت هدى حزينة. رفضت ان تتكلم لما سألتها أول مرة، ورفضت في المرة الثانية. لكن لما ألححت عليها بكت. وضعت رأسها على كتفي وأخذت تبكي. أحسست ان في حياتها رجلاً جديداً. لم تقل لي، لكن المرأة تفهم المرأة الأخرى دون ان تسألها. أبعدتها عن كتفي وقلت لها:

- هل أساء اليك أحد يا هدى بسبب رجب؟

وظلّت صامتة وبقايا دموع في عينيها، حتى رأتني أبكي، ولا

أعرف لماذا بكيت فقد تجمعت الأحزان في قلبي فجأة وبكيت.

ولم تستطع ان تقاوم، انفجرت في نوبة من البكاء، وحتى تلك اللحظة لم أكن أظن أنَّ هدى تمتلك هذا المقدار من اللوعة والأحزان! ظللنا نبكي. لا أدري كم من الوقت، انقضى، لكن وجدتها أخيراً تتكلم الى نفسها أول الأمر، ثم تحدّثني.

انتهت تلك الأيام، تبدو لي الآن بعيدة وكأنَّها لم تقع ابداً، لكن بعض الكلمات التي قالتها تمر في ذاكرتي مثل أطياف.

أتذكر انها قالت: سأقتل نفسي يا أنيسة، لا أطيق أن يلمسني أحد، واذا أرغموني على أن أتزوج غير رجب، فلن يفرح بي رجل، سأقتل نفسي.

لا أعرف أية كلمات شيطانية انزلقت على لساني، عندما حاولت ان أُخفّف عنها، والآن أصبحت متأكدة، ان أسوأ شيء ان تسأل المرأة امرأة مثلها عن الذي تحب. هل كان عقلي هو الذي تكلم مع هدى؟ قلبي؟ هل كنت أخاف منها وأُحاول ان أدفعها بعيداً عنه؟ ان شيئاً في داخلي كان يتلوى من الفرح والألم، لم أستطع ادراكه تماماً، وحتى هذه اللحظة لا أعرف أية عواطف اختلطت، حتى دفعتني لأن أقول لها تلك الكلمات.

وهدى.. هل كانت تنتظر كلماتي لكي تتصرف؟

كانت تنتظر تبريراً، جسراً من الكلمات، لتعبر إلى الضفة الأخرى.

بعد ان لمتها كثيراً على الكلمات العمياء التي تدفعها لأن تتفوه بمثل هذه الكلمات، قلت لها:

ـ رجب بعيد لدرجة ان الأمنية الوحيدة هي ان اراه حياً في يوم من الأيام.

وقلت لها بلهجة أمتحن فيها مدى تعلّقها برجب، ومدى استعدادها لأن تفعل شيئاً:

ـ ماذا لو قلت لأهلك يا هدى؟ أتتصورين انهم سيمانعون؟

رأيت أطياف الخوف والدهشة في عينيها، اذ بمجرد ان مرَّت الفكرة في رأسها تروّعت، أما ان تواجه أباً وأربعة أخوة، وتقول لهم انها تحب رجلاً سجيناً وتريده زوجاً، فقد بدا لي الموت أهون عليها من ذلك بكثير!

أصبحت هدى بعد ذلك حزينة، زيارتها قصيرة، كلماتها عصبية، وتنتقل في البيت تائهة تبحث عن نفسها، حتى جاءت الفترة التي قرّرت فيها ان تبدأ رحلة جديدة.

قالت لي وهي تجرّني الى الحديقة وتبكي:

ـ لم أستطع أن أفعل شيئاً يا أنيسة، قال أبي لأبيه في الليلة الفائتة انه موافق.

انتظرت ان أقول لها كلمة، لكن لم أقل. صمت، وفي قلبي ذلك الرنين الملتهب من الفرح المتألم. قلت، أخاطب نفسي، وقد شعرت بثقة الأنبياء: النساء في بعض اللحظات يقلن كلمات كبيرة، لكن ما يقلنه مجرد كلمات، أنا الوحيدة، بعد أمي، التي تنتظر رجب، ويمكن أن أموت من أجله!

لما رأتني صامتة، وأفكاري تحفر الأرض، قالت بحزن:

ـ ماذا أفعل؟

ـ وأخوتك هل وافقوا؟

- كانوا موجودين، ولكن أبي هو كل شيء وهو الذي تكلم!

- ولكنهم أخوتك، ألا يقولون شيئاً؟ أليس لهم رأي؟

ومن جديد صمتت.

عندما جاء حامد، كان عمّي هو الذي تكلم، لكن عمّي لم يقل كلمة إلاّ بعد ان قال رجب الكلمة التي تشبه حد الموسى. كانت أمّي بصخب الأطفال توحي لرجب ان يقول كلمات معينة، ان يتحدّث عن المهر وعن الشروط، لكنه لم يسمع كلماتها. كنت في الغرفة المجاورة وسمعت ما قاله رجب.

- ليس عندنا غير أنيسة، ولا نريدها ان تتحول الى بضاعة ونساوم عليها. حامد رجل جيد وملائم لأنيسة، وما دام الأمر بهذا الشكل، فلتذهب اليه بثوبها، لا نريد شيئاً آخر!

قلت لهدى والرغبة في ان أدفعها لتسقط، تضغط على صدري:

- الآن. . في هذه الأيام، يجب ان يكون للمرأة رأي.

- ولكن ماذا أفعل يا أنيسة؟

- ألا تحبين رجب؟ ألم تقولي له انك ستنتظرينه؟

- ترين بعينيك ماذا حصل.

هززت كتفي وقلت بتحدٍ:

- لم أر شيئاً!

تناوبنا البكاء هذه المرة. وجدت نفسي أبكي، لا أعرف اية مشاعر طغت عليّ تلك اللحظة. أحسست ان رجب أُهين، وأنه لا يستحق هذه الاهانة. كنت قبل ذلك أتحدى هدى، أسخر منها، أدفعها لأن تقطع آخر الخيوط، وعذّبني ذلك السؤال الذي انطرح

أمامي مثل جثة: ومن أين لي الحق في دفعها لمثل هذا الاختيار الصعب؟ لتتزوج، لكن لتبق المودة بينها وبين رجب. الزواج غير الحب، وأنا أريد ان أدمّر هدى لكي تتوقف عن حبه!

انقضت أيام لم أرَ خلالها هدي، شعرت بالراحة والحقد يتناوبان عليّ تناوب حرارة الحمى وبرودتها. كنت في لحظات معينة أقول لنفسي: هدى ورجب عالمان التقيا بالصدفة، وسوف يفترقان، ليس بينهما لحظات التوحد، ولا يمكن لأحدهما ان يؤثر على الآخر، كان يحب العالم الصامت، اذا صحَّ لي ان استعمل مثل هذا التعبير، وكان يحب الكتاب والتأمّل، وحتى في لحظات كثيرة الحلم والخيال. أمّا هدى، فقد كانت تتحدث كثيراً عن الأسفار، وتحلم ببناء بيت له حديقة كبيرة، وانها ستتفرغ لرجب، كما كانت تقول!

هذا ما كنت أصل اليه أغلب الأحيان، فأشعر نتيجة لذلك ان افتراقهما كان ضرورياً، وانه الحل المناسب للاثنين معاً. كنت في لحظات اخرى، أجد نفسي أبكي وأنا أفكّر برجب، فقد خسر أُمّي وهو في السجن، عندما يخرج لن يجدها، سيتذكر المكان الذي تعودت ان تجلس فيه، الأشياء التي كانت تحبها، ورغم اني أقسمت مرات كثيرة ان لا أشعره لحظة واحدة بفقدها، فلا أعرف ان كنت قادرة على الوفاء.

وهدى تذهب الآن.

كان يتحول الى طفل كبير أثناء وجود هدى، يضحك بصخب، يساعدني في تحضير الأكل، يخيفنا ان خرجنا الى الظلمة، ولم تكن تلك الأمسيات البعيدة تخلو من مفاجآت!

أتذكر انه خبأ حذاء هدى ذات مرة، خبأه وخرج، حتى اذا

حلَّ الظلام بدأت هدى ترتجف خوفاً من ان تتأخّر، عرضت عليها أن تأخذ حذائي، رفضت بإصرار، قالت: ستظن أمي الظنون، وكادت تبكي من الخوف والغضب، حتى اذا تعبنا من البحث، ارسل ولداً صغيراً يحمل رسالة كتب فيها:

- «استعدي للمستقبل. ستضطرين للانتظار فترات أطول، واعلمي ان أكثر الأماكن سرية هي الأماكن المكشوفة! الحذاء على الشجرة مقابل الباب تماماً».

كانت الضحكة تختلط بالدموع الصغيرة عندما التقطت هدى الحذاء، واستغربنا اننا مررنا بالقرب من الشجرة عدة مرات، ونحن نبحث، وارغمتني هدى على الذهاب معها لكي تؤكّد لأمها انها كانت عندنا!

رحلت هدى الآن، أصبح لها ولدان وعالم جديد، ورجب يعتبر انها انتهت، ماتت إلى الأبد. الأحلام التي كان يغزلها يوماً بعد آخر، لحظة بعد أخرى، تنتهي دفعة واحدة!

لا أعرف ان كانت سخرية أم شيئاً آخر، كلمات هدى وهي تدعوني الى حفلة الزفاف، فبعد انقطاع دام اكثر من شهرين، جاءت. كانت تحاول ان ترسم على وجهها ظلاً حزيناً، لكن هذا الظل اختفى خلال الدقائق الأولى. بدأت تتحدث عن الأشياء التي اشترتها، والحياة التي تنتظرها، ولم تنس ان تتحدث عن خطيبها. قالت: عيونه كبيرة، طويل، ورغم انه صغير في السن، إلاّ أن شيئاً جليلاً يملأ فوديه. قالت هذا وهي تضحك بلذة.

هل نسيت رجب تماماً؟ أكاد لا أُصدّق، اذ لا يمكن ان تستبدل حياة سنوات بتعبها وخوفها وأحلامها، بلذة موهومة.

وجهي اكتسب وجوماً وكآبة لاحظتهما هدى عندما كانت تتحدث. حاولت ان تتراجع احتراماً لذكرى رجب، او شفقة على عجزه وهو يتطلع الى السقف في سجنه الأسود.

قلت لها وأنا أضرب الطاولة الصغيرة، وأجرحها بكل كلمة:

ـ مبروك عريس الهنا يا هدى، لكن اسمحي لي ان أقول بعض الكلمات، قد لا تعرفين ان لي أخاً سجيناً، أخاً اسمه رجب، وما دام يتلوى من الألم والعذاب، لا أسمح لنفسي ان أرقص على أشلائه!

وصمت تاركاً لنفسي ان تستمتع بلذة التشفي، حتى اذا رأيت وجهها يفيض بالحقد والعذاب معاً، قلت بهدوء:

ـ لن أحضر زفافك يا عزيزتي!

التقينا بعد ذلك، كانت لقاءات شديدة الألم ويخالطها الحسد، من جانبي على الأقل. كانت هكذا في البداية، ولكن والأيام تمر فتغير الناس والأشياء، تغيّرت هدى، أصبحت غير التي كانت من قبل. وبدأت أحارب طيفها وأبعده بعبارات قاسية لكي لا يعاودني من جديد، وصمَّمت أكثر من قبل، كي لا أترك البرودة تتسلل الى رجب، عندما يخرج من السجن، ولا يجدها تنتظره.

الآن يقول أشياء خطرة، كان يريد ان يتحدث عنها بعد خروجه من السجن، لكن خفت عليه، أبعدت الطيف أكثر من السابق، ورأيت كآبة خرساء ترتسم على وجهه، عندما احدثه عن أمور بعيدة!

الآن وهو بعيد آلاف الأميال يستطيع، يتجرأ، أن يقول ما لم يستطعه حين كان ينظر اليَّ. لا يعرف هدى التي تعيش الآن، يعرف

واحدة أخرى بهذا الاسم كانت جميلة، وكانت لها عيون خضر، وابتسامة شديدة الروعة، وكانت تحبه...

... يتذكر هذه، وهذه ماتت منذ سنين، لكنه لا يريد ان يعترف.

ينتابني الخوف في بعض اللحظات، بل وأحس الأرض تحت اقدامي تهتز. ان حالة مثل هذه يمكن أن تغير العالم، ولا تبقي شيئاً مثلما هو الآن!

لو قرأت رسالته قد يعتريها الشحوب، يأكلها الندم، وقد تفعل شيئاً لا يمكن أن تفعله إلاَّ المرأة التي تحب. وما يدريني اذا كانت مستعدة لأن تترك زوجها والطفلين وترحل وراء ذلك التائه!

ورجَب أعرفه أكثر مما أعرف هدى، اذ بمقدار ما يبدو عصبياً نزقاً، ويتصرف تصرفات شديدة البتر، مهما ترتب عليها من نتائج، فإنَّه هو نفسه الوديع الذي ينسى كل شيء في لحظة ويعود طفلاً.

لن أترك الأمور تسير بهذا الاتجاه. ليبق كل واحد منهما في مكانه، والأيام وحدها هي التي تمزق الحنين واللوعة، وتخلق مكانهما حجارة يابسة صماء.

لن أكتب له عنها ابداً، سأغرقه في عالم آخر: شوق الأطفال والطبيعة، شوقي وحامد اليه، وسأذكره بأصدقائه والأفكار التي كانت تشغله قبل أن يدخل السجن. أمّا عن هدى فلن أحدّثه أبداً!



صمت رجب، لم يكتب كلمة واحدة طوال شهر. بدأ القلق يتحوّل إلى هواجس تحاصرني في كل وقت، ويبدو أنّي أصبحت

مزعجة لجميع مَن حولي. الأولاد ينظرون إليَّ بتساؤل حزين، وحامد انتقل من السؤال الى الرجاء. ورغم كل شيء لم أكن أعرف كيف أتصرف. كانت فكرة واحدة تسيطر عليّ: ان أرى رجب، ان أسمع صوته. قلت لحامد وأنا أمسح دموعاً خنقتني ذات ليلة بعد حلم رأيت فيه أمي تضحك وتضحك، كأنها بلهاء، وأمامها رجب تشير اليه ان يأتي.

قلت لحامد بعد ان أيقظته من النوم:

ـ يجب أن نفعل شيئاً، رجب بحاجة الينا ولا يمكن ان نتركه يموت هناك وحيداً!

قال لي وهو يستدير لينام من جديد:

ـ نامي الآن.

ولما رآني ألح عليه، أستند بكوعيه على الوسادة وسأل بعذاب:

ـ ماذا نستطيع ان نفعل؟

قلت والدموع تسبقني:

ـ افعل أي شيء، رجب يموت الآن!

ـ لماذا هذه الأفكار السوداء؟ ألأنه لم يكتب؟

ـ لا.. لأنه يموت، أنا متأكدة انه يواجه الآن مصاعب تبدو معها أيام السجن وكأنَّها لا شيء.

قال لي وهو يعتدل وراحة يده تمر على رأسي وتشد شعري بنعومة:

ـ كفى يا أنيسة، غداً ستأتي منه رسالة وتتأكّدين بنفسك.

ـ ولكن منذ شهر لم يكتب!

ـ ربما شغله عنا شيء.

ـ أي شيء يمكن ان يمنعه من الكتابة؟

ـ لا أعرف... ولكن يجب أن ننتظر ونرى.

قلت له بيأس:

ـ حامد.. ماذا لو تتصل بوزارة الخارجية، وتطلب اليهم ان يبلغونا شيئاً عنه.

ـ نامي الآن، وفي الصباح سنرى!

حصل هذا بعد انقطاع شهر من الرسائل، كنت أفكّر طوال الليل والنهار، وأبذل جهوداً كبيرة لكي أبدو طبيعية ومتماسكة، ورغم أنّي أخفيت مشاعري، ولمت نفسي على لحظات الضعف التي كانت تدفعني للبكاء، فلم أستطع أن احتمل.

قلت لحامد في ذاك الصباح الباكر، وأنا ألبس ثيابي واستعد للخروج.

ـ سأذهب بنفسي الى وزارة الخارجية لأسألهم.

قال بعصبية يائسة، وكأنّه لم يحتمل تصرفاتي والحاحي:

ـ سننتظر بضعة أيام، فإذا لم تأت منه رسالة، ذهبت بنفسي.

بعد ثلاثة أيام جاءت رسالته:

لا أحد يصدق ان كلمات، مجرد كلمات، يمكن أن تغيّر الانسان الى هذه الدرجة. ترك حامد العمل أثناء النهار، وعاد إليّ بالرسالة. ما كدت أراه يلوّح بها من الباب حتى اصابتني قشعريرة لذيذة أقرب إلى النشوة: كنت أريد أن أتأكد من وجوده، ولا يهمني بعد ذلك أي شيء. هيأت لنفسي ان أقبل مرضه، تعاسته، ضجره،

يكفي فقط ان يكون حياً الآن، وأي شيء أثناء الحياة يمكن ان يداوى، الموت الشيء الوحيد الذي لا دواء له، وما دمت أرى رسالته فما زال حياً إذن!

كان فرح حامد بالرسالة يفوق فرحي. رأيته يتابع يدي المرتجفتين وعيني اللتين امتلأتا بالدموع، ظلَّ صامتاً ليرى، وقع الكلمات. رفعت اليه وجهي اكثر من مرة، لأرد على ابتسامته الصغيرة المشفقة، سحب مني الرسالة قبل أن أكملها، وهو يقول:

ـ أبلغوني ان اراجعهم غداً، لا أعرف ماذا يريدون وماذا أفعل؟

كان يجب ان يسحب الرسالة، لأنّي لم استطع القراءة أكثر، ولم أعد بحالة أستطيع معها فهم معنى الكلمات او ان أتشرب لذتها، نظرت اليه بيأس وأنا أقول:

ـ لا يتركون الانسان يفرح دقيقة واحدة!

قال بطريقة لم أتعودها منه:

ـ لم نعد نسأل عن الفرح، كل ما نتمناه ان يتركونا بسلام!

ـ وما تظن أنهم يريدون الآن؟

ـ في أحسن الحالات تهديد واهانات، طبيعي ليس لديهم غير الأشياء السيئة.

ـ وماذا ستفعل؟

ـ سأذهب، وسنرى.

ارتمى على المقعد وكأنّه لم يعد قادراً السيطرة على جسده، كان متعباً وأقرب إلى الذهول، قلت أشجعه:

ـ لا داعي للتشاؤم قبل أن نعرف ماذا يريدون!

ـ هل تتصورين انهم أصدقاء يريدون ان يسألوا عن صحتي وأحوالي؟

صمت، لم أكن أدري أية كلمات يمكن ان تساعده. كنت أفكّر بالأيام التي عشناها والتي نعيشها، برجب السجين، برجب المسافر، بالرسالة والمستقبل، مرّت في ذهني سيول الصور، وكأنّها أشباح تتراقص. قال حامد يخاطب نفسه، ولا يهمه ان سمعت أو لم أسمع:

ـ هل يمكن للانسان ان يعيش بهدوء في هذا البلد اللعين؟ لا أحد ينجو، الذي يعمل في السياسة والذي لا يعمل، الذي يحب هذا النظام والذي لا يحبه، بلد مجنون ويجب ان يدمر!

وصمتنا كلانا. طوى الرسالة، ووضعها على الطاولة الصغيرة، وأشار إلى ختم المراقبة وهو يبتسم. نظرت دون أن أجيب. إنّهم لا يقرأون الرسائل فقط، انهم يقرأونها بتحدٍ، يقولون بصوت حاد: لقد قرأناها، نحن نقرأ كل شيء!

أصبحت الحياة عارية لدرجة ان الانسان بدأ يخاف من نفسه، يظنهم موجودين دائماً، حين ينام، ويحلم، حين يسير بالشارع بل وحين يموت.

أتذكر حامد وهو ينتفض غضباً ذاك المساء، بعد ان ماتت أمّي بيومين. اقترب منه رجل لم يره من قبل، ظنّه يعزيه بوفاة أمي أول الأمر، ولكن وجده يسأله: مَن ذاك الذي يجلس في الزاوية؟ ومَن ذاك الذي كان يجلس هنا قريباً من الشباك؟

أجابه حامد عن اسئلته، لكن ما كاد يسأله مرة ثانية وثالثة، حتى انتفض حامد من الغضب، وكادت تتطور الأمور، ولولا ان

الرجال الموجودين سحبوا المخبر، وقالوا له لا يليق ان يسأل حامد بالذات، والأفضل سؤال أي انسان غيره. وأشاروا عليه بمرارة وسخرية ان يرتكز الى عمود النور في زاوية الشارع، ويطلب هوية كل قادم جديد!

سألت حامد وهذه الصورة تمرُّ في رأسي:

ـ ماذا نستطيع ان نفعل؟

ـ لا أعرف، حائر تماماً.

قلت بصوت بدا لحامد حزيناً:

ـ الحياة هنا لم تعد تطاق، ولكن أين نذهب!

قال بغضب، كأنَّه يقاوم لحظات الضعف التي يحسها تنبع من داخله:

ـ ليفعلوا كل ما يستطيعون، سنبقى هنا، نحن كباقي الناس، وما يصيب الناس يصيبنا، هذا كل شيء!

لما خرج بدت لي خطواته صارمة متحدية، ولكنها بدت ثقيلة ايضاً. ان الهم، الأفكار السوداء، الانتظار، تتعب الناس اكثر مما تتعبهم مواجهة المصاعب. وهؤلاء الأبالسة يريدون ان يقتلوا الناس قبل ان يقبضوا عليهم. . «تعال بعد عشرة أيام»، «تعال في بداية الشهر»، «تعال دون أن تقول لأحد، اذا قلت لأحد فسوف ترى!».

كان رجب في السجن مستقراً، او هكذا كان يبدو لي. لم ألحظ في وجهه علامات القلق والتساؤل. لم أره قلقاً ونادماً مثلما أرى حامد الآن، لقد واجه الحقيقة دفعة واحدة. وانزرع في السجن مثل الزاوية، ولم يعد ينتظر شيئاً اسوأ. حامد الآن لا يعرف ماذا ينتظره. مجرد أسئلة؟ سجن؟ سيبقى حتى نهار الغد، التاسعة من نهار الغد،

يفترض اسئلة واحتمالات ويجيب عنها، إلى ان يسمع بأذنه الكلمات اللعينة التي تنطقها أفواههم المرتخية، وربما دون اهتمام!

كنت أفكّر مع حامد، وكنت أنتظر خروجه بلهفة لكي أعود لرسالة رجب. كنت قلقة وفرحة في نفس الوقت، مثل طفلة تريد لعبة وتخاف ان تفقدها، تريدها وتريد غيرها. لمحت فقرات في الرسالة، ولكن لم يترك لي حامد ان أتملاها، أو ان أفهمها. الآن يمكن قراءة كل كلمة، سأقرأها، مرة، مرتين، وحتى تترسخ في ذاكرتي كأنّها مكتوبة منذ الأزل.

قرأت كلمة «مراقبة» على غلاف الرسالة مرة اخرى، بدت لي الكلمة متوحشة، من أعطى لهؤلاء الناس ان يقرأوا أعز الكلمات وأكثرها قداسة؟ ما يهمهم ان يقول رجل لإمرأة: احبك؟ ما يهمهم ان يقول الانسان أحب وأكره؟ ورسالة رجب السابقة هل قرأوها؟ وهل عرفوا هدى؟ ماذا لو استدعوا هدى؟ لو سألوها؟ كانَ من الواجب ألا يكتب عنها، ألاّ يذكرها. وهل يسألون حامد عنها غداً؟ وحامد ماذا سيقول؟ يجب ان أجد طريقة لأخلص حامد، لأن أدفع عنه الحرج وهم يسألونه. سأقول له ان هدى التي يقصدها رجب هي ابنة عمتي، وتسكن في الريف. ولكن هؤلاء الأبالسة يعرفون كل شيء، وقد تحتوي سجلاتهم اسماء اقربائنا، أسماء أولادهم وأصهارهم. وربما أسماء الكلاب وباقي الحيوانات، ان كانت للكلاب والحيوانات أسماء!

ورجب.. ألم ينتبه بالنسة لهم؟ نشروا اسمه في الجرائد كلها، والذين لم يقرأوا الجزائد تكلفت عناصرهم ان تنقل الخبر اليهم. ظلوا يلوكون اسمه حتى تمزّق... ولم تبق امرأة في الحي إلاّ

وسألتني! نساء الحي كن يعرفن، ولكن كان يروق لكل واحدة ان تسأل، ان تسمع بأذنيها وتتلذذ.

ولم يتركوا رجب. انهم يلاحقونه الآن، يقرأون رسائله، وغداً اذا عاد سيسألونه مَن تكون هدى؟ أليس هذا اسماً مستعاراً؟ ألا يكون رمزاً لشيء ما؟

آه لو ان رسالة رجب لم تأت، بعد الانتظار الموجع، تأتي كلماته لتزيد عذابي. تحدّث في رسالته عن الجو الموحش الذي يعيش فيه، البرد، الضجر الأمطار الغزيرة، الثلوج، والناس بوجوههم المغلقة وسرعتهم!

بعد فترة طويلة من الحديث عن الجو الأسيان المعذب، يقول انه لم يتسن له حتى الآن الدخول إلى المستشفى. عليه ان ينتظر ثلاثة أسابيع اخرى. وببعض الغموض، يقرّرون فيما اذا كان من الضروري دخوله أم يكتفون بالعلاج الخارجي! اطلعو على التحاليل، ووصفوا له دواء بصورة مؤقتة، لكن ذكروا ان عليه اجراء سلسلة من الفحوصات الجديدة، وان ذلك لن يتم إلا في بداية الاسبوع الثالث. يقول كان من الواجب أن اتصل بادارة المستشفى قبل سفري، وان أرسل التقارير الطبية، وبعد دراستها يقرّرون الشيء المناسب، هل عليَّ ان أسافر، وفي أي تاريخ. اخطأت أنّي لم افعل ذلك، تصوّرت الأمور هنا وفي بلادنا متشابهة! هنا كل شيء بنظام، بمواعيد سابقة، ويبدو انهم لا يكتفون بالفحوص الأولية، قالوا اني احتاج الى ثلاثة عشر فحصاً، لا أعرف اية كميات من الدماء ستمتلىء بها الأنابيب، وأية اوقات ومشاكل سأواجه.

الداء ينهش الآن، ينغل في دمه، وحيد هو الآن ووجوه البشر

تعرض عنه، لا تراه. كيف يأكل؟ كيف يقضي اوقاته؟ هل يتحدث مع احد، ليتني كنت معه، كان من الواجب أن يسافر معه احد. كيف تركناه يذهب وحيداً؟ لو كان سليماً قوياً لما ندمت لحظة واحدة. كان في السجن مع بشر يعرفهم، يتحدث، يضحك، ينام دون خوف. اما هناك فإنّه وحيد لدرجة لا تصدّق. لو لم يكن متألماً لما كتب عن ذلك، اعرف مدى احتماله وصمته، كان اذا مرض، حتى حين كان صغيراً يجبر على نفسه، لا يظهر ألمه، لا يتشكى. كانت تستيقظ أمي وتراه يكابد الآلام دون صوت. رأته مرة والعرق يغسله، فصرخت حتى ايقظت الجيران. وكان يعاند ويقول ان الماً بسيطاً في امعائه، وسيزول!

آه لو كنت معك يا رجب.

توقفت طويلاً وأنا أتصوره في فندق كئيب ينظر الى السقف طوال ساعات النهار وجزءاً من ساعات الليل، حتى تنتهي الأسابيع الثلاثة ويستقبلونه في المستشفى! ماذا لو ان حالته لا تحتمل؟ هل يموت قبل ان تنتهي هذه الأسابيع؟ أكاد لا أصدق!

لو ان الرسالة انتهت عند هذا الحد لقلت لدموعي ان تكف، ولكن الفقرة الأخيرة كانت بائسة وموحشة حتى تصوّرت نفسي اني اجرمت كثيراً بحق رجب...

كان من الواجب ان أُحارب رجب على جبهتين اثنتين: جبهة هدى وجبهة أُمّي. كنت أتصور رجب يفهم الموت بشكل واقعي، يفهم ان مرض أمي لا شفاء منه، وكان من المتوقع ان تموت، وهي بعد ذلك امرأة بدأت تتقدم في العمر. ومثل كل المسنين الذين يعانون من مرض القلب سيأتي يوم تموت فيه. ورغم الحزن والشعور

بالغصة، فإنَّ أي انسان يفهم هذه الحالة بشكل واقعي، ويتصرف بعقل بعد ان تزول لحظة الكآبة.

هكذا كنت أفترض وأنا أقود رجب الى المقبرة. قلت في نفسي يجب ان يزور قبرها، ليتأكد ان الانسان مهما طال به العمر سينتهي ذات يوم، ولذلك حاربت على جبهة هدى وحدها، كنت أريده ان ينساها بسرعة، ولا يفكّر فيها ابداً، لكن رجب يفاجئني الآن، يذهلني، أكاد لا أصدق هذه الكلمات الحزينة، خاصة وأنَّه يكتبها من هناك!

ظننت في الليلة الأخيرة ان بكاءه كان تطهيراً أخيراً لروحه، لأن أي انسان يموت، لا ينتهي بنظر الذين يحبونه إلاّ اذا غسلوه بالدموع، الدموع هي ذرات التراب الأخيرة التي تجلّل الميت وتقول انه انتهى.

تركته في الليلة الأخيرة يبكي لكي يلقي عن كتفيه العبء الذي حمله سنوات، وتصورت ان بكاءه ذرات للتراب التي ينثرها على قبر أمي، لكنه الآن يفاجئني. يقول «قبر أمي يا انيسة.. لماذا تركتموه شقياً منبوذاً هكذا؟ الا تعني شيئاً بالنسبة لك؟ يجب ان تعرفي تماماً انها تعني لي شيئاً كثيراً، كثيراً ومتزايداً، ففي كل يوم جديد اراها تشمخ وتكبر، حتى أنّي لا أبالغ اذا قلت لك اني اراها أكثر حياة الآن من أي وقت سابق.

«انت لا تعرفين اني كنت أزور قبرها كل يوم. لم أقل لأحد، وحتى وأنا أكتب اليك الآن، أبدو متردداً حزيناً، وقد يدفعني التردُّد والحزن الى تمزيق هذه الرسالة».

«كل ما أريده منك يا أنيسة ان تبني قبر أمي. لن يكلف

كثيراً، واذا لم تفعلي، وفي وقت قريب، فسوف يقتلني الحزن. كنت أريد ان أكفر وأنا أبكي فوق قبرها. كنت أعفر وجهي بالتراب وأصرخ، لعلها تسمعني وتغفر لي. والآن، ومن مكاني البعيد، لا أنام قبل أن اوجه لها رسالة، رسائلي اليها صغيرة، بسيطة، ولا تتعدى طلب الغفران. أتمنى لو كنت قريباً الآن وأزور قبرها. اعملي من أجلي شيئاً يا أنيسة، ولا تحكمي العقل في هذا الأمر ابداً، انه أمر يخص القلب، ويجب أن لا تفسره لغة العقل».

«ملاحظة: رجاء، في حال اتمام بناء القبر، اتركوا الشواهد خالية دون اية كتابة، أريد أن أنظم بضعة أبيات من الشعر، وأفكّر بأشياء أخرى!».

سيقتل رجب نفسه. حمل معه قبر أمي ورحل. لماذا كنت ساهية عنه طوال الفترة الماضية؟ كان اذن يخرج كل يوم ليزور قبرها! زارها عشر مرات، وأنا لا أدري! كم كنت غبية. كنت عمياء وغبية، وإلاّ لماذا لم أفطن له؟ لا أصدق، لا أتصور انه فعل ذلك، ربما الغربة والوحدة اوحتا له بهذه الأفكار الحزينة، ولكن كلماته لا تحتمل الشك، انها بسيطة صادقة، وكأنّه لا يخاف ابداً ان يقرأها غيري، بل ويشتهي ان يقرأها الآخرون كنوع من التكفير، يريد ان يبدو عارياً، لم يعد يهمه أي شيء يقال! اية حياة جامحة الروعة والشقاء عشناها معاً؟

كنا صغاراً لما مات أبي، لا.. رجب وحده الذي كان صغيراً. أسعد كان رجلاً كبيراً، ولم يبق معنا إلاّ سنة بعد وفاة أبي، ثم ذهب، ظلّ اسعد في نفس المدينة، ولكن قال لأمّي ذات يوم، وهو يحمل أشياء ويرحل:

ـ ما دمت في هذا البيت فلن أفتح بيتاً ولن أتزوج. كل ما احصل عليه تأكلونه، تشرقونه ولا يبقى منه شيء!

تذكر أمي هذه القصة، وتضيف: لو انه اكتفى بذلك لما قلت شيئاً، ولما حزنت، لكنه قال كلمة مشؤومة، وهذه الكلمة حفظتها جيداً، ولن انساها حتى أموت. قال الخنزير: لو كنت أصب نقودي في بالوعة لأمتلأت!

بدأت أمي تخيط الثياب، كانت تخيط الثياب ونحن ننام، بعد ان تنتهي من أعمال البيت الشاقة، كانت تقوم بأعمال لا يقوم بها الرجال. كانت تبني سور البيت اذا تهدّم، تكسر الحطب، تنقله الى الداخل، كانت تزرع بعض الخضروات وتعتني بالدجاج، فاذا انتهت التفتت الى ثيابنا، تقلب البالي، تجدده، ترقع بعناية اله كل خرم، ترفو، حتى اذا اطمأنت الى ثيابنا ونظافتنا وأكلنا، ولم تعد لنا أية طلبات، تحولت الى ثياب الجيران، تسهر الليل لكي تنتهي منها بسرعة وتحصل على غيرها. لم تكن تشكو، ولم نسمع منها كلمة شتيمة، حتى جاء يوم قالت لي بنغمة رقيقة، حاولت كثيراً ان تدخلها الى قلبي مباشرة:

ـ تعلمت بما فيه الكفاية يا انيسة، ما رأيك لو ساعدتني في الخياطة، حتى يأتي ابن الحلال؟

ظللت صامتة، لا أعرف كيف أجيبها، كانت تستطيع ان تقرّر وحدها، ولم تكن بحاجة لكلماتي، قالت تتابع كلماتها الحزينة، لكي لا تتركني متردّدة:

ـ يجب ان نعمل، أنا وأنتِ، من أجل أن يتعلّم أخوك، اذا لم تساعديني، فسوف نضيع كلنا.

كنت موافقة، كنت راضية، لكن صمتي، الذي خلفته حيرتي دفعها لأن تقول بعض الكلمات:

- ما كنت لأطلب منك، لو ان عينيّ تساعداني.

وبكت وهي تضيف بصوت مرتجف:

- لم أعد أرى يا أنيسة، عميت، لا أعرف كيف ادخل الخيط في الابرة. اذا ظللت وحدي فسوف نموت من الجوع.

وقضينا خمس عشرة سنة لم نفترق خلالها. كانت تساعدني في كل شيء، تقوم عني بكل الأعمال التي تستطيعها، ورغم انه تخلّل الخمس عشرة سنة مشاحنات كثيرة بيننا، إلاّ انها لم تدم اكثر من ساعات. لا أتذكر اني نمت ليلة دون ان أحس برضاها يغمر البيت كله.

وخلال هذه الفترة، كان رجب سلوتنا الوحيدة. كنا نذوب من اجل ان يكبر بسرعة، ويصبح رجل البيت. وحتى لما كان صغيراً كانت أمي توحي لي كل يوم، ان في بيتنا رجلاً أكبر من كل الرجال. ننظر اليه بلذة وهو يصنع طائرات الورق، ونستجيب عندما يلح على أمي بأن تصنع له كرة من الخرق، كان يريدها كبيرة مشدودة ومستديرة تماماً، ومن أجل ان تكون كذلك، تظل أمي تشدها بين يديها بصعوبة، وأُجاهد لكي أسيطر عليها بالابرة، وبعد ان تنتهي، يرميها بغضب: «انظري.. ليست مستديرة تماماً، انها مستطيلة، انها رخوة». ونعيد خياطتها من جديد حتى يرضى!

كنا نرقبه كل يوم. لم أكن أراه يكبر ابداً، وفي لحظات كثيرة أضيق بتصرفاته وأغضب، وأمّي اذا جرى الحديث عنه، وكثيراً ما كان يجري، تقول لي وكأنها تتحدث عن انسان لا أعرفه:

ـ آه لو تتذكرينه لما كان صغيراً، كان طوله لا يزيد عن يدي من هنا إلى هنا، وتشير بيدها، ورغم صغره يملأ الدار صراخاً وعربدة. لم يكن يبكي كثيراً، لكن اذا بكى لا أحد يصدق ان هذا الصوت يصدر عن هذا المخلوق البائس الصغير. اجل كان عنيداً منذ صغره!

وتستريح امي في احضان الذكرى، ثم تعود لتواصل الحديث بلهجة جديدة بعد ان تتلمظ:

ـ الآن، لا يزعج احداً. ازعاجاته قليلة، ولا تُقاس بالسابق، ومع ذلك يجب ان نتحمله، انه حنون يا انيسة، ألَم تريه كيف اشترى لنا قطعتين من القماش من قروشه التي جمعها قرشاً فوق آخر!

وتمر الأيام، وعلاقتنا تمر معها في الدهليز المعتم، لتخرج في النهاية الى الضوء المشع الجامح. أصبحنا أكثر من اخوة، اكثر من اصدقاء، كان يبوح لي بكل شيء، حتى خصوماته الصغيرة التي لايتعدى عمرها يوماً واحداً. وعندما بدأ يقرأ، بدا مجنوناً، كأنّه اكتشف القراءة صدفة، واكتشفها وحده دون مساعدة أحد.

بدأ يقرأ دون توقف، وكلمات امي، وهي تلح عليه ان يقوم ليأكل، او ان يتوقف عن القراءة بعد ان صاح الديك ولم يبق احد ساهراً، كانت كلماتها تذهب هباء، ولم يكن يستجيب إلاّ اذا خانه السهر او انتهى الكتاب.

كان اذا انتهى من قراءة الروايات، التي تسميها امي روايات اللصوص وقطاع الطرق، يلقيها بعيداً، وكأنّه يتخلص من عار او من شيء كريه، ويقول لي بصوت حالم:

ـ أنيسة.. هذه الرواية رائعة ويجب ان تقرئيها!

ـ ولماذا رميتها بهذا الشكل؟

ـ لأنها جيدة ولا أطيق ان تظل بين يدي.

ـ لماذا؟

ـ لأنّي سأبدأ اقرأها مرة ثانية.

ـ ولكنك انتهيت الآن من قراءتها.

ـ أستطيع ان اقرأها مرة أخرى، هل تراهنين؟

ـ لا أراهن.. ولكن من العبث ان يقرأ الانسان رواية مرتين.

ـ اذا كنت لا تريدين ان اقرأها مرة أخرى، اقرئيها أنت.

بالتأكيد سأقرؤها.

ويمضي اليوم الأول، ولا أقرأ إلا صفحة او صفحتين، فإذا سألني أقول له: لم يبقَ لي إلاّ صفحات قليلة. ويبدأ يسألني، واخجل لأنّني لا أفهم شيئاً مما يتحدث عنه، حتى اذا اكتشف كذبي قال لي بصوت أحسه لرجل كبير، مثل أب:

ـ أتحبين أن نقرأها معاً؟

ـ اتركها لي، غداً سأقرؤها عندما تكون في المدرسة.

ـ واذا جئت ولم تنتهي منها؟

ـ افعل ما تشاء؟

ـ لا... أريد أن أبدّلها.

وتذهب رواية لتأتي أخرى، وأنا لا استطيع ان اقرأ إلا القليل، حتى اذا رآني كسولة ملولة، اقترح عليّ ان نقرأ بعض الفصول بصوت عالٍ، انا اقرأ فصلاً ويقرأ هو فصلاً آخر، ولكن لم تجد محاولاته كلها.

ظللت أتابع قراءاته دون ان اشترك فيها، حتى جاء ذلك اليوم، الذي بدأ يخفي فيه الكتب عنّي. اكتشفت ذلك صدفة، بدأ يغلف الكتب أثنا قراءتها، لكي لا ارى عناوينها، وبدأت اللهفة تأكل قلبي لاكتشف عالمه الجديد.

منذ ذلك الوقت، بدأت رحلة الخطر.

أخفيت عن أمي الأمر وقتاً طويلاً، وأخذت أتجنب الحديث عن رجب، لأن اي حديث عنه سيجرني بشكل أو بآخر، للنقطة الخطرة التي بدأت أخاف منها وأحميها، ولا اريد لأُمّي ان تقترب منها ابداً، لكن محاولاتي لم تلبث ان اصطدمت بالأوراق التي يضعها تحت الفراش، تحت السجاد. كانت تأتي بها امي والاستغراب يملأ وجهها:

- انيسة وجدت هذه الأوراق تحت الفراش.. ما هذه الأوراق؟

- أوراق رجب يا أمي!

- ولكن ما فيها؟

- دروسه، وأشعار يا أمي..

- وهذه الصورة؟ وهذا.. أي شيء هذا؟

- أشعار يا أمي.

وتنظر إليَّ باستغراب، وأهرب من نظراتها، لكن لم يطل الأمر.

سألت أمي رجب عن ورقة قلت لها انها قصيدة، انتزعها من يدها بغضب وأخفاها بسرعة، ولما ألحت عليه لتعرف، قال لها:

- هذه تمارين رياضية!

ـ ولكن أنيسة تقول انها أشعار.

ـ وهل رأتها انيسة؟

ـ انا التي قلت لها، انا التي سألتها؟

ـ ومَن رآها غيرها؟

ـ لا أحد..

وبدأت أمي تعرف!

كانت أيامنا تلك الفترة مشحونة بالخطر والانتظار. رجب يغيب عن البيت أوقاتاً طويلة، وبعض الليالي لا نعرف أين ينام. وأمّي لا تنام حتى يعود، وفي محاولة لاقناع أمي، لكي لا تسأله، او تضايقه بدأ يدفعها لكي تسير في طريق الجلجلة، كما كان يقول ويضحك. بدأ يعطيها اوراقاً ودون كلمات كثيرة، وبعينيه او بطريقته عندما يضغط على يدها، يطلب منها ان تخفيها في مكان أمين، وبعد ان تعودت اخفاء اوراقه، دون احتجاج، دفعها لأن تحمل الصليب، كان يطلب منها ان توصل بعض الأوراق لأصدقائه، او ان ترشد رجلاً يأتي الى بيتنا، ولم نره من قبل، الى بيت صديق.

وتزوجت، انتقلت الى بيت جديد، وظلَّت أمي في بيتنا الأول. لكن هذا لم يستمر طويلاً. فبعد ان صار رجب يغيب عن البيت فترات طويلة، ويسافر، لم نجد وسيلة إلا ان تنتقل أمي للسكن معنا، وان ننتظر نهاية ما لهذه الحياة القلقة المكهربة. كنا نخاف عليه، ونحاول، أنا وأمي، ان لا نتكلم عن المستقبل، ولا ان نتذكر قصص السجناء والقتلى، وحامد صامت لا يتدخل ولا يسأل.

هكذا بدأت الأمور، وهكذا انتهت.

رجب الآن بعيد، يأكله السأم، ويعذبه الانتظار. ولا أعرف

الى متى سيطول غيابه؟ واذا عاد فكيف يبدأ من جديد؟

أتمنى لو نستطيع ان نهرب من هذا البلد، ولكن إلى أين؟ وهل الأماكن الأخرى تستقبل لاجئين يبحثون عن الحرية ولقمة الخبز؟ والحرية والخبز، هل يوجدان في الأماكن الأخرى وهل يعطونهما للغرباء؟ وقبر أمي؟ لقد ولدنا في لحظة شقية. وما زلت الى الآن أتذكر كلمات أمّي، وهي ترددها بمرارة:

ـ ما بال الدنيا تغيرت! ايامنا كان الناس يحبون بعضهم ولا يبحثون عن الشقاء! الآن الأخ لا يعرف اخاه، كل واحد يا نفسي. ليس هذا كل شيء، القتل، والسجون، يأخذون الرجال ولا أحد يعرف إلى أين أو إلى متى. الدنيا في نهايتها، ولا يمكن ان تبقى هكذا.

ورحلت امي وتركت الدنيا تغور وتجن أكثر من قبل. ولا يعرف إلى متى أو إلى أين؟ لا لن أقول لحامد كلمة واحدة. لا أريد أن أتدخل، ان أقنعه بشيء، ليتصرف كما يريد. ورجب هل ساعدته؟ هل قتلته؟ لا أعرف.

بعد ايام قليلة اصبحت الصورة واضحة.

حامد يشتم ويعربد، منذ ان عاد ذلك اليوم. قالوا له «ستدخل عوضاً عنه اذا لم يعد خلال شهر من الآن، والى أن يأتي يجب ان تذهب كل يوم ثلاث مرات لتوقع بالحضور في مركز الشرطة». لما حاول أن يسأل، ان يعترض، قالوا «لا نريد ان نتكلم كثيراً. رجب الذي كفلته لم يرسل لنا أية رسالة منذ ان سافر. ليس هذا كل شيء، وإنّما بدأ يتصل بالطلاب ويحرضهم ويشتم الحكومة، وسيدفع ثمن هذا غالياً».

ولم يقتصر الأمر على ذلك.

في السكون الميت الذي يسيطر على كل شيء، انطلقت رصاصات وقتلت أمجد وثلاثة آخرين، قالوا: انهم حاولوا الهرب. وكتبوا: «حاول الحرس القاء القبض على المجرمين، ولكن المجرمين الذين حاولوا الفرار استعملوا ادوات جارحة متعددة في ضرب الحرس، أدت الى جرح ثلاثة، جروحهم خطيرة جداً، وعلى اثر ذلك تبودل اطلاق النار فسقط اربعة من السجناء قتلى، وجرح سبعة من رجال الشرطة. وقد بدأ التحقيق لمعرفة أسباب الحادث، وسوف تذاع التفاصيل في وقت لاحق!».

ولم يذكر شيء بعد ذلك، لم يعد لديهم ما يقولونه، لأن الحياة اضطربت مرة واحدة، على اثر المظاهرات التي بدأت منذ يوم الاثنين، ويبدو انها لن تنتهي بسرعة.

هل اكتب لرجب؟ واذا كتبت هل يتركون رسالة تحمل اخباراً خطيرة تصل اليه؟ وماذا سيقولون لي ولحامد؟ وعن أي شيء يمكن ان أكتب، عن أمجد؟ عن المظاهرات؟ عن حامد الذي يبدأ بالشتيمة، قبل أن يغادر البيت بساعة، لكي يذهب الى مركز الشرطة؟ ان حامد الآن يجتاز لحظات صعبة. لو كان رجب هنا لحدثته عن ذلك، لقلت له كيف أنّي أسمع حامد في الليل وهو يشتم الحكومة والنظام، وكيف يشد قبضته ويهدد.

أصبحت أخاف كثيراً هذه الأيام. احسُّ الدنيا تغلي وتكاد تحترق، وأشكر الله ان رجب بعيد، لو كان هنا لفقدته، لأخذوه، وربما يقتلونه هذه المرة. أعرف رجب، لا يمكن أن يبقى في البيت، ولا يمكن ان يسكت، وهم ليسوا بحاجة الى أدلة، لديهم منها الكثير! وحتى في مرضه وغربته يلاحقونه. يقولون انه يشتم، يحرّض الطلبة،

انهم يكذبون، يريدون ان يبقوا حامد رهينة، حتى يتعاون معهم رجب أو يعود!

سوف أترك حامد يتصرف، أشعر أنّي مريضة، وأفكاري وتصرفاتي غير متزنة، وكثيراً ما أندم على كلمة أقولها!

قلت لحامد والدموع تنهمر من عيني دون ارادتي:

ـ ألا ترسل لرجب برقية تطلب منه ان يعود؟

ـ لماذا؟

ـ لكي تنتهي من هذا العذاب الذي يسبّبونه لك كل يوم!

ـ وهل تتصورين انهم سيتركونني بعد الآن؟ أول أمس عندما ذهبت في المساء لمركز الشرطة رأيت واحداً منهم، قال لي وهو يسحب الدفتر الذي أوقع فيه، يراجعه ليتأكد:

ـ اسمع يا حامد، الأخبار التي تصلنا عنك، تجعل وضعك خطيراً، بدأنا نسمع ان لسانك لم يعد يدخل حلقك، وأنّك تقول كذا وكذا، لا نريد الآن ان نحقق، ولكن انتبه.

هذا ما قالوه أول أمس، ويبدو انهم لن يتركوني بعد اليوم، لن يتركوني اذا جاء رجب او لم يجيء!

ولكن كل ما يفعلوته بسبب رجب للدفاع عن أنفسهم، لقد بدأت الأمور تتضح لي اكثر من السابق!

كتبت رسالة قصيرة فكّرت ان ارسلها الى رجب. حاولت ان أقول له كلمات ذات معنى، ولكن لما انتهيت من كتابتها مزّقتها أول مرة، ومزقتها في المرة الثانية، ويبدو أنه لن يقرأ هذه الرسالة، وحتى لو قرأها لن يفهم منها شيئاً.

قلت له أن يعود بسرعة، وحالما ينتهي من العلاج، وعللت

ذلك بالشوق الذي أحسه أنا والأولاد نحوه، ولم أذكر اسم حامد. وقلت ان العناية في المستشفى مهما بلغت فلن تصل الى مستوى عنايتي.

هل سيدرك رجب ما أردت ان أقوله؟ ولماذا لم أقل لحامد عن هذه الرسالة؟ والآخرون أتبدو لهم عادية لدرجة انهم سيقولون لأنفسهم امرأة تكتب لأخيها المريض؟ تكتب له عن شوقها وشوق أولادها اليه، وعن العناية.. والأكل.

أحس تغيراً في كياني لم أحس بمثله حتى عندما كنت حاملاً. حملت أربع مرات، وفي المرات الأربع، كان الجنين في بطني وهو يتحرك، بغير مشاعري، يجعلها مضطربة وخائفة، ولكن لم أحس ان شيئاً فيّ يموت. هذه المرة أحس ان شيئاً يموت، كنت وأنا أعاني من القيء وأوجاع الظهر، اعطي الحياة لمخلوق جديد، أدفعه بقوة نحو النور، لكي يصبح كياناً له عينان وابتسامة. الآن احس اني أتحمل القيء والأوجاع، أفقد جزءاً من نفسي، جزءاً لا عينان له ولا ابتسامة، تسيطر عليَّ لحظات من الخوف أقرب إلى الفزع، فأتصور ان الدنيا تهتز، تنتهي.

هل مات رجب؟ هل بدأ يعاني من مصاعب جديدة؟

وحامد إلى متى يتحمل نتائج أعمال غيره؟ لقد هدَّته السنوات الخمس، تحملها بصمت، وكنت أتصور انه بمجرد خروج رجب من السجن، ستبدأ حياتنا التي طالما انتظرناها. لكن يلوح لي الآن انه لا حق لنا حتى في ان نأمل، ان ننتظر. سوف ننتهي كمخلوقات فاقدة كل شيء: الحرية والمستقبل والأمل.

اذا جاءت رسالة جديدة من رجب، فسأقول لحامد بإلحاح ان

يبعث اليه يطلب منه ان يعود خاصة اذا كانت صحته تحتمل!

❀ ❀ ❀

الأيام تمر. مجموعة من الأيام الكئيبة، تتراكم فوق بعضها، ولا أحد يعرف كيف ستنتهي ومتى! رجب بعث ببطاقة من مرسيليا، بطاقة غامضة أقرب إلى الانذار، لم يذكر عن صحته شيئاً، وقال انه يسافر لمدة اسبوع، وسيكتب بعد ذلك.

أين تسافر يا رجب؟ وماذا بقي لتفعله؟ ألا تستطيع ان ترأف بنا؟ ألا تفكر كيف نعيش هذه الأيام الصعبة؟ يجب ان تعرف، لن أكتب، لن أقول لك كلمة واحدة، ولكن يجب أن تعرف دون كلمات، كما كانت أمي تفعل.

كانت أمي تنخرط في البكاء فجأة، ثم تنوح، كما لو ان رجب مات. فإذا تعبت من البكاء تصلي ركعتين وتدعو الله. كنت أسمعها تدعو وأفهم: «يا ربي ليس لي غير هذا الواحد، الشيطان وسوس لي أنهم قتلوه، وأنت مالك الملك، الطف به، ارحمه، انه وديعة عندك».

كانت الأفكار تتوالد في رأس أمي، مثلما تتوالد نباتات السرخس، كانت تتوالد باستمرار، دون ان يقول لها احد!

وكانت تتراءى لأمي، في دوامة الحزن، أشياء كثيرة: «رأيت مناماً، يا أنيسة، رأيت رجب عريساً. طنت اذني اليسرى يا أنيسة، لا بدَّ ان رجب يواجه مصاعب، ألا تظنين ذلك؟ قلب الأم لا يخطىء، قلبي يقول ان رجب مريض».

وأنت يا رجب ألم تر حلماً؟ واذنك اليسرى ألا تزال تستقبل الأصوات دون ذلك الطنين الذي يوحي بمصيبة ما؟

قبضوا على حامد. أوقفوه اربعة أيام، وقالوا له بسخرية: «مقدمة، فكّر وارجع بعد اسبوع» ماذا يستطيع حامد أن يفعل؟ هم تركوا رجب يرحل، وافقوا على سفره، حامد لم يفعل اكثر من أن يوقّع على ورقة، قالوا انها لا تعني شيئاً، ومجرد استكمال للشكليات. أبرزوها له، قالوا: «هذا التوقيع أليس توقيعك؟» لماذا ينكر؟ انه توقيعه. وقَّع وهو يبتسم، دون خوف. والآن يقولون «ابعث لرجب ان يأتي. ليس هذا كل شيء، اذا ارسلت له مالاً تقضي في السجن عدداً من الأيام مساوياً للأموال التي ترسلها. نريده ان يعود، وليس امامه إلا ان يعود اذا لم ترسل له مالاً!»

وأنا ماذا أستطيع ان أفعل ازاء عناد حامد وردوده الحازمة؟ يقول بعصبية:

- هم الذين سمحوا له بالسفر، وهم دولة، ليحضروه ان كانوا قادرين. ليس لي علاقة منذ بداية الأمر. اما المال، فأنا لا أرسل له من مالي، ارسلت له جزءاً من ثمن الدار التي تركها له أبوه!

- والى متى سنبقى بهذا الشكل يا حامد؟ كل يوم في مركز الشرطة، كل يوم توقيف وسجن؟

- اسمعي يا انيسة، أصبحت القضية قضيتي، بالنسبة لي مسألة كرامة، لم أكن أتصور انهم لهذه الدرجة من الخسة. كانوا يبتسمون عندما وقعت الورقة. كانوا فرحين وقالوا له كلمات عادية. الآن يريدون ان أقع في المصيدة، بدل رجب حامد، وحتى لو لم يكن رجب، فإنّهم قادرون على اختراع ألف قضية!

وحامد لا يكتب إلاّ ما يريد، يقول لرجب، لا تهتم من ناحية المال، سأدبر لك ما تحتاجه. اعتن بصحتك وعد حالماً تجد ان عودتك مناسبة، اقصد من ناحية صحتك، وعندما يقرأ هذه الجملة،

يتوقف عندها ويغمز بعينه ويضحك، يريد ان يفهم رجب بسرعة ما قصده!

قلت له وهو ينتزع مجموعة من الأوراق النقدية، ويرسلها مع صديق لكي تحوَّل من خارج البلاد:

ـ ولكن سوف تنتهي، يا حامد، ستنتهي ذات يوم، كيف نستطيع ان نؤمن له المال، بعد ذلك؟

ـ لن ينتهي المال خلال فترة قصيرة، وحتى لو انتهى، أستطيع ان أدبره له!

ـ من أين؟ كيف؟

ـ وضعت جزءاً من ثمن بيتكم في صيدلية، عند صديق، والربح، وبعض الديون الصغيرة كافية!

ـ واذا سجنوك؟

ـ قلت لصديقي ان يحول له مبلغاً كل شهر، سواء كنت موجوداً أو لم أكن، وقد أعطيته العنوان.

ـ ولكن يجب ان يعود.

هكذا كانت الأيام تمر، ورجب لا يكتب إلاَّ رسائل قصيرة متباعدة، ولا يذكر شيئاً عن عودته. كتب ان صحته تحسنت، ولكن بحاجة الى مزيد من العلاج، انه مضطر للبقاء فترة، وفهم حامد كلماته ولم يعترض.

ومهما ضاقت الدنيا ومهما صغرت، فإنَّ فيها شقاً ينفذ منه النور ويحمل الهواء. فبعد المظاهرات التي انفجرت قبل شهرين، وراح فيها العشرات من القتلى والجرحى، يبدو ان الانفراج الذي بدأ قبل عشرة أيام سوف يمتد ويستمر، رغم تشاؤم حامد وشتائمه.

قالوا له: «سنطلب اليك ان تراجعنا في وقت آخر، لا نريدك ان تأتي بعد اليوم لمركز الشرطة». ورغم الحاحي ان يبعث برسالة يؤكِّد على رجب بالعودة، فإنَّه يهز رأسه دلالة الرفض، ويقول وقد تخللت عينيه تلك النظرة الماكرة اللذيذة:

ـ لن تطول هذه الفترة، كل الذين أعرفهم يقولون انها لن تطول، رغم البيانات والكلمات الكبيرة، ورغم الحكومة الجديدة، فإنَّ كل شيء سيعود الى ما كان عليه، وربما أسوأ، وخلال فترة قصيرة!

لا أعرف كيف يفكّر حامد، لماذا يتطلع إلى الأمور بهذه النظرة المتشائمة، ولكن يبدو ان الرجال لا يحبون الأيام السعيدة، ولا يحبون الراحة، يفتشون بالحاح عن المتاعب والشقاء. فحامد الذي ظلَّ صامتاً طوال خمس سنين، يتحوّل الآن إلى رجل أكاد لا أعرفه. بدأ يستعمل كلمات قبيحة أقرب الى الشتائم. في حديثه العادي، بدأ لا يتكلم مع الناس إلاَّ في السياسة، ولا يكتفي بذلك، فرجب وهو يسافر يودع روحه التي حاصرها خلال سنوات السجن في حامد، لا أظن انهما تحدّثا، او اتفقا على شيء، فهؤلاء الرجال يفهمون بعضهم بطريقة سرية وغامضة، وإلاَّ كيف تفهم الأمور وكيف تفسر؟

رغم القلق الذي لا يتركني لحظة واحدة، والذي يدفعني لأن أفكر برجب مثلما كانت أمي تفعل، فإنِّي الآن أخصص جزءاً من وقتي للعناية بالأولاد، وأرقب حامد وحياته الجديدة، كما احرص على زيارة قبر أمي كل اسبوع، بانتظار ان يبعث رجب بالكلمات التي يريدها، ولكنه لم يعد الى ذكر الموضوع بعد تلك الرسالة التي ارقتني اياماً طويلة، ودفعتي لأن ألح على حامد حتى انه بنى القبر خلال ثلاثة ايام.

ذات مساء، بعد الغروب بساعة، وكان المطر يتساقط ويولد في النفس ذكريات مدفونة في أعماق القلب، طُرق الباب، كانت طرقات ناعمة، خجولة ولا أعرف لماذا تراءى لي طيف رجب، نظرنا في وجوه بعضنا بتساؤل لم يكن فيه اثر للخوف الذي تعودناه، كلما سمعنا طرقاً على الباب بعد الغروب.

قام حامد ليفتح، وتراكض الصغار خلفه كالقطط، أمَّا انا فقد أحسست أنَّ قلبي تزداد ضرباته مع اقتراب الخطوات نحو الباب، حتى اذا انفتح، وبان لي وجه غريب تحت النور، اجفلت وقلت في نفسي: لقد جاءوا مرة أخرى!

رأيت حامد يطلب منه ان يدخل، كان طويلاً، وقد زاده المعطف الطويل ضموراً، فبدا أقرب إلى الدمية وهو يخطو خطوات واسعة ويتلفت. كنت في لهفة لأن أعرف أي شيء عن الرجل، خاصة، وان كلمات حامد القليلة لم تكن تحمل حرارة او اهتماماً، بل وكانت أقرب الى البرود. لم يمض وقت قصير حتى جاء حامد. رأيت ابتسامة صغيرة تطفو فوق وجهه، ولم يتركني أسأله، رفع رسالة مطوية ولوَّح بها في الهواء، ثم قال:

ـ رسالة. . هل تعرفين رسالة من أين؟

خطفتها دون أن أجيب، لم أخطفها، وإنما اقترب منِّي لكي يتيح لي ان التقطها بسرعة، وبيد مرتجفة حاولت فتح الغلاف فتمزق، واللهفة ما تزال مثل خيط النار تدفعني لأن أعرف شيئاً. قال حامد وهو يلتفت ليرجع:

ـ أريد أن أقرأها، افتحيها على مهلك!

رسالة من رجب. ولكن لماذا بعثها هذه المرة عن غير طريق

البريد؟ هل فيها أخبار سيئة، وجاء هذا الرسول لينقلها؟ وماذا لو كان مريضاً وبعث الينا أن نحضر، ان ننقله قبل ان يموت؟ لا يمكن ان يلجأ رجب الى مثل هذه الطريقة لو لم يكن مضطراً، لماذا أُعذّب نفسي بالأسئلة والأفكار؟ لأقرأ الرسالة.

كانت ليلى تقفز حولي، تسألني بالحاح عن الرسالة، اما الأولاد فقد سمعت أصواتهم وضحكاتهم حول باب الغرفة التي يجلس فيها حامد وضيفه، لم انتبه لشيء لما بدأت عيوني تقفز بسرعة فوق الكلمات، أريد أن أفهم، ان أعرف شيئاً عن رجب:

«العزيزة الغالية أنيسة..

لأول مرة، منذ سنوات، أُحاول أن أكتب بحرية. لا أفكر ان أكتب بحرية كاملة، لأن هذا مستحيل، ولكن بحرية أكثر من أي وقت سابق.

لا أعرف كيف استغل الحرية المتاحة إلى الحد الأقصى. أريد وأخاف. ليس في ذهني أفكار محددة اريد أن أقولها، والأفكار التي أحبها أخاف ان أقولها.

قبل كل شيء صحتي ليست سيئة، أحسن من قبل بكثير، ولكن النظام القاسي المفروض عليًّ يجعلني أحس وكأنّي انسان هش، أو بالأحرى انسان مؤقت. اذا اختل نظام العلاج يوماً واحداً تعرضت لنكسة وربما لفترة طويلة، لذلك أتبع الآن بصرامة نظاماً قاسياً، أشعر أنّي لا أستطيع ان احتمله ولكن سأحاول.

هذا ما ينبغي ان تعرفوه الآن، ولكن ما يهمني ويشغل تفكيري كثيراً، أمور اخرى قد لا تخطر على بال:

يشغلني الآن يا انيسة امران: الأول ان أكتب والثاني أن أُسافر الى جنيف.

لا تستغربي ولا تقولي الكلمات التي طالما رددتها من قبل. كما لا أحب ان أدافع عن نفسي. الكتابة لِمَن ومتى؟ هذا سؤال لا أعرف له اجابة. أفكّر ان أكتب اشعاراً وروايات، ولديّ افكار كثيرة، ولكن ما أرغب فيه شيء جديد تماماً. فكّرت في الطريقة ولم أستطع ان أصل، وما أزال أفكّر. يبدو لي ان الشعر لا يمكن ان يكتبه إلاّ انسان واحد، لأنه سيل من الأحاسيس الداخلية، في لحظات هاربة، فإذا لم يستطع الانسان السيطرة على هذه اللحظات، توارت وانتهت، هذا ما توصلت اليه. الشيء الذي لم أستطع ان أتوصل اليه الآن، كيف يجب ان تكون الرواية. أريدها ان تكون جديدة، بكل شيء: ان يكتبها أكثر من واحد، وفيها اكثر من مستوى، وان تتحدث عن امور هامة والأفضل مزعجة، وأخيراً ان لا يكون لها زمن...

من الصعوبة ان أنقل أفكاري الى الورق، لو كنا نتحدث الآن معاً لفهمت ما أريد ان أقوله بسهولة اكثر. اسمعي: اريد ان نكتب معاً رواية، ومن نحن، ليس انا وانت فقط، بل وأريد ان يكتب الصغار. لو كتب عادل بعض الأشياء، وتركناها على بساطتها وصدقها، ولو كتب حامد، ولو كتبت أنت، ثم اكتب أنا بعد ذلك، لو هذا الشيء حصل، ضمن اطار ما، فإنّ ما نكتبه معاً، سيكون شيئاً جديداً وجميلاً. ماذا تقولين؟ وحتى لا نضيع في دوامة قد لا نخرج منها، فمن الضروري ان نحدّد موضوعاً ونكتب فيه. التعذيب مثلاً، كيف تتصورين الموضوع؟ كيف يتصوره انسان من الخارج؟ وليس اي انسان، انسان له علاقة بشكل ما، في مستوى ما.

طبيعي يجب ان يكون الموضوع امتدادات كثيرة ومتباينة: الذكرى، الأحاسيس، العلاقات وغير ذلك. وطبيعي أيضاً ان ننظر من زوايا مختلفة. هذه الزوايا المختلفة ضرورية لكي نرى الشيء من

جميع جوانبه، فإذا ارتبط الموضوع ايضاً بالأزمان العديدة، أصبح شيئاً جديداً. مثلاً: كيف يتصور عادل، وكيف يتصرف، وماذا يتفرع عن ذلك؟ وحامد وأنت وأنا. اذا نجحنا في ان نحاصر موضوعاً معيناً، من هذه الزوايا، يمكن ان يكون موضوعاً ناجحاً. لست متأكداً ولكنَ هذا ما أتصوره، أو بالأحرى ما أطمح اليه.

لمواجهة الاعتراضات، علينا ان نتبع البساطة ونعترف. الاعتراف، بالكلمات العادية الصغيرة، يلزم كل واحد ان يقول كل شيء بغض النظر عن القواعد، وما يتفرع عنها من وجود امكانية او خبرة سابقة. وبهذه الطريقة ننتهي الى شكل جديد!

هذه هي الفكرة الأولى التي أطلب منك ان لا تترّدي في الموافقة عليها. ومع رسالتك هذه رسالة لعادل، لأنه الآن في سن يستطيع فيها ان يقول شيئاً، ولا تتدخلي لمساعدته إلاَّ في أضيق الحدود. ورسالة اخرى لحامد. لو كانت أمي موجودة لاستطاعت ان تقول شيئاً مهماً ولكان الموضوع في النهاية مجنوناً ورائعاً؟

الفكرة الثانية التي تشغلني الآن، إلى جانب الرواية، أو الطريقة الجديدة في الكتابة، هي فكرة السفر الى جنيف وتقديم مذكرة او لوحة عن العذاب اللاإنساني الذي يواجهه السجناء السياسيون في الوطن.

أعرف ان الفكرة خطرة ونتائجها غير مضمونة، لكن يجب أن يُعمل شيء من أجل الناس الذين يعذّبون ويموتون.

لا تستغربي اذا قلت لكَ، ان أهم دافع لسقوطي، لنهايتي، كما تبدو لجميع الناس، وليس لي بالذات، ان أسافر الى الخارج، خاصة الى جنيف، وأن أقول كلمات للناس، كلمات لا تهدف إلى

التأثير العاطفي، وإنَّما الى فعل شيء غير محدد. . الكلمة ليست السلاح، ضمائر الناس، عقولهم، واجبهم، السلاح الحقيقي.

لست متأكداً مما يجب ان أفعله. سأدرس الأمر كثيراً قبل ان أفعل أي شيء، لكن أتصور السكوت الآن جريمة كبرى، جريمة يدفع ثمنها الناس المنفيون على شاطىء المتوسط الشرقي، بتقديري جميع الناس، ولكن أكثرهم السجناء السياسيون.

ماذا بعد يا أنيسة؟

الأفكار أكثر من ان تُحصى، الأحاسيس في قلبي تولد العذاب واللوعة، وأي انتظار، اي سكوت مشاركة، بشكل او آخر، مع الجلادين، صفعات توجه لجميع البشر خاصة للسجناء!

كلمة أخيرة. . كنت أريد أن يُكتب على قبر أمي كلمات لها مغزى معين. فكّرت بالأمر طويلاً، ولما كان مستحيلاً الآن كتابة هذه الكلمات، فلا أقل من كلمة او اثنتين، لها دلالة معينة.

ماذا تتصورين، هل يمكن كتابة كلمة الوفاء على القبر دون ان تؤدّي الى متاعب او ازعاجات؟ أتصور ذلك. لو كانت في بلادنا حرية، أدنى درجات الحرية، لكتبت على القبر كلمات أخرى. . . «صمود امرأة في وجه الطغيان» او «صمود عجوز في وجه الجلادين» أو «هنا ترقد المرأة التي تحدَّت الجلادين دون سلاح، سوى الغضب!».

هذا ما أردت ان أقوله لك الآن. حامل الرسالة سيعود الى هنا بعد أسبوعين، ارجو ان ترسلي لي أوراقي، والأشياء التي كتبها عادل وحامد، والتي كتبتها انت، بعد ان اقرأها قد أفكّر بكتابة شيء، وقد يكون هذا الشيء مفيداً.

تحياتي الحارة للجميع».

أردت ان أقرأ الرسالتين الأخريين، ولكن الكلمات التي كتبها رجب لعادل، جعلتني اكف وشعرت بالخجل. قال له: «أرجو ان تقرأ هذه الرسالة وحدك، دون عيون الآخرين، خاصة عيون امك».

كلمات من هذه التي قرأتها؟ رجب؟ وأي رجب؟

كان يحبس نفسه قبل عشر سنين ساعات طويلة في الغرفة الداخلية، ويكتب. ماذا كتب؟ لَمن كتب؟ لا أحد يعرف سوى النيران. كان يغرق في عالم الدخان والورق، فترات طويلة، حتى اذا انتهى، يقول لي ولأمّي بصوت عالٍ:

- سأحتفل الآن على الطريقة المجوسية: لقد وضعت في هذه الأوراق أثمن ما عندي، والآن أريد أن أقدّمها قرباناً للنار!

تمنّيت أن أقرأ شيئاً مما كتبه، حاولت، لكن لم أستطع. كان يحرص على أن يقدمها بنفسه للنار، ويظل يتطلع اليها بلذة وهي تحترق، قلت له مرات كثيرة:

- أنت مجنون يا رجب، وإلاً لماذا تحبس نفسك أياماً، ثم تحرق كل ما غزلته؟

كان يتطلع إليَّ بعيون لا ترى شيئاً، وكأنَّه يفكر بما كتبه، أو بما سيكتبه، وكان لا يبدو عليه أي ألم وهو يحرق. امَّا أمّي فقد غضبت ذات مرة، وقالت:

- لماذا لا تحرق الأوراق قبل أن تكتبها؟ احرقها دون سهر الليالي ودون كلمات عصبية ترد بها عليَّ عندما أُناديك لتأكل أو لتنام!

ولم يجبها. كان يبتسم ويحرق الأوراق.

ظلّ هكذا سنوات، حفلة كل أسبوع، وأمّي تنظر الى الرماد بحزن، وتقول لي بصوت فيه رنة استغراب وأسى:

ـ لا يحرق فلوسه فقط، بل ويحرق أعصابه وأعصابنا، إلى متى وكيف؟ ألا تقولين له شيئاً يا انيسة لعله يتوقف!

الآن يريد ان نكتب. مَن نحن وماذا نستطيع ان نقول؟ الرسالة اذا كتبتها اليه أتردّد كثيراً قبل أن ارسلها. الآن يدعوني لأن أكتب معه رواية! وعن أي شيء؟ عن هذه الكلمة التي اذا تردّدت أمامي مرتين يغمى عليّ!

ولا يريدني وحدي ان أكتب، يطلب من عادل ان يكتب! لا أريد أن أظن ظنوناً سيئة، ولكن أحس انه يتعذب، يبحث عن شيء ضائع، وقد لا يعرف ما يبحث عنه، وهذا أصعب ما يواجه الانسان، وأشد ما يعذبه!

ماذا سيقول عنه حامد؟ وعادل؟ آه لو كانت أمي حيَّة الآن لصرخت في وجهه، لقالت له بطريقتها القاسية والمحببة، لكي لا يعود بعدها للتفكير بمثل هذه الأمور البائسة! والسفر الى جنيف! ان رجب لا يتصرف بعقل هذه الأيام. وأخشى انه قد لا يجد احداً يمنعه او يحذره على الأقل. نريد أن يعود، أن يعود، بسرعة، ويبدأ حياته من جديد. اذا ذهب الى جنيف، ولا أدري اية مدن عجيبة اخرى، فسوف يخلق لنفسه ولنا متاعب جديدة. وحتى اذا ذهب الى هناك، ماذا سيجد؟ مَن يسمعه؟

قبر أمي في مكانه، سأكتب عليه الكلمة التي اقترحها، لا يمكن لأحد أن يعترض، وإذ لم ينتبه أحد لهذه الكلمة، والتي ليس لها علاقة بالسياسة، فلن تفهم إلا على انها كلمة من أبناء أرادوا ان

يكرموا أمهم، فكتبوا هذه الكلمة: الوفاء!

سأكتب له رسالة غداً أقول له اننا بحاجة اليه ويجب ان يعود، وسأقول له بصراحة ان يترك فكرة السفر الى أي مكان ويعود الى هنا مباشرة!

❁ ❁ ❁

بعد ان قرأت رسالة رجب مرات كثيرة، كتبت له صفحات كثيرة، لكن لا أعرف ان كان سيقرؤها أم لا. ولا أعرف ان كنت سأرسلها أم لا؟ قلت له على ورقة صغيرة، وجهتها اليه كرسالة:

«مرَّ علينا عبد الغفور في الأسبوع الأول لوصوله. أعطانا الرسائل وحدّثنا عنك، وبعد أيام عاد من جديد، وقال ونحن نشرب القهوة:

ـ أوصاني رجب ان أذكّركم، قال لي لا ترجع اذا لم تحمل معك حزمة من الورق، حزمة كبيرة. أعرف ماذا يقصد، ولكنه أوصاني ان اؤكّد عليكم كل ثلاثة أيام، وقبل فوات الأوان...».

«حبست نفسي فترة طويلة يا رجب وكتبت، ولم اجرؤ أن أتحدّث مع حامد كلمة واحدة عن الأمر، رأيته يكتب وقد أخفى الأوراق عندما رآني اقترب منه. ابتسم لي برجاء ليفهمني ان أتركه. اما عادل، فقد كتب اوراقاً كثيرة، ولكنه لا يكتب بضعة أوراق إلاّ ويحرقها، تماماً كما كنت تفعل انت! حاول ان يقول لي شيئاً، لكن في لحظة معينة، شعرت ان الخجل يمنعه.

انت يا رجب لو كنت هنا لما فكّرت لحظة واحدة في الأشياء التي تفكر فيها الآن، أريد ان أذكّرك اية كلمة، أي تصرُّف، ينعكس علينا بشكل مباشر، ولذلك أتوقع ان تمارس هوايتك القديمة، مرة

أخرى، ان تحرق الأوراق، كآخر قربان مجوسي، وتحزم حقائبك وتسافر، لا الى جنيف، وانما للوطن مرة أخرى. وما نتصوره عن سقوطك، عن كفارة تريد ان تقدمها، فإنَّ أفضل شيء أن تأتي. وهذه المرة لن أتدخل، لن أقول لك كلمة واحدة، وأشعر بأسف حقيقي انني تآمرت عليك خلال الفترة الأخيرة وجعلت حياتك في السجن صعبة.

لا أحب التشاؤم، ولا أنظر الى الحياة، كما ينظر اليها حامد، فقد تغيّرت عن السابق، صحيح ان التغيُّر لا يزال محدوداً، وربما لا يلاحظه الانسان إلاَّ بصعوبة، ولكن يمكن لكل انسان ان يعيش، ليس ممكناً فقط، بل ضروري. كما كنت أقول لك في رسائلي كلها، نحن بشوق مجنون لأن نراك بيننا... لا تتأخر، تعال، تعال بسرعة!».

(٥)

ابتعدت أيام أشيلوس وجفَّت معها أطياف البشر الذين كانوا عليها. المرأة الطفلة التقت بشابين يسافران الى بريطانيا، وظلت معهم طوال الوقت، والعجوز التي تعاركت مع بحار في ميلانو وضربته بحقيبة اليد أصبحت النظرات تلاحقها اينما ذهبت، كانت تبدو متجهمة الوجه، غاضبة ولا تكف عن الشتم، وأصرَّت ان تقف في بداية الطابور لتكون أول مَن يهبط على أرض فرنسا! اما المكسيكي فقد علَّق قيثارته في رقبته وحمل الحقيبتين، كل حقيبة بيد، وكان يغنّي وهو يهبط سلم الباخرة! عشرات الوجوه انطفأت، ذابت ملامحها في زحام الوجوه الجديدة التي لا تكف لحظة واحدة عن الظهور والاختفاء!

الشتاء القاسي يستلب الانسان من الداخل، يحوله الى قصبة مفتوحة، ويدفع اليه، بلا توقف، الأحزان والذكرى والشعور بالتفاهة. استغرب كيف يضحك الناس، كيف يقفزون على رؤوس أصابعهم كأنَّهم الطيور الفرحة. المسنون.. ألا يموتون هنا؟ كل واحد منهم، يحمل فوق كتفه مئات السنين. يحملها بقوة متباهية، ويسير بها وسط الثلوج والزحام، بلا خوف. وأنت يا بلاد الشاطىء الشرقي، بدءاً من ضفاف البحر، وحتى أعماق الصحراء، لماذا لا

تتركين بشرك يصلون الى سن الشيخوخة؟ كانت أعناق الرجال والنساء تلتوي على مهل، ثم تسقط. كانت الحفر الصدئة تستقبل كل يوم عشرات الجثث التي لم تتح لها حتى فرصة الحلم، حملت معها أحزانها ورحلت. وأنت يا أمي لماذا رحلت قبل أن أراك؟ أأنا قتلتلك؟ صدّقيني انني لم أقتل احداً يا أمي، هم قتلوا كل الناس، هم قتلوك. انهم يقتلون دون رحمة، لكن لماذا يقتلون؟ لماذا؟

يجب أن أفعل شيئاً. قلت لأشيلوس ونحن نبحر بين ميلانو ومرسيليا: أيّتها السفينة الصماء المقطوعة الآذان، لا أظنك تفعلين ما يفعله البشر، انت تمنحين الدفء والفراش، تمنحين الغذاء، ولا تريدين مقابلاً. البشر. هناك، ينتزعون من الانسان كل شيء: الدموع، الرغبة، وحتى الذكريات. أمّا الأفكار التي تعبر رأسه في الليل فإنّهم يريدونها ان تتحول إلى كلمات، إلى أسماء، ومقابل ذلك يمنحون الانسان الضرب والألم وحنيناً موجعاً للنهاية والموت!

«مَن علّمك إن تقول هذه الكلمات؟ قل لنا يجب ان تقول».

ونسمع النواح، كان نواحاً طويلاً تتخلّله شهقات الماء الممزوج بالملح وهو ينسكب على الجروح، مثل السكين وهي تنغرز في القلب. نسمع أنيناً موصولاً لا نهاية له.

أمين بائع الجرائد، ذو الوجه الفرح والصوت القوي، والذي يبيع اكثر من الباعة الآخرين. كان مع الجريدة الصماء الباردة يبيع الكلمات. .. كلمات البشرى. أمين أتوا به. كنا نسمع نواحه، ثم أنينه. ظلَّ ثلاثة أيام في زنزانة لا تبعد عنّا أكثر من خمسة أمتار، ثم مات! أمين لا يعرف إلا سلاح الكلمة، يقرأ أثرها في وجوه الرجال، في لهفة أيديهم وهي تمتد إلى جرائده، ومن أجل الكلمة قتلوه. كانت رائحة الزنزانة وهم يفتحونها ليخرجوا جثته، مليئة

بالقيء والدم ورائحة الغواط، ومن فتحة القضبان رأيناهم يحملونه: الزرقة والدم اليابس والكلمة التي انتهت الى الأبد!

هل تستطيع الكلمات ان تفعل شيئاً؟ هل تخيفهم؟

«أرجو ان تسمحوا لي بالموافقة على السفر للعلاج في الخارج بناء على توصية الطبيب، لأن مسؤولية موتي في السجن، تقع عليكم، وأتعهد ان أتوقف عن أي نشاط سياسي». كنت أحس دبيب الموت يسري في جسدي، وعربدتْ في رأسي تلك الفكرة المجنونة، فكرة ان أقول الكلمات الأخيرة قبل أن أودع هذه الحياة. في السجن لن يتاح لي ان أقول الكلمات التي أريدها، وحتى لو بقيت في الوطن لن يتاح لي ان أتكلم، لم يبق أمامي إلاّ ان أتعهد وأسافر. كان أمامي المرض، ثم الموت. هل أموت قبل أن أقول شيئاً؟ والتعهد؟ لا لن أعمل في السياسة، لديّ ما أفعله في مجالات أخرى، سلاحي الأخير الكلمة لعلها تكون طلقة الرحمة لي ولهم، ونموت معاً!

دبيب الموت يمد لسانه في دمي، يحوّل الدم الى قيح، ويعبر مسامي كلها، حتى اذا وصل الى رأسي جعل كل ما أفكر فيه له رائحة القيح ولزوجته!

الآن، وأنا انتظر ٢٢ كانون الأول، موعد دخولي الى المستشفى، أصرخ من أعماقي صرخات ملعونة يملؤها الوباء: ما الذي دفعني لأن أكتب تلك الكلمات المنحطة؟ ما الذي جعلني أقف أمامهم مثل طفل مذنب، وأقول لهم: لم تعد لي علاقة؟ كنت أخاف من نفسي اكثر مما أخاف من أصدقائي. الآن يتراءى لي كل ما مرَّ وكأنه كابوس لا يرحم.

متى سقطت؟ لماذا سيطرت عليّ تلك النقطة الضعيفة التي

جعلت الأشياء تبدو لي متساوية؟ أمين بائع الجرائد؟ هادي المقتول ونحن نبكيه حول الأرغفة اليابسة وقطعة الجبن؟ أمّي التي سافرت برحلة لا تعود منها؟ الدم الملوث الذي يجتازني عشرات المرات كل يوم، في مشوار همجي يدمّر فيَّ الخلايا والارادة؟

سيطرت عليَّ بجموح فكرة ان أكتب. يجب ان أقول للناس ما يجري في السراديب، في الظلمة، وراء جدران ذلك البناء الأصفر الذي يربض فوق قلوب البشر مثل حيوان خرافي. الكلمة آخر الأسلحة، لن تكون أقواها، لكنها سلاح الذين تلوّثت دماؤهم، ماتت أمهاتهم. سلاح الأطفال الذين يريدون ان يفعلوا شيئاً!

رجب اسماعيل سقط. هذه هي الكلمة الوحيدة التي تفتر النهاية التي وصلت اليها، ولا يجدي أن يقال الآن ظلَّ رجب خمس سنين، بأيّامها ولياليها، وراء الجدران، وانه مرَّ على سبعة سجون، لم يضعف، ولم يعترف. الانسان محكوم عليه بنهايته. الصمود، الارادة، كل كلمات المجد المتوردة الوهاجة، تسقط في لحظة النهاية البائسة. ماذا يجديني ان نظرت في وجوههم بتحدّي الأبالسة وقوة العناد؟ لقد سقطت، تراجعت السنوات الخمس، الأيام والليالي، لتذوب في الكلمات الذاوية التي كتبتها بيدي. صرخت بيأس في وجوههم: انتم تعرفون أحسن منّي ان صحتي تنهار، وأية فترة جديدة أقضيها في السجن، تعجّل بنهايتي.

كانوا يعرفون. وإلاَّ كيف تركوني ثلاث سنين دون ان يقولوا كلمة واحدة؟ ظللت وقحاً بالنسبة لهم أتنقل من سجن الى آخر، لم يكونوا يحبون ان ينظروا اليَّ بعد ان يئسوا. كان صمتي سلاحي الوحيد الذي مزّق أحشاءهم. رموني مثل كرة، من سجن لآخر، من غرفة لأخرى، تعبوا وهم يضربونني، وفي السجون البعيدة

حلمت، وفي المدن الكبيرة حلمت، وفي الطرق الصحراوية داخل سيارة تشبه علبة السردين حلمت، لم أترك الوقت يمر دون أن أحلم. كنت أقول في نفسي: سأفضحهم، سأقول للناس، كل الناس، ان البشر بالنسبة لهؤلاء الأبالسة، أرخص الأشياء، أتفه الأشياء.

ومن أجل الكلمة سافرت، ركبت البحر الصاخب في الشتاء الحزين، لعلّي من مكان بعيد أستطيع ان أقول الكلمات التي حلمت بها طوال خمس سنين...

والآن، بعد ان حاولت على ظهر أشيلوس الماكرة، وبعد ان حبست نفسي طوال الليل والنهار في الغرفة المستطيلة الكئيبة، في فندق الالزاس، أجد ان الكلمات التي دوَّت في رأسي تلك الأيام كأنَّها الحراب المسمومة، أجدها تتحول إلى أصداف فارغة لا تعني شيئاً!

فكّرت مائة مرة ان أكتب رواية عن هادي. يجب ان يعرف الناس هادي: وجه أقرب الى وجوه الأطفال، عينان صغيرتان ذكيتان، وابتسامة لا تموت، كانت ابتسامة هادي مثل الضوء الصغير، تغيب لحظة، لكنها لا تنطفىء.

آه لو كتب أحد عن هادي، لكن مَن يكتب يجب ألا يكون رجب. سوف يقول للناس، ان هادي جديلة من الصمود، غزلتها الأيام الصعبة والشقاء، ورمتها في وسط الناس كتلة ملتهبة، لا تخبو ولا تتوقف. بدأت أكتب عنه، لكن الخوف الذي بلغ بي حد الفزع، دفعني لأن أحرق الأوراق. قلت لنفسي وأنا أقرأ الكلمات الميتة: ليس الذي أتحدث عنه الآن هو هادي المخلوق الحي الذي كان. ما أتحدث عنه قطة معذبة، جسد يتلوى، اما الانسان ذو الابتسامة

الصغيرة والارادة الجسورة، فلم أقترب منه. وصرخت وأنا أحرق ما كتبت: تخاف ان تفضح نفسك يا رجب. ان تبدو كذبابة مقطوعة الأجنحة، لو تحدثت عن هادي بلسان رفاق هادي.

آه ما أتعس الانسان عندما يداهمه العجز، ويفقد القدرة كلياً على ان يقول تلك الأشياء التي نامت معه وقامت خلال سنين، الكلمات الشديدة التوهج التي قالها الناس في السجن، دون ان يفكروا لحظة واحدة بالكتابة. كنت أشحن ذاكرتي بتلك الكلمات، لعلها تنزلق يوماً على الورق، وتقول للناس أي رجل كان هادي، الآن أشعر بالانطفاء الكامل. هاجرت الكلمات، ابتعدت عنّي، أصبحت كالخرق البالية، بعد ان كانت في ذاكرتي قبل سنين كالأعلام المشتعلة.

الورقة التي وقعتها، كانت شهادة الوفاة. وفاة رجب اسماعيل، كإنسان، يحلم بأن يكتب.

ليس هادي الوحيد الذي اعجز عن الكتابة عنه. هل استطيع ان أكتب عن أمي! أين أمجد ورضوان وسعيد؟ أين عشرات الوجوه الملوثة بالدم، والتي كنت أجبر نفسي على ان أنظر اليها بشراهة، لكي أتألم أكثر، وأكتب عنها؟ ان هذه الوجوه تنظر إليّ الآن، من سراديبها البعيدة، من قبورها، نظرة سخرية. تقول، تصرخ: لا تكتب عنا كلمة واحدة، اليد الملوثة، القلب الملوث، لا يستطيع ان يكتب!

قلت لأنيسة في الليلة الأخيرة، ان تحدثني عن أمي. فكّرت ان أكتب عنها. لما حدّثتني وانتهت، بكيت. والآن، رغم الهمهمات البائسة، الخطوات البطيئة فوق خشب الغرفة، الدخان والنظر الى

الشارع، أجد نفسي مسلوباً، وكأنّه لم تكن لي أُم في يوم من الأيام. انيسة تستطيع ان تكتب شيئاً، حتى جارتنا أم جاد المولى، تستطيع ان تعيد لها الحياة اذا تكلمت عنها.

كانت كلمات أُمّي حازمة مثل حبل الحرير، وهي تقول لي بعد ان ابتعدت عمّتي: احذر يا رجب، الحبس ينتهي أمّا الذل فلا ينتهي. لا تقل شيئاً عن أصدقائك. احذر، أتسمعني؟

لم أقل شيئاً يا أمي. كلماتك كانت الجسر. نظراتك الصلبة، وانت تحذرينني، جعلت مني رجلاً طوال خمس سنين. لكن الداء يا أمي. لا ليس الداء. هذه البلاهة الغامضة التي سرت في دمي وقالت لي يمكنك ان تفعل شيئاً غير ان تموت. تصورت السجن يتحول في لحظة الى قبر، وكنت انتفض لكي لا أظل في القبر، وفي سبيل ان أخرج، دفعت كل شيء. ليس لي جدارة من أي نوع، يا أمي، لأن أقول عنك كلمة.

الأفكار البائسة تهاجمني مثلما يهاجم الجراد الحقول الخضراء. أُفكّر الآن ان أدفع الآخرين لأن يكتبوا معي. سأقول لأنيسة في رسالة قريبة ان تكتب شيئاً عن تلك الأيام التي سجنت فيها. ماذا قالت أمي؟ كيف تصرفت؟ لن أمد يدي لكلماتها، سأتركها تطفو فوق الورق الأبيض، لعلها تكون رثاء أخرس لتلك العجوز.

أشعر بالعجز، أشعر بالعجز والانتهاء! لماذا حملت معك تلك الجيفة يا أشيلوس طوال ثمانية أيام؟ ألم تقتلك الرائحة؟ رائحة الرجل الميت؟ لم أرَ أحداً غيري على ظهر السفينة يحمل هذا المقدار كله من رائحة الموت. استرقت النظر اثناء الغناء، وفي صالة الطعام، الى الوجوه، لعلّي أرى انساناً يشبه رجب اسماعيل. كانت وجوه الناس

مليئة بالذكريات، والمصاعب، لكنها كانت وجوه بشر حقيقيين. كانوا يبذلون جهداً كبيراً من أجل ان يظلوا أحياء. كانوا يسافرون ويتعبون، ثم يجلسون في ظل صالة الطعام وتحت الشرفات ليغنوا. لم أستطع ان أشاركهم سفرهم وتعبهم، مزقتني الرغبة لأن أغنّي معهم، لكن لم استطع. كنت أنذر نفسي لأن أكتب، وها أناذا الآن في غرفة فندق الألزاس رقم ٣٧، أذرع الأرض، انظر من النافذة، أميل برأسي قليلاً لكي أسمع وقع الخطوات في الدهليز، ولا أجد شيئاً يمكن أن أقوله! ماذا لو شنقت نفسي؟

في سقف الغرفة، الى جانب حبل النور المتدلي، حلقة. يمكن ان أُمزّق ثيابي، أصنع منها حبلاً، أقف على الكرسي حتى أسقط الحبل في الحلقة، أمسكه من الناحية الثانية، أعقده، حتى اذا ربطته جيداً، صنعت حلقة في الحبل ووضعتها في عنقي، وفي لحظة ادفع الكرسي وأتدلى. . . ارتعش في محاولة لأن أسحب الهواء، لأن أرخي الحبل، لكن الفقرات تكون قد انزلقت، وانتهي. ينتظرونني يوماً، يوماً آخر، وحين يفتحون باب الغرفة يرون الحبل يهتز في الهواء، والجثة المتقيحة تفوح منها رائحة كريهة. يتركون كل شيء في مكانه، يغلقون الباب بخوف ويتصلون بالبوليس. وفي اليوم التالي، في زاوية صغيرة تكتب الصحف المحلية: رجل أجنبي، في الثلاثين يقتل نفسه في ظروف غامضة. وأدفن في مقبرة شتائية بعيدة! لا يشيعني أحد، لا يعرفني أحد. اما الحقيبة فإنَّهم يفتشونها جيداً، اذا وجدوا عنواناً كتبوا اليه، واذا لم يجدوا وضعها البوليس في المستودع لثلاثة شهور، ثم أعطاها لإحدى الجمعيات الخيرية، وقد تصل ثيابي الى سجين!

واذا مت، فماذا سيحل بأنيسة؟ مَن يقول لها وماذا ستفعل؟

لا أقوى على ان أرفع رأسي، ولا أقوى على ان ادخل الفراش

وأنام الآن. هزمت ارادتي، ولن أبقى أكثر من شهور، ثم أموت!

هل يمكن ان ترمم ارادة انسان لم تعد تربطه بالحياة رابطة؟ انا ذاك الانسان. لا لست انساناً، السجن في أيامه الأولى حاول ان يقتل جسدي. لم أكن أتصور اني احتمل كل ما فعلوه، لكن احتملت. كانت ارادتي هي وحدها التي تتلقى الضربات، وتردها نظرات غاضبة وصمتاً. وظللت كذلك. لم أرهب، لم أتراجع: الماء البارد، ليكن. التعليق لمدة سبعة أيام، ليكن. التهديد بالقتل والرصاص حولي يتناثر، ليكن. كانت ارادتي هي التي تقاوم. الآن ماذا بقي فيَّ أو مني؟ في لحظات الغضب والتحدي أصرخ: يجب ان أفعل شيئاً، وما دمت فقدت كافة اسلحتي: النظرة الغاضبة، التحدي، الصمت، فلأجرب سلاح الكلمة. لأقل كلمة اخيرة قبل ان أرحل. ولكن الكلمات العاهرة تضيع منّي. في الليل، وانا مفتوح العينين، وأنا مغمض العينين، أبذل جهداً اخيراً لكي أحاصرها، لكن اذا جلست الى الطاولة الملتصقة بالحائط، أشعر ان ليس لديّ اية كلمات.

ذهبت الى ثلاثة أو أربعة مقاهي في مرسيليا. ذهبت منذ الصباح الباكر، وبعد ان شربت القهوة على مهل، وحاولت استرجاع الكلمات، بدأت.

الكلمة الأولى عين لص. الكلمة الثانية ابتسامة سخرية. الكلمات الثالثة والرابعة والخامسة شهقات العذاب، في السجن، أيام الشتاء، وأتوقف. أي عبد ذليل أصبحته يا رجب؟ عمَّن تريد ان تكتب الآن؟ وأية كلمات يمكن ان تنقذ هؤلاء الذين حُرِّم عليهم كل شيء حتى ان يقصوا أطراف علب السجائر ويحولوها الى قطع مستطيلة صغيرة، ليرسموا عليها نقطاً سوداء، ثم يلعبوا بها! لقد

حرموا من كل شيء. صادروا قطع الخبز التي اصبحت بأيديهم الصابرة بيادق وقلاعاً، ليلعبوا بها الشطرنج...

«ألا تعرفون، يا أولاد القحاب، ان اللعب ممنوع؟ وتحتالون؟! تصنعون من لب الخبز أدوات للعب...» ويضربونهم، يضربونهم بالأحذية، بالعصي، يبصقون عليهم، ثم يصادرون كل شيء. ماذا أستطيع ان أكتب لكي انقذهم!

المقهى، العجائز، العشاق، البحارة، هؤلاء لا يمكن ان يتيحوا لي لحظة أمن تمكّنني من الكتابة!

وانتقل الى مقهى آخر. أفكّر في الطريق. اية أفكار يجب ان تكتب، أية كلمات يمكن أن تنقذ أمجد او ابراهيم؟ وتفترش ذاكرتي كلمات كبيرة مثل مسامير حدوات الخيل، وأدخل المقهى، ومع قدح النبيذ، أمدّد أوراقي كمتسول. انظر عبر الزجاج، انظر الى الوجوه وأخط الكلمة الأولى، وأخط الكلمة الثانية، وتفترسني نظرة جانبية من امرأة مسنة، وهي تراني اكتب من اليمين الى اليسار، تنظر باستغراب وهي تقلب شفتيها! أريد ان أقول لها ان طريقتنا في الكتابة يا سيدتي وحدها ذات قيمة ولم تتغير، كل شيء عداها لا قيمة له، خاصة الانسان. الانسان في بلادنا أرخص الأشياء، أعقاب السجائر أغلى منه! آه لو تنظرين لحظة واحدة في قعر سرداب من آلاف السراديب المنشورة على شاطىء المتوسط الشرقي وحتى الصحراء البعيدة، ماذا ترين: بقايا بشر، ولهاثاً، وانتظاراً يائساً. وماذا ايضاً؟ وجوه الجلادين الممتلئة عافية وثقة بالنفس والضحكات. لا تستغربي شيئاً يا سيدتي، والذي يثير استغرابك الآن، أقل الأشياء إثارة للاستغراب هناك!

واكتب مشروع رسالة لأنيسة بعد ان عجزت عن كتابة أي

شيء، أطوي الأوراق، وانظر الى العجوز والجرسون والزجاج، وتمر أمامي الوجوه: وجوه ضاحكة، يعربد فيها الفرح. وجوه قاسية يعذبها التفكير. وأرى الجرائد، فوق الطاولات، يتناولها الناس بهدوء ويقرأونها ثم يعيدونها، وأرى شاباً له لحية يقرأ كتاباً. . .

وأتذكّر الحاج رسمي أبو جعفر. . ربطوا يديه وراء ظهره، اوقفوه في ساحة السجن، أمام عشرات السجناء وبدأوا يسخرون منه:

ـ مثل أبي هريرة تقول للفقراء ان يثوروا؟ خذ يا قواد، يا حاج كلب، يا حاج خرا، ويضربونه على وجهه، على رأسه، على صدره، كانوا يسخرون منه ويضربونه، وفي لحظة تنبهوا للحيته، كأنّهم يرونها لأول مرة. بدأوا يشدونها كما لو انها ذنب كلب، ويحني الحاج رأسه، لكي يتجنب ألم الشد. لما تعبوا، اشعل واحد منهم عود ثقاب وقرّبه من اللحية الشائبة، اشتعلت، أصبحت كأنّها كرة من اللهب، تناول الثاني سطلاً فيه رمل وقذف وجه الحاج. بعد أيام والحاج رسمي يجلس في الشمس، كان وجهه مثيراً للاشمئزاز والأسى: بقع حمراء تنزف ماء لزجاً، وعينان بلا أهداب، والشفة السفلى مدماة.

قال للفقراء ألم تسمعوا أبا ذر الغفاري حين قال: عجبت لِمَن يكون جائعاً ولا يشرع سيفه!

يجب ان أتوقف عن محاولة الكتابة، بعد ان أخرج من المستشفى سيكون لديّ الوقت الذي يجعلني ابدأ ولا أتوقف. الآن أمامي مرسيليا كلها يجب ان أتعرف عليها، لأرى أسواقها ومسارحها وساحاتها، ولأرى بشرها أي بشر هم!



كيف انسقت الى مواقف غبية وأنا أفكّر بكتابة شيء عن التعذيب؟ يبدو لي الأمر الآن غاية في البساطة. ليس مطلوب كتابة قصة، لا، ان الأحداث التي رأيتها، بأيَّة طريقة سجلت، تكفي لأن تكون شهادة ادانة بالموت على هؤلاء القتلة. يجب إبعاد كل الكلمات المبتذلة والاتهامات، ولأكتفي بقول ما رأته عيناي. لو تمَّ هذا أكون قد أديت جزءاً من واجبي، واستناداً لهذا أُفكّر ان أسافر الى جنيف لكي أقدِّم لوحة للصليب الأحمر. ان أسرد على مسامع المسؤولين الأمور التي رأيتها بنفسي، وأطلب اليهم بعد ذلك، ان يرسلوا وفداً للتحقيق في الوقائع. سأذكر لهم جميع الأمور التي مرت عليَّ، والأمور التي حدّثني عنها جميع الذين التقيت بهم أو رأيتهم، كما سأذكر لهم أسماء الجلادين والمحققين، وبعد ذلك ليذهبوا ويروا!

لا يهمني ما سمعته قبل أيام من الطلبة، كانوا ينظرون اليّ بارتياب، وقد انفضوا من حولي بسرعة. عجبت في البداية، لكن لم يلبث ان اتضح لي الأمر. فالأشياء السيئة تنتقل بسرعة، أسرع مما يتصور الانسان! لما ذكرت لهم اسمي، اجفلوا، نظر بعضهم الى بعض بتساؤل، ثم سألني احدهم بشكل مباشر:

- هل كنت سجيناً ثم أطلقوا سراحك بعد ان نشرت في الصحف...

ولم يستطع ان يقول تلك الكلمة. فهمت ما يريده قبل ان يكمل عبارته، شعرت ان الدنيا صغيرة، أصغر من تلك الغرفة التي كنا فيها اربعة عشر رجلاً. أحنيت رأسي إلى الأرض والأفكار تتراكض كأنَّها الخيول الجامحة. هل أقول لهم عن مرضي؟ عن سقوطي؟ هل أقول لهم اني أريد ان أكتب عن التعذيب وأفضح الجلادين؟

كان يجب أن أقول شيئاً. قلت بكلمات متعثرة غير منهومة:

ـ اطلقوا سراحي لأني مريض، وأخذوا الاعتراف بالقوة!

كذبت، كان الكذب الجسر الأخير لنجاة بائسة. لم يستعملوا معي القوة خلال الفترة الأخيرة، كانت الابتسامات تملأ وجوههم وهم يرونني أوقّع. أية قوة استعملوا؟

صمتوا. لم يعلقوا بكلمة واحدة. كان بودي لو يسألني واحد منهم. لو سألني أحد لشعرت بالثقة، لقلت لهم كل ما يدور في رأسي، لكن صمتهم اللعين جعلني أشعر بالاهانة، لم يكتفوا بالصمت، انسحبوا واحداً وراء آخر. ظلَّ منهم اثنان، كانا يجلسان بعيداً عنّي، وقد رأيتهما يتغامزان بطريقة شعرت معها بالاهانة أكثر!

كنت امتلىء رغبة لأن أتحدث مع انسان، اي انسان. لو تكلمت تلك الساعة لقلت كل شيء، لكن احداً لم يسألني، ووجدت الرجلين بعيدين وكأنَّ قارات من الصقيع تفصل بيننا. وحتى لو تحدثت، هل يسمعان؟ هل يفهمان لماذا خرجت؟

سبقتني الأفكار السوداء، كانت تركب باخرة أسرع من أشيلوس، وانتظرتني في عيون الطلبة وفي صمتهم!

عندما تركت النادي، لم يقولا كلمة واحدة، لم ينظروا إليَّ. شعرت ان عذاب السنينٍ الخمس، الجلد والسجن المنفرد، وآلاف الشتائم التي انهالت عليَّ، لا تعادل نظرة صغيرة تطلق في الهواء للحظة واحدة، ثم تتلاشى!

سقوط الانسان مثل سقوط أبنية، تهتز في الظلمة، ترتجف، ثم تهوي وتسقط، ويرافق سقوطها ذلك الضجيج الأخاذ، ويعقبه الغبار والموت واللعنة.

كنت في ظلمة السجن أتداعى، أفكّر بالكتابة والعلاج، أبعدت الفكرة مرة، أبعدتها الف مرة، لكن نظرات انيسة، كلماتها، الأفكار الحزينة التي عبرت رأسي وأنا أرى كل ما حولي ينهار.. لم يبق في نظري شيء مقدس. ارتجفت وأنا أوافق، بيني وبين نفسي أول الأمر، ثم بيني وبينهم، حتى اذا وقعت على تلك الورقة الصفراء شعرت ان كل شيء فيَّ ينهار ويسقط، وسقطت، ورافقت ضجة السقوط موجات الغبار التي حملتها أفواههم الى كل مكان، تبشّر الناس بنهاية رجب اسماعيل البائسة!

هل استطيع ان التقي بأحد من الطلبة؟ أن أستعين بهم من أجل المستشفى والعلاج؟ لا لا أريد، فكلمة واحدة تكفي لقتلي، سأذهب بعد غد بنفسي، وسأحتمل وحدي! تراجعت الى الوراء فكرة الكتابة كما كنت أتخيلها. اما فكرة السفر الى جنيف فتبدو لي الآن أكثر اهمية، وحالما أنتهي من العلاج وأعود من السفر أقرّر ما يجب ان أفعله!

اسبوعان من المراجعة والفحص في أسوأ الأوقات، اذ ما كدت ابدأ حتى بدأت الاحتفالات والعطل. السخرية تتراكم وتطوّقني من كل ناحية، أشعر انّي منبوذ الى الحد الأقصى، واني أعاقَب على تلك الخطيئة التي بدأت ذات يوم، ولن تنتهي. إنَّ ما أتلقاه الآن استحقه، استحقه تماماً.

قال لي الممرض المكلف بأخذ عينات الدم:

- لقد جئتني في وقت غير مناسب، ألا تعرف ان اليوم هو السبت، وأنك ستنتظر حتى صباح الثلاثاء لكي تحصل على النتيجة؟

هززت رأسي دلالة المعرفة والموافقة، وشتمت في داخلي! وأخذ عينات الدم بشكل عجول وقال:

ـ الآن انتهى واجبي!

مرسيليا مثل الدنيا كلها تستعد لاحتفالات رأس السنة. الناس يتراكضون، المحلات تمتلىء بالبشر والأضواء، والثلج يتساقط ليدفن كل شيء: الماضي والأحزان والأفكار البائسة، وأنا وحدي في مرسيليا الكبيرة لا أشعر بذرة انسجام مع كل ما حولي. خطوات الناس الكبيرة، هرب من الوباء الذي أمثله بخطواتي الصغيرة البطيئة. الأضواء الساطعة تستلقي على وجهي لتفضح ضعفي وخيانتي. وابتسامات العشاق وهم يتعانقون تحت أعمدة النور سخرية كاوية تمزق آخر الأفكار البائسة التي تجول في رأسي!

مرت الأيام بوقعها البطيء الموجع، وبدت لي أطول أيام عمري، حتى كان يوم ٧ كانون الثاني. استقبلني ثلاثة أطباء. امرأة ورجلان. عرّوني من ثيابي تماماً، كنت وأنا أنزع ثيابي أتذكّر نوري. كانت الغرفة دافئة، بلونها الأزرق الهادىء، والملاءة الموضوعة على طاولة الفحص نظيفة. شعرت أنّي لا أستحق ذلك. يجب ان أتعرى في مزبلة. نظرت الى الطبيبة وأنا أخلع قميصي. كانت عيناها محايدتين، ولا تشبه عيون الذين كانوا ينتظرون، ليبدأوا. سألوني عن ماضيّ، سألوني بنفس العبارات تقريباً، ماذا أقول لهم؟ ما أشد سخرية الكلمات. «حدثنا عن ماضيك». لما رأوا الارتباك في وجهي ولكي لا أضيع قالوا: «عندما كنت طفلاً، هل أصبت بأمراض، أية أمراض، هل أنت متزوج؟»

وسألوني عن أمي وأبي. كنت أجيب بارتباك، قلت لهم ان مرض القلب قتل أمي، وأبي مات بسل العظام. وتركت لهم حتى اللحظة الأخيرة المفاجأة التي أردت ان تكون ورقتي الأخيرة.

كان الصمت يخيم على الغرفة الزرقاء الدافئة، وضربات مطرقة

صغيرة تتساقط على ركبتي. انتفضت كرد فعل مبالغ فيه للضربات، جمعت نفسي فجأة وقلت:

ـ الشيء المهم الذي لم أقله بعد، والذي قد يفسر مرضي، هو اني كنت سجيناً. سجنت خمس سنين متواصلة. ليس هذا كل شيء، ففي البداية تعرضت لأنواع عديدة من التعذيب!

كانت الكلمات باردة، أو هكذا بدت لي وأنا أنظر في وجوههم، حتى اذا نظروا إلى بعضهم بدهشة فيها اعجاب...

ـ كان يجب ان تقول لنا منذ البداية...

ضحكت الطبيبة باستغراب وبدت في عينيها لأول مرة نظرة أسف حزين.

قال لي الطبيب المسن:

ـ انهض والبس ثيابك..

تهامسوا، وتحدثوا الى بعضهم وأنا في الزاوية أواصل ارتداء ثيابي. أي شيء ظنوه؟ أية كلمات قالوا؟ لأول مرة منذ سنوات أشعر بالفخر. بدا لي السجن شرفاً، بدا لي كبيراً لدرجة ان نظرات الأطباء وهمساتهم كانت تقديراً مباشراً.

لما جلست على كرسي مقابل الطاولة التي يجلس وراءها الطبيب المسن، استأذنت في ان أدخن، هزَّ الطبيب رأسه بود، وربما فعل الآخرون ذلك، وردَّ عليَّ بابتسامة وكلمة صغيرة:

ـ تفضّل.

كنت اذن سجيناً، هذا وحده يفسّر مرضي. كانوا حائرين أول الأمر، لكن ما لبثت حيرتهم ان سقطت، بدأت تتلاشى مع دخان سيجارتي المتطاير، اخذوا ينظرون اليّ وكأنّي دمية من عصور

سحيقة. هل يعرف هؤلاء الناس معنى ان يكون الانسان سجيناً؟ ليس سجيناً فقط، وإنّما سجين في تلك السراديب المظلمة الباردة المليئة بالحشرات، وفي فترات الراحة، يتلقى الصفعات ويجلد مثلما تجلد الثيران النابية؟ كنت أريد ان أشعر بميزتي، وأبدو متفوقاً، لكن وأنا أستعيد الكلمات التي أردت أن أقولها، شعرت بالألم، تذكرت الورقة الصفراء المربعة التي امتلأت بالعرق من يدي المرتجفة التي تخط عليها آخر الكلمات. .

سألني الطبيب المسن:

ـ هل تشرح لنا ظروف سجنك؟ أقصد كيف كان السجن، ضمن أية شروط تغذية، وأية شروط صحية؟

الشروط الصحيَّة والتغذية! سخرية أم تساؤل؟

قالوا في النهاية:

ـ الوضع صعب ودقيق، اذا اتبعت نظاماً صارماً يمكن ان تعيش دون متاعب اما اذا لم تتقيد. . وصمتوا.

في الصمت النظيف المخيم على الجدران والملاءة والزجاج، جاءني صوت الطبيب الشاب:

ـ هل استطيع ان اسأل لماذا كنت سجيناً؟

رأيت وجهه يكتسب حمرة زاهية، تجعله أقرب الى وجوه الفتيات الصغيرات. هززت رأسي بحيرة. لماذا أقول له؟ لو قلت: كنت سجيناً سياسياً، هل يفهم معنى هذه الكلمات؟ لو قلت له انني محكوم احدى عشرة سنة قضيت منها خمساً، لا لسبب، سوى انني أردت، بالفكرة، بالكلمة، ان اجعل حياة الناس اكثر سعادة، لو قلت له هل يصدّق؟ سوف أقول:

صدّقني ايها الانسان الذي تعيش على الضفة الأخرى من

المتوسط، اني لم أحمل بندقية، ولم أقتل احداً، ومع ذلك دق رأسي بالجدران مئات المرات، كما تدق المسامير في أخشاب السنديان! ودق الرأس بالجدران عبارة عن بداية سمفونية العذاب: بعد ذلك ضربوني بالسياط.كنت عارياً لما ضربوني، كانوا يتعبون من الضرب، كانوا يتناوبون، وكانوا أقوياء، فإذا انتهى الضرب بدأت النيران تشتعل في جسدي. كانوا يطفئون السجائر في وجهي، في صدري. وفي أماكن أخرى. ليس هذا كل شيء، لقد أمسكوا بخصيتي وجرّوهما، شعرت تلك اللحظة اني أموت، ثم علقت سبعة أيام في السقف. كانت يداي مربوطتين بحبل، والحبل يجرّني الى السقف، فأوقف على أطراف أصابعي، عندما انتهت الأيام السبعة، كانت ساقاي بحجم سيقان الفيل: متورمتين، زرقاوين، ثقيلتين، لا.

لا، لن احدثّك اكثر من ذلك، ان مجرد تذكُّر تلك الأيام يجعل الانسان مشوهاً، حتى ان براعة الطب وعبقريته لا يمكن ان يفعل شيئاً. كل ما قلته لك حتى الأن، الفصل الأول، أمَّا الفصول الأخرى، فاعذرني اذا لم أستطع ان أقول لك عنها كلمة واحدة. تحملت التعذيب كله، وماذا تتصور هل صرخت؟ هل اعترفت؟ لا. كنت صامداً، كنت أقوى من الجمل في صبره واحتماله، لكن في لحظة خرساء سقطت. الإنسان الذي تراه أمامك الآن ليس قوياً بمقدار ما توحي الكلمات التي تموج في رأسه. كان قوياً في فترة ما، ثم سقط، انهار دفعة واحدة.

كنت ابتسم ابتسامة شاحبة عندما وقعت شهادة وفاتي.

قلت وأنا أسحب نظري من الطبيب الشاب، وانظر الى الطبيب المسن:

ـ كنت سجيناً سياسياً.

ولم أضف اية كلمة. نظر الطبيب المسن الى الوجوه بأسى، وكأنَّ ذكريات حزينة عبرت رأسه، وقال يخاطب نفسه:

ـ هذا واحد من شعب سجين.

والتفت اليَّ وأضاف: لماذا لا يقرأ الجلادون والحكّام التاريخ؟ لو قرأوا جزءاً من الأشياء التي يجب أن يقرأوها، لوفروا على أنفسهم وعلى الآخرين الشيء الكثير. ولكن يبدو ان كل شعب يجب ان يدفع ثمن حريته، والحرية، أغلب الأحيان، غالية الثمن!

وساد الصمت. كان قاسياً هذه المرة. قالت المرأة، وكان صوتها مثل شهاب ملون:

ـ لو حدّثته عن أيام المقاومة يا دكتور فالي.

ـ ليس بحاجة إلى الحديث، ربما يعرف أحسن مني، واذا كانت المقاومة والاحتلال بالنسبة لنا قد أصبحتا ذكرى وتاريخاً، فإنَّ هؤلاء يعيشون اليوم هذا التاريخ.

ضرب الدكتور فالي الطاولة بالمطرقة، وقام.

كان يتخطى بالغرفة، وقد اكتسب وجهه شكلاً عصبياً، اما كلمته فظلت هادئة وهو يقول لي:

ـ حالتك مقلقة، يجب ان تعرف هذا بوضوح، لا أريد ان اجعلك تخاف لكن التفاؤل يؤدّي إلى الإهمال، ولا أريدك ان تكون مهملاً، توقّف قليلاً، ثم تابع بصوت منخفض:

ـ اذا التزمت بالنظام الذي أقترحه عليك يمكن ان تعيش دون متاعب، أمّا اذا لم تلتزم، فاسمح لي ان اقول، ان اية انتكاسة قد تعرضك للخطر. النظام الذي أقترحه ليس صعباً، الابتعاد عن

الفوضى في الأكل والنوم والعلاقات الجنسية، وابتسم، وهو يتابع:

- ويجب ان لا تنفعل، ان لا تغضب، ان لا تحزن، كما ان الفرح الشديد يؤثّر عليك! وتغيّرت نبرة صوته وهو يقول: أعرف ان هذه الأمور بالنسبة لك صعبة، ولكن يجب ان تحاول.

وجلس وراء الطاولة نظر إليّ ملياً، ثم قال:

- سأكتب لك الآن مجموعة أدوية، وأرجو ان تحرص على استعمالها بدقة في مواعيدها، وفي المراجعة الثانية، بعد اسبوع، سنرى.

لو عرفوا اني سقطت لما ودّعوني بهذه الحرارة. وقفوا ثلاثتهم أمام الباب، بعد ان صافحوني، كانت ابتساماتهم تملأ وجوههم، خاصة الدكتور فالي، وعندما التفت في نهاية الممر الطويل، كان الدكتور فالي ينتظر التفاتتي الأخيرة، ليرفع يده ويلوح بها. الدكتور فالي صمد حتى النهاية. وجهه القاسي وعيناه الهادئتان يقولان ذلك، الدكتور فالي والآخرون صمدوا، وانتصروا. لو عرف لحظة واحدة أنّي وقّعت تلك الورقة اللعينة لرفض استقبالي، أو مصافحتي، أتوقعه يقول: «كيف تستطيع مصافحة اليد التي لوثت دماءك؟ كيف تستطيع ان تبتسم للوجه الذي كان يتلذذ وهو يسحب خصيتيك؟»

لن أكتب لأنيسة ان حالتي خطرة، لكي لا تقلق، اما النظام الذي اقترحه الدكتور فالي، فسوف احرص على ان أتقيد به. لكن اذا كنت قادراً هنا فكيف الحال عندما أعود؟ «لا تنفعل، لا تغضب، لا تحزن». حتى الفرح الشديد حرّمه عليّ الدكتور فالي. كان يسخر عندما نطق الكلمة الأخيرة، هل يتصور ان على الشاطىء الشرقي للمتوسط انساناً واحداً يمكن ان يموت من الفرح؟ الفرح بالنسبة

للشعب السجين طائر مهاجر. حتى الجلادون لا أظن انهم قادرون على الفرح، انهم ينامون تحت أقواس من السياط، تحت أشباح الصرخات، يأكلهم الخوف ان تدق أبواب بيوتهم أواخر الليل ويُنتزعوا من فراشهم، لكي يدفعوا الدين الذي في رقابهم!

تأكّد انى لن أفرح يا دكتور فالي. أمّا الفرح الشديد، فلن يُسبّب لي الوفاة ابداً. والأسباب الأخرى التي ذكرتها سوف أدرسها واحداً بعد آخر، لعلّي أجد لها علاجاً من نوع ما.

الكتابة، هل تحتاج الى انفعالات؟ إلى غضب؟ ليس ضرورياً ان اسأل الدكتور فالي لأن المحاولات التي قمت بها حتى الآن أدّت إلى نتيجة واحدة: سيل من الانفعالات الحاقدة والغاضبة، ولا صفحة واحدة من الكتابة التي أطمح اليها!

والسفر الى جنيف، هل يسبّب لي تعباً؟ انفعالاً؟ واذا قرّرت السفر، متى يجب ان أسافر؟ كان عليّ سؤال الدكتور فالي، ان أبحث معه هذه الفكرة بالذات، لعله يكون بالنسبة لي مرشداً اكثر من طبيب، هؤلاء المسنون الذين خبروا الحياة وعرفوا مصاعبها يمكن ان يقدموا آراء ثمينة!

سوف أسرح مرة أخرى في مرسيليا. سأذرعها في اتجاهاتها الأربعة. لن أترك مقهى، ولن أترك ساحة. سأجلس في المقاهي لأدرس تقاطيع وجوه البشر، تصرفاتهم، ضحكاتهم، وحتى همومهم أريد ان اراها، لعلّي أتعلم شيئاً. وباريس، ألا يجب أن أزور باريس قبل أن أعود إلى الوطن؟



«المدن الساحلية، مدن الحرية والعنف»

لا أدري مَن قال هذه الكلمات، لكنها مكتوبة منذ وقت طويل في ذاكرتي. تصوّرت ان مرسيليا وحدها لها هذا الطابع، لكن في باريس رأيت أموراً أعجب. الأحزاب لها مراكز مكتوبة عليها الأسماء بوضوح. يدخلها الناس دون خوف. يدخلون دون ان ينظروا وراءهم، ويتكلمون في الشارع، وبصوت عالٍ. اما الجرائد فإنّها تنشر كل شيء: الأفكار وحوادث القتل والطرق الحديثة في العلاقات الجنسية، والناس يقرأون. اما الكتب فلا بد ان الانسان يعجز عن معرفة ما يصدر منها، لكثرتها!

على ضفاف السين آلاف الكتب، ملايين الكتب. كانت عيوني تمر على العناوين، وما تكاد تستقر على عنوان، حتى أرتجف، أتلفت، لا أريد أن يراني أحد.

«وجدنا لدى تفتيش بيت الموقوف، الأدوات الجرمية المرفقة...» ويذكرون أسماء الكتب. آه يا أهل باريس، لو جئتم بكتبكم الى شاطىء المتوسط الشرقي، لقضيتم حياتكم كلها في السجون. سيأكلكم الندم، سوف تكفرون بكل شيء، واحذروا اكثر ان تفكروا بالأحزاب، لأن أية كلمة تجد مَن يلتقطها ويجعلها مؤامرة وتخريباً، وتدفعون ثمن كلمات حياتكم كلها في السجون الصحراوية، وهناك تصابون بالسل والتيفوس وتموتون!

ولكن باريس التي اراها، هل ولدت هكذا؟

باريس المشانق والمقاصل والحصاد، باريس المقاومة، باريس الشهداء، هي التي صنعت الحرية. يجب ان لا أتحدث، لم يعد لي بعد ان وقّعت تلك الورقة المشؤومة ان أتكلم عن الحرية، عن باريس، عن أي شيء. لو كنت رجلاً لظللت هناك وصمدت حتى النهاية. الكلمات المهترئة، التي ألوكها الآن، فقدت جدارتها، فقدت

عنفوانها، تحولت الى لهاث يشبه لهاث المرأة الشبقة التي التقطتني من الشارع. كنت أخاف وأنا أسير الى جانبها، وظللت خائفاً حتى لما رأيتها عارية ومستلقية على الفراش.

قالت لي:

ـ ألا تراني عارية، ماذا تنتظر؟

وأشعلت سيجارة ثانية. كنت أريد أن أفعل شيئاً، لكن الشعور بالعجز جعل الفكرة ترتد الى داخلي مثل موجة النار. كنت أخاف من الفشل، من السخرية، اردت ان أقول لها أنّي مريض، او متعب، لكن الكلمة الوحيدة التي سمعت نفسي أقولها:

ـ أنا لست رجلاً!

وصمت. كنت أريد في تلك اللحظة ان أنهشها بأسناني، ان أركلها، ان أقبّلها، اطفأت السيجارة بعصبية ونهضت لأنصرف، قالت بلهجة شعرت معها أنها قتلتني:

ـ قبل أن تذهب، اقترب منّي لأتأكد! دعني أرى بعيني ويدي، لا أصدّق.

لو كانت معي الآن صديقة من نوع ما لسرنا في باريس مثل الذئاب، نخيف كل من يرانا بقوتنا، بالتصاقنا المذهل.

باريس لم تُخلق لي، لا أستحق شيئاً في باريس، حتى الماء الذي أشربه يبدو لي أكثر مما استحق. بعد غد أعود الى مرسيليا لأرى الدكتور فالي، يجب ان أبقى معه فترة طويلة لأسأله عمّا يجب ان أفعل في فرنسا من أجل الناس الذين ينامون الآن في السجون.

أحببت فالي كثيراً ووثقت به.

وجنيف؟ هل تستقبلني وتستمع إليَّ؟ واذا استمعت ماذا يمكنها

ان تفعل؟ لا، يجب ان لا أكون متشائماً، فالعالم هنا يفهم ويستجيب، وربما استطعت الوصول الى نتائج لا أتوقعها.

سيضج العالم كله عندما يستمع إلى قصص العذاب التي لا تتوقف، في الليل والنهار، على الشاطىء الآخر. كيف يمكن لانسان أن ينام وأصوات الضحايا لا تكف لحظة واحدة عن النواح والأنين؟ لا يوجد هذا النوع. لا احد هنا يستطيع ان ينام، ان يأكل، ان يضحك، والناس هناك يبكون بصمت ويموتون، سوف ترتفع ملايين الأصوات، في نشيد واحد مخيف، تطلب انهاء «الحفلات» المستمرة.

نوري لا يعرف للتعذيب غير هذا الاسم. كان يقول وهو يطعم الطيور، ينظر اليها ويتحدّث معي:

ـ اعترف. أقول لك اعترف يا ابن القحبة، لقد أتعبتني حفلة الأمس. اذا لم تتكلم، فسوف أنادي عبد وتبدأ الحفلة، ماذا تقول؟

سأقول لهم في جنيف ان السخرية بلغت بالجلادين درجة انهم يطلقون على التعذيب اسم الحفلات، وما دام الأمر هكذا فيجب على الصليب الأحمر على المؤسسات الانسانية الأخرى، ان تفعل شيئاً من اجل انهاء الازدراء والقهر والموت!



كان الدكتور فالي وحده هذه المرة. لما دخلت أغلق الباب بالمفتاح، وقال وهو يبتسم:

ـ شكراً لله انك جئت في الوقت المحدد، نستطيع الآن أن نتحدث، أريد ان أسمع كل شيء عن الاعتقال والتعذيب، وأرجو أن لا يكون في سؤالي ما يسيء أو يجرح.

أتذكر أنّي بدأت أتحدث. قلت للدكتور فالي وأنا أُقدّم له سيجارة ويأخذها، رغم انه لا يدخن، لا أعرف يا دكتور عن أي شيء أتحدّث، كيف أبدأ وكيف أنتهي، لقد كانت السنين الخمس الماضية كلها، بأيّامها، بساعاتها، بدقائقها، وحتى بثوانيها، عذاباً لا يحتمله انسان.

بهذه الطريقة بدأت أتحدّث، وفجأة تجمعت في رأسي آلاف الصور، فانفجرت:

دكتور.. كانوا يصرخون في الليل:

«اقتلوه، لا نريد لهذا الكلب ان يزعجنا أكثر، اقتلوه. امسك يده يا عبد أعدها إلى الخلف، وأنت يا حاتم، ضع العصا في.[1]، لا.. لا تخف، ادخلها، اعترف يا ابن القحبة يجب ان أقتلك! مَن أنت حتى لا تجيب. سوف أعيدك لـ... أمك، اعترف، هات القطط، هات الكلب الأسود، اخلع ثيابك، أتعترف؟ قل أين هادي؟ أين نجم؟ ألا تقول يا ابن الكلب!»

تجمعت الصور في رأسي فجأة، ووجدت نفسي أبكي، لم أبكِ في حياتي مثلما بكيت هذه المرة، وظلّ صوت بكائي يصلني مثل هدير مكتوم.

لماذا بكيت هكذا؟ والدكتور فالي، أي انسان كان بالنسبة لي؟ هل يستطيع ان يساعدني؟ ان يفعل شيئاً من اجل ان يخلصني من العذاب الذي أحسه في داخلي مثل سيول مجنونة؟ كان يجب ان أفعل شيئاً، ان أحطم الزجاج، ان أحطم رأسي، ان أرتمي على الأرض،

---

(١) كلمة قبيحة.

لكن البكاء كان الطريق الوحيد الذي رأيته مفتوحاً أمامي.

تركني الدكتور فالي أبكي فترة طويلة. لم يستنكر، لم يمد يده إليَّ، حتى اذ أحسست بالراحة، قمت ووجهي الى الأرض، وقفت في زاوية، أخرجت منديلاً ومسحت عيني ووجهي ثم التقطت سيجارة، أولعتها واستدرت نحو الدكتور فالي.

حاول أن يبعد نظراته عنّي. هل كان يبكي في تلك اللحظة؟ هل كان يخشى ان يضعف وينهار! رأيت شيئاً في عينيه، لكن وأنا أسمع كلماته فيما بعد، تبيَّن لي ان الرجل الذي أراه لا يشبهني ابداً. قال لي وهو يتطلع عبر النافذة، لكي لا تلتقي عيوننا:

ـ أخشى عليك يا مسيو رجب.

وصمت كأنَّه لا يريد ان يتابع، وخيَّم علينا جو من الخوف. كنا نسمع خلاله خطوات غامضة في الدهليز. بدَّل الدكتور فالي صوته تماماً وقال:

ـ أقدّر الصعوبات التي واجهتها، لكن اعتبرك رجلاً، والرجال لا يسقطون. يجب أن تعرف أنّي الوحيد الذي بقيت من عائلتي. قتلوا اثنين من اخوتي، قتلوا أمي، ثم قتلوا زوجتي. كنت أسيراً، وفررت. منذ اللحظة التي وصلت البندقية فيها إلى يدي، وحتى نهاية الحرب، لم أتركها. أريدك ان تكون حاقداً وأنت تحارب. الحقد هو أحسن المعلمين. يجب ان تحوّل أحزانك الى أحقاد، وبهذه الطريقة وحدها يمكن ان تنتصر، اما اذا استسلمت للحزن، فسوف تهزم وتنتهي، سوف تهزم كانسان، وسوف تنتهي كقضية، والذي أعرفه ان بلادكم بحاجة اليكم، ما زلتم في أول الطريق. كل ما أرجوه منك الآن المحافظة على صحتك، لكي تستطيع مواصلة الحرب. لا أعرف مَن تحارب، ومن أجل ماذا، لكن يبدو

لي ان أمامكم أشياء كثيرة يجب أن تفعلوها.

كان الدكتور فالي وهو يتحدث يتموج صوته، يرتفع وينخفض، وكأن التعب او المرض يثقل عليه، أخرج من درج الطاولة زجاجة دواء، التقط منها حبتين، أعطاني واحدة، وأخذ لنفسه اخرى.

قال وهو يناولني كوب الماء:

ـ هذا النوع من الحبوب يمتص الأحزان، لكن لن أعطيك منه أكثر من هذه الحبة، لكي لا تتعود عليه، يجب أن تتعود على ارادتك، كما كنا في زمن الحرب.

بعد ان شربت حبة الدواء، أخذ الكوب وشرب، وسألني وعيناه تنصبّان عليّ من فوق:

ـ ماذا تقول؟

هززت رأسي بالموافقة. ضرب كتفي بصداقة وقال:

ـ الآن.. أستطيع ان أفحصك لأرى مدى تأثير العلاج.

قمت بإذعان الى طاولة الفحص. امتدت يده الى صدري، الى ظهري، كانت يده باردة وكانت أنفاسه وهي تلفح ظهري تلهث، شدَّ شعري وهو يقول:

ـ هل ستبقى هنا فترة طويلة؟

ـ ربما، لا أعرف بالضبط، قد أبقى شهراً أو شهرين!

ـ في الأسبوع الأخير، يجب أن أراك مرة أخرى، سوف نجري فحوصاً جديدة لنرى مدى التقدم!



في حفلة التزحلق على الجليد التي تحدّثت مرسيليا عنها كثيراً، وانتظرتها بفارغ الصبر، رأيت عبد الغفور لأول مرة. لا أدري كيف ساقتني قدماي في ذلك المساء الى مسرح الطاحونة الحمراء، فجأة وجدت نفسي وسط كتلة بشرية كبيرة تنتظر الساعة لكي تصبح السادسة. وقفت بدافع الفضول، لم أفكّر بفرقة الجليد ولم أكن أتصور أنّي خلال دقائق سأكون جالساً إلى جانب فتاة شقراء. حصل كل شيء بالصدفة. رآني، سألني بلهجة باريسية وهو يضحك، لأنه أدرك منذ اللحظة الأولى اننا كلانا من الشاطىء الشرقي للمتوسط، ان كنت أحتاج الى تذكرة، سألني وقال يحاول ان يوضح ويعتذر:

- كنت أنتظر صديقاً من باريس، لكنه لم يأت، والآن عندي بطاقة زائدة، هل تحتاجها؟

ودون تفكير وجدت يدي تمتد إلى جيبي وأدفع له ثمنها! حصل الأمر فجأة، وما كدت أدخل حتى رأيته، خجلت كثيراً وأنا أنزلق مثل سمكة الى ذلك الكرسي الفارغ! كان يجلس إلى جانبي، ناحية اليمين، وفتاة شقراء جميلة ناحية الشمال. وخلال الدقائق الباقية على بداية الحفلة، سألني ان كنت اجنبياً، فلما هززت رأسي بالايجاب، قال:

- اترك لي فرصة لأن أحزر من أي مكان أنت؟!

شعرت انه يريد كسر الجليد الذي بيننا بسرعة، أجفلت، حتى ان الندم شبك ذراعيه حولي، فظننت انه مكلف بمراقبتي، وإلاّ كيف التقطني من الشارع وأوحى إليَّ بشراء البطاقة؟ والآن كيف يتعرف عليّ بهذه الطريقة التي تعطيه الحق في ان يتحدث ويمزح؟

قلت والظنون تغزو رأسي:

ـ أنا من هناك، لا حاجة لأن تحزر، ويبدو اننا نعرف بعضنا قبل الآن؟ أين التقينا؟

إلتفت إليَّ تماماً، نظر في وجهي وشفته السفلى تمتد، كأنَّه لا يصدّق. قال:

ـ منذ رأيتك، قدرت انك من هناك، لكن لم نلتق من قبل!

ـ هل أنت متأكّد؟

ـ متأكّد جداً. وصمت ثم سأل: هل تظن أننا التقينا؟

ـ يخيل لي ذلك!

ـ أين؟

ـ ربما على ظهر الباخرة، وكدت أقول له في السجن.

كانت هذه البداية، ولا أعرف لماذا أصبحنا أصدقاء.

كان عبد الغفور يدرس الفنون الجميلة منذ ثلاث سنوات في مرسيليا، قضى هذه الفترة دون أن يسافر، كما قال لي، إلاً مرة واحدة إلى باريس، وقال انه يكره السياسة ولا يحب أن يتحدث فيها، وليست له صلة بالطلبة، وإنَّما يقضي وقته كله في المعهد، ثم بالمتاحف، وما تبقَّى يقضيه مع النساء!

وبطريقة لا زلت اعتبرها غامضة حتى الآن، أصبحنا اصدقاء، وكأنَّنا نعرف بعضنا منذ سنوات. تحدّثنا عن مرسيليا وفرنسا، تحدّثنا عن الفنون، وتأكّدت في النهاية انه لا يمكن ان تكون له علاقة بأولئك الذين قالوا لي قبل السفر:

«اذهب الى أي مكان تشاء، لدينا من الوسائل ما يجعلنا نعرف

ماذا تفعل. احذر، لا تظن اننا بعيدون عنك».

لو كان عبد الغفور انساناً، آخر، أذناً أخرى، لأنقذني، لكنه صمَّ أذنيه تماماً، وقال لي مرة، ونحن نتطلع إلى لوحة غارنيكا:

- أتعرف لو ان رساماً عندنا رسم هذه اللوحة لضربوه بالحجارة! أتعرف لماذا؟

- لا!

- لأن الحضارة سلّم ليس له نهاية، ويجب على الشعوب ان تبدأ من أول السلّم، وشعبنا لم يكتشف بعد السلّم ولم يسمع بشيء اسمه حضارة، لذلك فإنَّ كل محاولة لإقناعه بغير ذلك خطأ.

- هل تقصد ان طريقة الرسم غريبة، أم الموضوع؟

- كلاهما: الطريقة والموضوع.

- الطريقة ربما، أمّا الموضوع، فإنَّ مهمة الفنان، استلهام قضايا شعبه: المآسي، الأحزان، الطموحات، وهذه اللوحة مأساة كبيرة، وقد استطاع بيكاسو ان يقود ثورة من خلال هذه اللوحة.

- كان بيكاسو يقود شعباً استوعب الحضارة، أمّا هناك فإنَّهم لم يستوعبوا شيئاً.

- عليك اذن ان تساهم!

- عليَّ ان ألعن القدر الذي جعلني أولد على ذلك الشاطىء.

- لماذا؟

- لأننا نزحف الى الخلف، نرفض الحضارة ونحاربها، وأمامنا وقت طويل لندرك هذه الحقيقة!

- تخطىء...

ـ لكي لا أدفع ثمناً غالياً، أفضّل الخطأ!

ـ تقصد انك تخاف من السجن؟ من المسؤولية؟

ـ هذا ما أقصده بالضبط!

منذ ذلك اليوم لم أتحدث معه في السياسة، لم أشر له ابداً أنّي كنت سجيناً، وان السجن مزَّقني ودفعني الى مرسيليا جثة تنتظر ساعة النهاية. شعرت أنّي لو قلت له كلمة، لظهرت كاذباً، وصمت.

سافر عبد الغفور بعد فترة، وحمل معه رسالة لحامد، وضمنها رسالتان لأنيسة وعادل. وأوصيت عبد الغفور ان يمر عليهم كل ثلاثة أيام، وأن يذكّرهم بالأوراق. لم يسألني عن هذه الأوراق، ولم أقل له. أكَّد لي انه سيحضرها معه، وسوف يعرف كيف يخفيها.

سأهيىء اثناء غيابه المعلومات والمذكرات التي يجب ان أقدّمها للصليب الأحمر في جنيف.

❁ ❁ ❁

تلقيت رسالة من أنيسة لم ارتح لها. قرأتها مرتين، لم تقل شيئاً خطيراً، لكن أحسَّ ان الخطورة في الأشياء التي لم تقلها.

لماذا تريدني أن أعود بسرعة؟ الشوق؟ شوقها وشوق الأولاد؟ لو كان الشوق هو الذي يدفعها لأن تلح عليَّ بالعودة، لكتبت ذلك بشكل آخر، لقالت كلمات أخرى، يبدو انها كتبت الرسالة اكثر من مرة، لاحظت ذلك لأنها قدَّمت سطراً على آخر، ومن التاريخ. ربما تعرضوا الى مصاعب بسببي، سأكتب خلال أيام، واذا جاء عبد الغفور سيوضح لي كل شيء!

قبل هذه الرسالة فكّرت بمجرد عودة عبد الغفور ان ابدأ حياة جديدة. حدّثته عن ذلك. قال وهو يضحك: اذا قرّرت فالأمر سهل، سأطلب من صديقتي ايفلين حالما تعود من باريس، ان تبحث الأمر مع أبيها، وأعتقد ان اباها سيرحب بك في معمل الصابون الذي يملكه!

الرسالة اول اشارة حمراء تبرق في حياتي الجديدة. لا أريد أن أتعجل، لكن يبدو انني سأضطر لاعادة التفكير في المشاريع التي تملأ رأسي.

❀ ❀ ❀

رسالة حامد واثقة، لها رنين متألق، يقول لي: اعتن بصحتك، اما موضوع العودة، فقرّره بالشكل الذي يروق لك.

لماذا يكتب حامد بهذه الثقة؟ لهجته تحمل معنى التحدي، ولأول مرة تكون عبارته قصيرة حاسمة، في المرات السابقة كان يكتب بطريقة اخرى.

والنقود لماذا حوّلها بهذه الطريقة؟ هل منعوه من تحويلها فاضطر ان يرسلها بهذا الشكل؟

هل الطريقة التي اتبعها أسهل الطرق وأقصرها؟

انهم يتعرضون لمصاعب، لو ان الحياة هناك تسير بشكل طبيعي، لما لجأ حامد لاسلوب جديد، سواء بالرسالة او بإرسال النقود.

أين أنت يا عبد الغفور؟ يجب ان ترجع بسرعة لكي تقول لي كل شيء!

عليَّ الانتهاء بسرعة من اعداد المذكرات، اذا انتهيت منها سوف أسافر يوم السبت مساء، وصباح الاثنين أكون على باب الصليب الأحمر. يجب ان أقابل المدير العام وأشرح له كل شيء، وبعد ان نقضي فترة طويلة في الحديث والأسئلة أقدم له المذكرات، وسأبقى في جنيف بضعة أيام، ريثما ينتهون من دراسة المذكرات، لنبحث في الوسائل الفعالة التي يجب ان يلجأ إليها. لن تطول اقامة عبد الغفور. سيكون هنا الأربعاء وأبعد تقدير الجمعة. سأكون في جنيف اثناء عودته، لكن يجب ان أعود بسرعة لكي استقر وأرتّب حياتي من جديد، كل شيء متوقف على المعلومات الجديدة، لا أريد ان التقي بأحد من الطلبة، ولا أريد ان أقرأ جرائد الوطن، إن الجرائد لا تولد إلاّ المرارة والغضب والطبيب أوصاني الابتعاد عن كل ما يولد الانفعالات، ما زلت استمع الى نصائحه وأطبقها، ويجب ان أحاول الاستمرار!

❀ ❀ ❀

جاءت طلقة الرحمة. جاءت يحملها اسم مجهول لم أسمع به من قبل ولم أعرف شيئاً عنه. رسالة جادة، قصيرة، وواضحة أشد الوضوح.

«السيد رجب اسماعيل.

أرجو المعذرة لأنّي أكتب اليك دون معرفة سابقة، ولكن الظروف تضطرني لذلك. لكي لا تظن ان في الأمر سوءاً او مؤامرة، أشعرك أنّي صديق لحامد، وأنا الذي حولت اليك النقود في الفترة الأخيرة، حولتها اليك من خارج البلاد، بعد ان تعذر على حامد تحويلها. سيدي، الأمر دون مقدمات، ان حامد رهينة الآن،

أوقف خلال الفترة الأخيرة، وطُلب منه بعد التوقيف مراجعة مركز الشرطة ثلاث مرات يومياً، لكي يثبت وجوده. لقد حددوا له شهراً وطلبوا منه خلاله حضورك، قال انه لن يكتب اليك مهما حصل، ويبدو انه حذَّر اختك، لأنها مرت عليَّ قبل بضعة ايام، وكانت حائرة لا تعرف ماذا تفعل!

أضع أمامك هذه المعلومات، تاركاً لك ان تتصرف، علماً بأنَّ أحداً لم يطلب مني ولم استشر احداً فيما كتبت، ولكن تقديري الخاص ان وضع حامد يستدعي المراعاة، خاصة وأنت تعرف ان الأطفال دون أبيهم سيواجهون مصاعب حقيقية.

أخشى في حال معرفة حامد بما قمت به ان يلومني على ذلك كثيراً، ولكن تقديري ان وضعك قد سُوِّيَ، وليست هناك مخاطر حقيقية في حال وجودك هنا، أرجو ان تتخذ قراراً ايجابياً، خاصة وان الفترة التي أعطيت لحامد، ستنتهي في نهاية الشهر الحالي!

مرة أخرى ارجو المعذرة، وتقبل تحيات صديق لم تره من قبل!

حسني عبد الجليل

قبضوا على حامد اذن! حامد الآن رهينة، وسيبقى رهينة حتى أعود، قالوا لي:

«سننتظرك شهرين، يجب ان تعود بعدهما، ولا نقبل تقارير طبية او أية معاذير أخرى، نحن نعرف كيف يعطون التقارير الطبيَّة في الخارج».

الآن أفكّر بالإقامة والعمل، كنت أفكّر بجنيف، ذلك النشيد الذي سينشده العالم كله بحنجرة واحدة، ليخيف الطغاة والجلادين، ويوقفهم! والرواية اية رواية يمكن ان أكتب؟ لقد أخطأت مرة، سقطت مرة، والآن تتاح لي الفرصة مرة أخرى لأن أنهض، لأن

أصرخ، لن أتركهم حتى يقتلوا حامد. يكفي انهم قتلوا هادي ورضوان، يكفي انهم جلدوا المئات والآلاف، وأنا لست غريباً عن السجن، ان مت لن أترك ولداً ورائي يبكي، اما اذا قتلوا حامد فسوف يترك أربعة أطفال، يجب ان أفعل شيئاً. لن أتركهم!

بقي لآخر الشهر عشرون يوماً، يمكن ان أسافر خلال هذا الاسبوع، ويمكن ان انتظر اسبوعاً آخر، يمكن ان أنتظر عبد الغفور، حتى اذا عاد، جاءت معه الرسائل والأخبار، وسوف أعرف كيف اتخذ قراراً، سيكون قراري هذه المرة، دفاعاً أخيراً. أعرف أنّي لن أغفر لنفسي، لن أغفر مهما فعلت. كانت الورقة ترتجف تحت يدي المبللة بالعرق، ولكن وقعت، سقطت... والآن هم ينادونني لكي أسحب توقيعي.

الطهارة، الغفران، آلاف الأمنيات البريئة التي راودتني في الليالي المرعبة، تصورت انها ضاعت مني للأبد. الآن أراها أمام عيني مرة أخرى. لا أطمح للطهارة الحقيقية، لا أطمح بالغفران، لكني أريد ان أفعل شيئاً لكي انقذ بقايا الانسان التي أحسها تتهدم في داخلي كل لحظة، انهم كرماء لدرجة لم أكن أتصورهم، انهم يتيحون لي حق الدفاع كل لحظة، سأواجههم مرة أخرى، ليفعلوا، أي شيء، لم أعد حريصاً على حياتي التي تبدو لي مليئة بالقذارات والخيانة والسقوط.

سأقول لهم: عدت، عدت كما أريد، لا كما تريدون. سأعطيكم جسدي، اما ارادتي فقد تعلمت في رحلة الظلمة كيف أجدها مرة أخرى، خذوا أيُّها الجلادون، خذوا جسداً لم يبق فيه إلاَّ الارادة، افعلوا كل ما تستطيعون، سيكون صمتي الرد الذي يقطّع أحشاءكم...

ومنذ الغد، ومن مرسيليا سأبعث الى الصليب الأحمر، سأقول له كل شيء، أعرف ان شيئاً لن يتغير، وأعرف انهم سيضربونني اكثر من قبل، لكنني سأعود اليهم. ها أناذا أعود وقد تعلمت شيئاً واحداً، وتعلمته بالصدفة، أتعرفون هذا الشيء، أيُّها الجلادون؟ انه الحقد، ومن حقدي وحقد الملايين سوف نهدم سجونكم، سنهدم سراديبكم، لن نبقي سجناً واحداً يقف على تلك الأرض الممتدة من الشاطىء الشرقي للمتوسط، حتى أعماق الصحراء، سنهدم السجون بأيدينا، لا بألسنتنا كما كان يفعل الكثيرون، كانوا يهدمون السجون بألسنتهم ثم يرممونها مرة بعد أخرى، ويفتحون فيها انفاقاً جديدة، ويضيفون لها دهاليز جديدة لكي تستقبل الأفواج الجديدة. خذوني هذه المرة، ولكن لن تأخذوا إلاّ جسداً ميتاً، أمّا ما حاولت ان أنقذه فأنتم الذين انقذتموه!



لما أعطاني عبد الغفور الأوراق، طويتها بعد ان ألقيت عليها نظرة سريعة، ماتت في نفسي رغبة الكتابة. اذا أتيح لي ان أكتب، فسوف أفعل، ولكن يبدو ان الوقت الآن أصبح متأخراً. وكلمات الأرض كلها لن تستطيع انقاذ سجين يتعذب!

سألت عبد الغفور:

ـ هل رأيت أختي؟ هل قالت لك شيئاً؟

كان حزيناً وهو يقول:

ـ رأيتها، قالت أتمنى ان يبقى رجب في فرنسا، ولكن يبدو ان بقاءه سيكلفنا غالياً.

ـ وهل طلبت منك ان أعود؟

ـ لا .

ـ وحامد؟

ـ قال لي ليبق حتى يشفى، ليبق أطول فترة، ماذا يريد ان يفعل هنا ، في بلاد السراديب؟

ـ وغير ذلك؟

ـ كانت اختك حزينة، ولما ودَّعتني بكت.

ـ سأعود الأربعاء القادم، سأعود على أشيلوس!

❀ ❀ ❀

غداً أعود. في الحادية عشرة تقلع الباخرة، وأية باخرة؟ أشيلوس مرة اخرى. الصدفة؟ الرغبة المبهمة؟ الشعور بالألفة الحاقدة؟ شيء ما يدفعني لأن اؤجل السفر خمسة ايام من أجل ان أعود على أشيلوس.

لن أشتمها، لن أقول عنها، يا أشيلوس الزانية، يا آكلة الأبناء. فعلى ظهرها لم يمت أحد، لم أسمع طوال ثمانية أيام ان احداً مات. أفرغت كل مَن وما في جوفها في الموانىء، وغداً تعود، لتتوقف في الموانىء مرة أخرى، وتقذف ما في جوفها، حتى اذا جاء ميناؤها الأخير، حملت حقيبتي ونزلت.

تعبت هذا الصباح، انتهيت من صنع غلاف داخلي للحقيبة، سأضع الأوراق بين الغلافين حتى لا يكتشفها أحد، اذا غرقت أشيلوس ذهبت معها الأوراق الى قاع البحر، وظلت راقدة هناك حتى تتفتت أو تنهشها الأسماك. لن تراها عين زجاجية، ولن تلمسها أصابع الشمع، واذا لم تغرق اشيلوس، ووصلت ميناءها الأخير،

سأحمل الحقيبة بيد ثابتة وأنزل، سأرمي الحقيبة في وجوههم وأنظر اليهم تلك النظرات الغاضبة الواثقة، وأقول بتحدٍ وهم يسألونني عمّا أحمل:

- اليكم الحقيبة فتشوها!

وسأبقى ثابتاً، فأخرج من الميناء وأدق الباب والضحكة تملأ وجهي، حتى اذا رأيت الصغار قبّلتهم بطريقة تختلف عن الطريقة التي قبّلتهم بها قبل ثلاثة شهور. أعود إليهم الآن بالهدايا والضحكات والأمل. أقول عدت. كان ممكناً أن أبقى، فكّرت كثيراً بالبقاء، ولكن ها أناذا أعود. لم يدفعني أحد للعودة، عدت لأنّي لم استطع ان أبقى، ويسألني الصغار، يتراكضون حولي، ينظرون إلي، وأحملهم واحداً واحداً، وأقبّلهم وأنا أضحك، حتى اذا تعبوا او ملوا أخرجت لهم الهدايا، وقفزوا مرة اخرى، كل واحد بيده هديته، يضعها قريباً من صدره ويتقدم ليرى هدايا الآخرين، ثم يتبادلون الهدايا ليختبروها، ثم يسترجعون هداياهم وهم يضحكون.

عندما يهدأ الصغار، سأنظر في عيني أنيسة طويلاً وأضحك من اللهفة والرغبة والشوق. لقد عدت يا أنيسة، عدت وحدي. لا أريد من أحد ان يدفع ثمن حريتي الزائفة! قرأت يا انيسة الأوراق بسرعة، وكتبت أوراقاً مثلها. والآن، أتعرفين أين وضعت الأوراق كلها؟ انها معي، ولكن لن تعرفي مكانها، وتنظر اليَّ بتساؤل، حتى اذا نظرت للحقيبة والثياب ولم تر شيئاً، قمت مثل قط، لأنتزع الغلاف بخشونة وأستخرج الثروة الزائفة!

بمقدار ما حرقت من الأوراق، كما قالت انيسة وهي تكتب إليَّ، فقد كنت أتلوى من الألم، خلال الشهور الثلاثة حين كنت مضطراً لتمزيق ورقة. أشعر بالخوف يا انيسة، كتبت، كتبت دون

وعي. وربما لو قرأت ما كتبته في وقت آخر لحقدت على نفسي كثيراً، لأني لم أحرق هذا الهراء، ولكنني الآن رجل مختلف أشعر بنهايتي اقتربت، لم يقل لي أحد هذا، لكني قرأته في عيون الأطباء. كانت طريقتهم بالحديث توحي بهذا الخوف. قالوا كلماتهم ببطء: «لا نريد أن نخلق في نفسك وهماً كاذباً، انت مريض ومرضك صعب لكن لا خطورة على حياتك، في حالة واحدة: اذا تقيّدت بالنظام الذي نقترحه عليك»، والنظام يا انيسة لا يستطيع احد ان يتقيّد به: الراحة، الهدوء، الأكل الجيد، البعد عن كل الانفعالات الحادة، المفرحة منها والمحزنة». هذه بداية القائمة، لم أتركهم يكملونها بحرية، قاطعتهم اكثر من مرة، ولكنهم حرصاً على القيام بالواجب، حتى اللحظة الأخيرة، ألزموني ان أسمع كل شيء. لا أتذكر، ولا حاجة بي لأن أتذكر. قرّرت أن أعيش الأيام القادمة بطريقتي الخاصة، وبعد ذلك ليأت الطوفان!

سأدفع اليك الأوراق يا انيسة لتقرأيها. سأتركك وحدك، لن أتطلع إلى عينيك، ولن أسألك بعد ذلك، ماذا سأفعل بالأوراق؟ أأحرقها كما فعلت في مرات سابقة؟ ثقي اني لا ادري. الشي الوحيد الذي يسيطر عليّ الآن أن أقول بضع كلمات قبل ان انتهي، وكما قلت لك في رسالتي مع عبد الغفور، لا يمكن للانسان أن يكتب كل شيء، فعذاب الكلمة أقسى من أن يتحمله انسان بمفرده، ولذلك فكّرت بتلك الطريقة المجنونة، ان يتكلم عدد من الناس، في وقت واحد، وبأصوات مختلفة، وبعد ان يتكلموا، دون رابط، دون نظام، ليكن أي شيء، هل ما قالوه رواية أم هذيان؟ لا يهم.

حامد لم يكتب لي شيئاً، سوى كلمة كبيرة في منتصف صفحة بيضاء: كتب: الكلمة آخر سلاح يمكن أن ألجأ اليه:

وعادل، ماذا تتصورين ان عادل كتب اليَّ؟ كتب رسالة قصيرة، قال فيها: انه لم يسمع بقائد انتصر بالكلمة، السيف وحده هو الذي يحقّق النصر. هكذا قال لهم معلم التاريخ، عندما حاول ان يسأله بمكر لكي يستعين باجابته في الكتابة اليَّ.

وأرفق بالرسالة صورة قال انه استوحاها من التاريخ. صورة غزال وذئب، وأمامهما ولد صغير يحتضن قطة.

ماذا يريد عادل ان يقول لي؟ فكّرت طويلاً في الصورة، بالأفكار التي دفعته لأن يصورها، لكن لم أصل إلى أية نتيجة، سوف أخلو به وأسأله، الآن لا أستطيع ان أستنتج فكرة محددة، صحيح انه مرت في ذهني مجموعة تخيلات، لكن أياً منها لم يثبت. ربما كان الذئب الجلاد، والغزال الضحية، ولكن ما معنى الطفل الصغير والقطة؟ واية علاقة بين المشهدين؟ فكّرت ان الذئب قوي والغزال ضعيف، والصورة ترمز الى القوة بشكل ما، لكن ما علاقة الصغير والقطة؟ ولم أصل الى نتيجة ايضاً. حاولت تذكّر اية دروس في التاريخ مقررة على عادل، وما يمكن ان يوحي له بالفكرة، لكن لم أصل.

أنت يا انيسة كتبت. كتبت أكثر مما قدرت وأكثر مما ينبغي. فتحت لي جروحاً كانت قد انطفأت منذ وقت طويل. استغربت كيف تتذكرين حوادث، تبدو لي صغيرة متوارية، بحيث يعجز الانسان عن تذكّرها، كنت أكبر مني، تتذكرين أحسن مني، ومع ذلك، فإن القضايا التي تشيرين إليها لا تثبت في ذاكرة الانسان أكثر من الزمن الذي يستغرق حصولها. كم مرة عددت في حياتي الى المائة؟ هل أتذكر؟ كم مرة اغتسلت هل أتذكر؟ حتى لو حاولت أن أُعيد مثل هذه الأمور الى احتمالات رياضية بحتة فإنّني لن أصل.

من الأفكار التي تحدّثت عنها يا انيسة سأكتب ذات يوم رواية

اذا قدّر لي ان أعيش، لا أعرف بعد ماذا سيكون موضوعها، ولكن الأوراق التي أحملها معي تكفي. وصلت إلى أفكار محددة، لكن كما قال لي حامد، وكما قال عادل الحكيم، ما فائدة الكلمة؟ مَن سيقرأها؟ حتى ولو قُرئت فما تأثيرها؟

في لحظات معينة، وكثيرة، تبدو لي الكلمات مثل أوراق الشجر في بداية الشتاء: مصفرة، ضعيفة، حتى اذا صفعتها الريح تطايرت ثم ديست بالأقدام. لم تعد الكلمة كائناً حياً قادراً على ان يفعل شيئاً، والآن وأنا أعود استغرب تلك اللحظات المرعبة التي تدفعني بقوة لأن أكتب، أتصور ان الكتابة كفارة، ولكن.. سأصمت. سأضع الأوراق في مكانها، وسأعود إلى الوطن. انتظر ان يقبضوا عليَّ، ان يعذبوني، ان يقتلوني بالرصاص، لم يعد الأمر يهمني، وأعتقد انه سيكون شرف لي لو فعلوا شيئاً مما أتصوره، ولكنهم كثيراً ما يخطئون، انهم لا يفعلون ما ينبغي ان يفعل، وكل ما أخشاه ان أتحول الى جيفة في الوطن، جيفة ينفر منها كل الناس، اذا رآني الصغار من بعيد قالوا: جاسوس. اذا جلست في مقهى، قال الكبار وهم يديرون لي ظهورهم: انظروا.. الرجل الأصفر الوجه، الذي يجلس وراءنا، خائن. تصوروا الخيانة لونها اصفر، وتبدو على الوجوه بسرعة! أريد ان أكفر بشكل ما يا أنيسة، سأتحداهم، كل ما أريده منك ان تصبحي لي اكثر من أخت، ان تصبحي أمًّا، تماماً مثل أمي. أتتذكرين كيف كانت!

وداعاً يا أصدقائي، وداعاً يا أحبتي. وأنتِ يا أمي أودّعك الآن، واغفري لي، وبصوت يمزقه الأسى أسألك: هل يمكن ليديك ان تستقبلا رجلاً سقط ويحاول من جديد، حتى بعد سقوطه، ان يتطهّر؟

(٦)

لو كان رجب حياً لكتب لكم رواية او شيئاً آخر تستمتعون وأنتم تقرأونه، لكن رجب رحل، رحل منذ وقت بعيد، ولا أجد الآن تكريماً لذكراه إلاً أن أهرّب الأوراق التي عاد بها الى وراء الحدود وأنشرها كما هي.

لو كان حياً لغضب كثيراً مما أفعله، أما وانه أصبح تحت التراب، فأعتقد ان بعض الكلمات يمكن ان تفعل شيئاً، رغم انه أوصاني بحرقها. ما زلت أتذكر تلك اللحظة المجنونة، كأنّها لا تزال تقع تحت بصري الآن، تماماً الآن:

بعد ان عاد ظلّ ثلاثة أيام. انها الأيام الوحيدة التي رأيت فيها رجب يعود طفلاً. فبعد ان زال الشحوب الذي كان يبدو واضحاً في وجهه، ربما من تأثير التعب، بدأ يقرأ «مذكرات بيت الموتى» وقد ألحّ عليّ كثيراً ان اقرأه، واشترى كمية من الأوراق وقلماً جديداً، وقال انه سيبدأ الكتابة حالما ينتهي من قراءة الرواية.

ما يزال الكتاب وبداخله ريشة طاووس، الريشة التي كانت بداخل القرآن الذي تركه أبي، ولا أعرف كيف امتدت يد رجب، والتقطتها، وظلّ أثناء القراءة يداعب بها وجهه، حتى اذا انتهى من فصل وضعها حيث وصل وطوى الكتاب، وغاب في أفكاره.

ما يزال الكتاب وبداخله ريشة الطاووس، ولكن الريشة لم تتحرك، لم تغادر الصفحة الثامنة والتسعين. جاءوا في ذلك الوقت، عند الغروب. لم نكن نتوقع مجيئهم في مثل هذه الساعة، لكنهم كانوا واثقين بحيث انهم دقوا الباب بعنف، وصرخوا..

كان رجب يلبس منامته باستمرار تحت بنطاله، لما رآهم يدخلون، ظلَّ جالساً وابتسامة شجاعة على وجهه، قال لهم بتحدٍ:

- لقد تأخرتم، تأخرتم كثيراً!

انتزع احدهم الكتاب، تطلع اليه بقرف ثم رماه على الطاولة، التقطه رجب ووضع ريشة الطاووس في نفس الصفحة التي وصل اليها، ناولني الكتاب وسألهم:

- هل آخذ شيئاً معي؟ أقصد اقامتي هذه المرة طويلة أم قصيرة؟

قال له واحد لم أر وجهه، لأنه كان يقف وراء رئيس المفرزة:

- الأفضل ان تأخذ ما تحتاج اليه!

قال رجب وهو ينظر اليَّ ويبتسم:

- لن آخذ شيئاً، لن أحتاج إلى شيء!

وساروا. مشى واحد أمامه، واثنان وراءه. ورجب مشى بثقة وجسارة، قبل ان يصل الباب التقط ليلى التي تقف امامه وتضحك، حملها الى صدره، وسمعته يقول لها:

- هؤلاء هم الوحوش الذين حدّثتك عنهم الليلة الفائتة، أتتذكرين؟

وتلقَّى بظهره دفعة قوية كادت توقعه، استند الى الجدار بيد وظلَّ يحمل ليلى باليد الأخرى، وقبل ان ينزلها على الأرض، قال بصوت عالٍ:

ـ انظري اليهم جيداً، لا تضحكي لهم ابداً يا ليلى!

وبكت ليلى، كان بكاءً حاراً خائفاً، ولما لم أستطع ان أوقف بكاءها بكيت معها..

ظلَّ الباب بعد خروجهم مفتوحاً، حتى بعد ان غادروا بفترة طويلة، ظلَّ الباب مفتوحاً. لم يكن أحد منا يملك القدرة او الرغبة لأن يفعل شيئاً. جاء عادل بعد ان أخذوا رجب بقليل، ولما رآني أبكي أنا وليلى صرخ من الألم:

ـ مَن مات يا أمي؟

وجاء حامد بعد الغروب بساعة، وبمجرد ان رآني ولم ير رجب احس. قال يسأل عادل:

ـ هل أخذوه؟

وهزَّ عادل رأسه دون ان يجيب!

وغاب رجب، وحتى الآن لا أحد منا يعرف ماذا فعلوا به، ماذا سألوه؟ بقي سجيناً ثلاثة أسابيع ثم جاء!

أتذكّر تلك اللحظة المجنونة، كأنها لا تزال تقع تحت بصري، كأنَّها تقع الآن، تماماً الآن!

دقوا باب البيت، في الليل المتأخر، دقوه عدة مرات، ثم سمعنا هدير سيارة، كان الهدير قريباً صاخباً في البداية، ثم أخذ يبتعد حتى غاب.

لما فتح حامد الباب، رأى خيالاً أسود على العتبة، صرخ من الدهشة والخوف ثم امتدت يده الخائفة المرتجفة، وكنت قد اقتربت منه، الى الخيال الأسود تحسسه، كان رجب، كان يلهث! كانت أنفاسه قصيرة خابية، حتى ظننت انه فقد وعيه. حملناه الى فراشه،

نزعنا ملابسه وبدأنا نتحدث معه. كان يسمع حديثنا، ويجيب إجابات قصيرة غامضة، أمَّا يداه فقد وضعهما فوق عينيه، وكأنَّه يخاف وهج النور!

الجسد الممدّد على السرير، الذي بدا شديد الهزال والشحوب، هل هو رجب؟ كنت أفكّر، لكن لما سمعت صوته بكيت، دفنت رأسي على طرف السرير وبكيت!

ولما رفعت رأسي مرة اخرى لأراه عرفت الحقيقة كلها. لقد فقد رجب بصره. كانت عيناه ميتتين، تنظران ببلاهة، تدوران بدون معنى، ثم قال تلك الكلمة المرعبة، قالها بهدوء مقدس:

ـ اعطني يدك يا انيسة، اعطني يدك لأني لم أعد أرى.

وصمت.

حاولت في اليوم الثاني أن أتحدث معه، ولكن لم أظفر بجملة كاملة، كان يردّد كلمات، مجرد كلمات، وأغلب الأحيان، لا رابط بينها، وليست ذات معنى. أمَّا الأكل الذي حضرته له فلم يستطع ان يأكل منه إلاَّ القليل.

وفي اليوم الرابع، عند الظهر تماماً، مات رجب.

كيف حصل ذلك؟ لماذا؟ حتى هذه اللحظة لا أدري.

كان في صباح ذلك اليوم اكثر حيوية، وقد طفت على وجهه ابتسامة، أمَّا رغبته في أن ينهض فقد أقنعته ان يؤجّلها الى اليوم التالي.

ولما طلب من ليلى ان تجلس الى جانبه رفعتها الى السرير وجعلتها تقبّله، ثم أجلستها الى جانبه. بدأت أحس بالتفاؤل، وقدرت ان صحته لن تلبث ان تتحسن، اما الكلمة التي قالها دون

ان أسأله، ودون ان نتحدث، فهي:

- احرقي الأوراق!

قلت له أشجعه:

- اذا كانت الأوراق تضايقك يا رجب، فيجب ان تحرقها أنت، كما كنت تفعل من قبل.

وردَّد بانفعال:

- احرقيها، احرقيها، لا أريد ان يقرأها أحد.

ووعدته، دون حماس، ان أفعل، وبدأت أحدثه كيف اني أستطيع البقاء طوال عمري الى جانبه، لكي أكتب ما يمليه عليَّ، واننا سنفعل أشياء كثيرة.

كان يهز رأسه بحزن، ولا يتكلم، وفجأة رأيت وجهه يعتكر، كأن ألماً حاداً يتلوى في داخله. انزلت ليلى عن السرير، ودفعتها خارج الغرفة، وظللت واقفة إلى جانبه.

أتذكر تلك اللحظة المجنونة، وكأنها لا تزال تقع تحت بصري، تقع الآن، تماماً الآن.

تقلص وجهه، ثقلت أنفاسه، أصابه شحوب شديد، ثم فجأة هزَّ رأسه بقرف متألم.. وانتهى! أتذكر تلك اللحظة، كأنَّها لا تزال تقع تحت بصري، تقع الآن، تماماً الآن.

وبعد ذلك لا أتذكر شيئاً.

في الأسبوع الثاني لوفاة رجب أخذوا حامد. منذ ذلك الوقت أخذوه، وحتى الآن انقضت سنة وأربعة شهور، وحامد وراء الجدران، وكل ما استطعت ان أعرفه، انهم اعتبروه مسؤولاً عن كلمات نشرت في صحيفة أجنبية، وهذه الكلمات تقول ان السلطات

هي التي قتلت رجب، بعد ان فَقَد بصره من التعذيب.

انا امرأة خاطئة، الخطيئة ولدت معي وسرت في دمي، ويبدو انها سترافقني حتى آخر ايام حياتي. لا أقول هذه الكلمات الآن لأعذّب نفسي، لأكفّر عن خطايا، لا.. أقولها وأنا متأكدة تماماً أنّي خاطئة.

قبل أيام رأيت عادل يجمع الزجاجات الفارغة في البيت، تركته يفعل لأرى ماذا يريد ان يصنع بها، ولشدة ما عجبت، عندما رأيته يملؤها بالزيت والبنزين، انتزعتها بقوة، وكدت أضربه، لولا أنه بكى وقال لي:

ـ أريد ان أهدم السجن وأُخرِج أبي.

لا أعرف، هل أخطأت عندما منعت عادل؟

اعرف أني أخطأت من قبل، وخطاياي تلك لا أغفرها لنفسي أبداً.

عملت كل شيء لكي يخرج رجب من السجن، كانت خطيئتي الكبرى والأولى، ثم حين فكّرت ان يعود، بعد ان قضى ثلاثة شهور في فرنسا. ان بكائي أمام عبد الغفور كان أقوى دافع حمل رجب على العودة، وعاد وقتلوه.

لكن مَن قتله غيري؟ لو ظلَّ هناك لما امتدت اليه أيديهم، ولفعل أشياء كثيرة تزعجهم، ولكن وأنا أزور حسين عبد الجليل، ثم لما بكيت أمام عبد الغفور، انتزعته، لكي أقتله. ولم تتوقف خطيئتي عند رجب، لأني لمت حامد كثيراً، بعد ان سمعته يتحدّث بصوت عالٍ وأمام عدد كبير من الناس عن مقتله. قلت له في تلك الأمسية، بعد ان ذهب الرجال:

ـ اما آن لنا أن نستريح يا حامد؟ ألا نترك رجب يستريح في قبره.

سألني بغضب:

ـ ماذا تريدين أن أفعل؟

ـ لا تقل انهم قتلوه.

ـ ومَن قتله غيرهم؟

ـ رجب انتهى، ويجب ان لا تقول شيئاً الآن.

ولم يتوقف حامد، بدأ يلعب لعبة رجب ذاتها، ولكن بشكل غامض ومحير. لم يتركوه طويلاً، اخذوه، منذ سنة وأربعة شهور أخذوه، ولم يسمحوا لي أن أراه إلا قبل شهور. كان يضحك وهو يسألني عن الصغار، وطلب مني بإلحاح أن لا آتي في المرة الثانية إلاّ وليلى معي!

والآن لا أُحاول أن أمنع عادل فقط، وإنّما أردت أن أضربه، هل أُخطىء مرة أخرى وأنا أمنعه؟

قرأت أوراق رجب، بكيت كثيراً لما قرأتها، وبكيت أكثر لأني لم أستطع ان أكون له أمّاً كما أراد. ولا أعرف الآن، هل أُخطىء اذا تركتها تسافر خارج الحدود لتنشر؟ لو ظلَّ رجب حياً لغضب، أنا متأكّدة من ذلك، فقد طلب مني أن أحرقها، ولم أفعل، ولأني أتركها الآن تسافر، ليقرأها كل الناس، رغم كل ما فيها من أخطاء وصرخات، ولا أعتقد ان رجب يرضى عنها او يريدها. لكن كما قلت لكم: انا امرأة خاطئة، وأريد ان أتّبع طريقة رجب ذاتها: ان أدفع الأمور إلى نهايتها... لعل شيئاً بعد ذلك يقع.

ربيع ١٩٧٢

عبد الرحمن منيف
(1933 ـ 2004)

وُلِد في عمان لعائلة من نجد وسط العربية السعودية. درس في عمان، بغداد والقاهرة.

بعد حصوله على الليسانس في الحقوق تابع دراسته العليا في جامعة بلغراد (يوغسلافيا) حيث حاز على درجة الدكتوراه في اقتصاديات النفط «الأسعار والتسويق».

سُحِبت جنسيته السعودية عام 1963.

عمل في مجال النفط في سوريا لعام 1973 حيث انتقل للعمل بالصحافة في بيروت «مجلة البلاغ» ومن ثم غادرها إلى بغداد ليصدر مجلة تعنى باقتصاديات النفط وهي «النفط والتنمية» التي كان لها صدى كبير في تلك الفترة.

انتقل في أواخر 1981 إلى فرنسا متفرغاً لكتابة الرواية بشكل كامل فكانت «مدن الملح» بأجزائها الأولى من أهم نتاجاته، وهي الرواية التي تُرجمت إلى الإنكليزية والألمانية والنروجية والإسبانية والتركية، والتي أكمل بقية أجزائها في دمشق التي استقر بها من أوائل 1987 حيث ساهم في إصدار الكتاب الفصلي «قضايا وشهادات» بالاشتراك مع د. فيصل درّاج والمسرحي السوري المعروف سعد الله ونوس.

عاش متنقلاً بين بيروت ودمشق حتى وفاته في 24 كانون الثاني 2004.

حصل منيف على جائزة الرواية العربية في المؤتمر الأوّل للرواية الذي نظّمه المجلس الأعلى للثقافة في مصر، إضافة إلى عدد من الجوائز الأدبية الأخرى. وقد تُرجمت معظم كتبه إلى لغات متعددة (15 لغة).

مؤلفاته

روايات

الأشجار واغتيال مرزوق، دار العودة، بيروت 1973.

قصّة حبّ مجوسيّة، دار العودة، بيروت 1974.

شرق المتوسّط، دار الطليعة، بيروت 1975.

حين تركنا الجسر، دار العودة، بيروت 1976.

النهايات، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1977.

سباق المسافات الطويلة، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1979.

عالم بلا خرائط، رواية مشتركة: عبد الرحمن منيف وجبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1982.

خماسية مدن الملح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1984 ـ 1989.

الآن... هنا، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي، بيروت 1991.

سيرة مدينة، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1994، وقد صدرت في طبعة خاصة عن المركز الثقافي العربي، وتضمنت رسوماً وتخطيطات لعبد الرحمن منيف، تدور حول «سيرة مدينة».

ثلاثية أرض السواد، المركز الثقافي العربي والمؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1999.

أم النذور، المركز الثقافي العربي والمؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 2005.

أسماء مستعارة (قصص قصيرة)، المركز الثقافي العربي والمؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 2006.
الباب المفتوح (قصص قصيرة)، المركز الثقافي العربي والمؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 2006.

دراسات أدبية وسياسية

الكاتب والمنفى، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1991.
الديمقراطية أولاً، الديمقراطية دائماً، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1995.
بين الثقافة والسياسة، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء 1999.
رحلة ضوء، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء 2001.
ذاكرة للمستقبل، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء 2001،
لوعة الغياب، النشر والمركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء 2001،
عروة الزمان الباهي، بيسان للنشر والمركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء 1997.
العراق: هوامش من التاريخ والمقاومة، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء 2003،
مبدأ المشاركة، وتأميم البترول العربي، ، دار العودة، بيروت 1973.
تأميم البترول العربي، بغداد 1976.

دراسات فنية

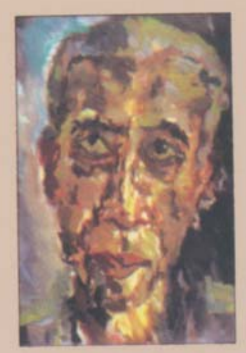
مروان قصّاب باشي: رحلة الفنّ والحياة، نشر خاص، دمشق 1996.
جبر علوان: موسيقا الألوان، دار المدى، دمشق 2000.

قبل ربع قرن، حين نُشرت «شرق المتوسط» لأول مرة، كان يُظنّ أن القمع ورمزه الأقوى السجن السياسي، قد ينحسر بمجرد لفت النظر إليه.

الآن، وبعد هذه الفترة الطويلة، نكتشف أن القمع امتد واتسع، وأنجب مخلوقاً خطراً هو العنف، ولا يُعرف ماذا يمكن أن يلد أيضاً إذا استمرت الأحوال هكذا.

ألم يحن الوقت لترتفع الأصوات وتتضافر القوى وتتنبه الضمائر من أجل وضع حد لهذا العار الذي يجللنا جميعاً؟

إن اليقظة هي بداية النهضة، ولا يقوى على صناعة النهضة إلا بشر أحرار وأسوياء ويشعرون أن هذا الوطن لهم.



عبد الرحمن منيف

من أعماله:

- مدن الملح (5 أجزاء).
- أرض السواد (3 أجزاء).
- الأشجار واغتيال مرزوق.
- سباق المسافات الطويلة.
- الديمقراطية أولاً... الديمقراطية دائماً.
- أم النذور.
- سيرة مدينة. (عمان في الأربعينات).
- الآن هنا.
- قصة حب مجوسية.
- في أدب الصداقة.
  (رسائل متبادلة مع مروان قصاب باشي)

لقيت أعماله إقبالاً واسعاً، وطُبعت معظم الأعمال في طبعات عديدة، كما تُرجمت أعماله إلى العديد من لغات العالم.

شرق المتوسّط

هل يمكن أن ترمم إرادة إنسان لم تعد تربطه بالحياة رابطة؟ أنا ذاك الإنسان. لا لست إنساناً، السجن في أيامه الأولى حاول أن يقتل جسدي. لم أكن أتصور أني أحتمل كل ما فعلوه، لكن احتملت. كانت إرادتي هي وحدها التي تتلقى الضربات، وتردها نظرات غاضبة وصمتاً. وظللت كذلك. لم أرهب، لم أتراجع: الماء البارد، ليكن. التعليق لمدة سبعة أيام، ليكن. التهديد بالقتل والرصاص حولي يتناثر، ليكن. كانت إرادتي هي التي تقاوم. الآن ماذا بقي فيَّ أو مني؟ في لحظات الغضب والتحدي أصرخ: يجب أن أفعل شيئاً، وما دمت فقدت كافة أسلحتي: النظرة الغاضبة، التحدي، الصمت، فلأجرب سلاح الكلمة. لأقل كلمة أخيرة قبل أن أرحل. ولكن الكلمات العاهرة تضيع منّي. في الليل، وأنا مفتوح العينين، وأنا مغمض العينين، أبذل جهداً أخيراً لكي أحاصرها، لكن إذا جلست إلى الطاولة الملتصقة بالحائط، أشعر أن ليس لديّ أية كلمات.

ISBN 978-614-419-095-3



دار التنوير للنشر والتوزيع

المؤسسة العربية للدراسات والنشر